اقرأ

تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

دار المعارف بمصر

خذ المعارف من دار المعارف

obeikandl.com

obeikandl.com

سعد مكاوي

الرقص على العشب الأخضر

اقرأ ٣٧١

دار المعارف بمصر

obeikandl.com

اقرأ ٣٧١ – سبتمبر سنة ١٩٧٣

obeikandl.com

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

obeikandl.com

١

الرقص على العشب الأخضر متعة الليالى المقمرة ، فى خضرة سابغة لونها رائق وحواشيها مهذبة ، لا يخدش مساحتها الواسعة أمام البيت الصغير تمثال أو شجرة ، حتى أحواض الأزهار نائية هناك فى حضن السور ، ممتدة فى شريط رفيع حول بساط الخضرة العبق داخل السور العالى الذى يحرم على أى عين بشرية أن تختلس ولو لمحة من الجنة .

هى ترقص حول الفراش الأرضى المعد فى الوسط ، وضوء القمر يسكب على عريها الكامل انعكاسات باهرة ، وعلى خضرة العشب يتلألأ جسمها المبدع تكويناً وحركة : أنثى فاخرة حيناً وحيناً آخر فراشة طاهرة .

وهو ينهل رقصها راقداً متجرداً فى حمام من أشعة القمر ، فى تمام صحوه قبيل الفجر ، لا مخموراً ولا مخدوراً بل سكران برقصها وحده ، دائرة حوله من بعيد أو دانية منه بكمالها الجسمانى وخفتها الروحانية .

وهما فى صومعة رفعا سورها عالياً فى قلب زراعة صغيرة ، مسورة هى الأخرى بأسلاك شائكة . . . وبيضاء كالياسمينة ظلت تدنو بالحركات الأخيرة لرقصتها من طرف الفراش حتى جلست تلتقط أنفاسها وعلى وجهها طلاقة النشوة ، فمد لها يده بفوطة أخذت تدلك بها صدرها وبطنها وهى تومئ بوجهها المبتسم نحو الكوبة الزجاجية المقلوبة كالغطاء على حلق القلة الفخارية ، فملأها لها واعتدل فى رقدته ليرفع الماء إلى شفتيها فتغيرت خطوط جسمه هو الآخر ولمعت على سمرته الأشعة ، ثم ابتسم كل منهما لوجه الآخر قبل أن تستلقى إلى جانبه وتتمدد على ظهرها مثله فى حمام القمر .

وسألها لما بشر النور بمطلع النهار :

— هل ندخل ؟

— كما قدمت للنجوم التحية : أريد أن أحيي مشرق الشمس !

وفي أشعة الشمس الرقيقة التي أخذت في التدفق عبر جدار السور تفتحت الياسمينة الحية ونفحت الصباح الوليد بعطرها . وتمطى هو في جلسته على طرف الفراش حتى لانت كل عضلة في جسمه متابعاً وثباتها الرشيقة هنا وهناك ، إلى أن أحس فجأة بالجوع وهي تدنو منه متطاوسة .

وتمثل لخاطره في الحال طبق كبير مفعم بالحمام المشوى على الفحم ، فخطف يدها واندمج معها في حركاتها الراقصة وهو يطير بها نحو الباب الخلفي للبيت ، باب المطبخ . . .

— جائعة مثلي ؟

— جوعي متوحش !

— حمام مشوى ؟

— ما دام هذا هو مزاجك ، وليكن إلى جانبه المش القديم !

وفي ركن المطبخ أكلا وجبة متوحشين عاريين وهما يضحكان كلما طرقعت العظام الهشة تحت ضروسه النشيطة ، وبين الحين والحين يغوص إبهامها في طبق المش ثم يختفي في فمها وهي تزوم مستطعمة مذاقه . .

٢

شبعا نوماً كل في حجرته ثم التقيا بعد العصر تحت الدش .

— نمت نومة أهل الكهف !

— وجائع مثلي ؟

— أريد أن أغزو شجرة « منجة » وأتغدى من أطيب ثمارها !

— أطيب الثمار في أعالي الشجر . . . أنا أطلع لها !

تصور عيناً متطفلة تلمحها من وراء السلك الشائك وهي في أعلى

الشجرة فمنعها :

— لا أحب أن يقول الناس من حولنا إن بعضهم رأى عندى امرأة متجردة !

— هذا قيد على حريتى لم أكن أتوقعه هنا !

جاء هو بالثمار الناضجة وجلسا فى الشرفة العليا صامتين كما يحدث لهما كثيراً حتى غابت الشمس وراء أشجار التوت فى الغرب . وشاع فى نفسيهما من لحظة الغروب شىء من الشجن ، فنهضت وجلست فى حجره وحاولت أن تكسر حاجز الصمت :

— هل غضبت من كلمتى ؟ . . هى فعلا سخيفة . كيف أتكلم عن قيد وأنا أعلم ما أنفقت على هذا الركن لكى تحقق لى فيه كل حريتى كامرأة سعيدة ؟!

ووثبت إلى الداخل واختفت لحظات قبل أن تعود إلى الظهور مندلعة إلى البساط الواسع الذى أكسب الغروب خضرته بعض القتامة ، ناشرة طيرانها العفوى فى كل اتجاه داخل السور العالى . . . وعما قريب تحتضن الأشعة لدونة جسمها وشفافية ارتجالاته ولطافة حركته . . . لكن صوت خفير « المنجة » عند البوابة البعيدة تردد فى إلحاح منادياً باسم من لا يفكر فى تلك اللحظة فى غير العثور على جلبابه ليدخل فيه . . .

— ضبطته بشوال « المنجة ! »

فى شحوب ضوء القمر الطالع رأى شوالا صغيراً مليئاً بثمار زراعته . . . وإلى جوار الشوال وفى قبضة الخفير شاب مضطرب الوجه تحت طاقية مغزولة يطلب الرحمة بالدموع والانكسار ، فضاقت نفسه باللحظة كلها ونظر إلى الخفير فى غيظ ونفور :

— أزعجتنى من غير داع !

— سارق « المنجة » . انظر سيادتك !

obeikandl.com

تأمل الوجه الضارع قبل أن يكلمه :

ــ هذه أول مرة ؟

ــ ثانى مرة .

ــ هل كانت الأولى من عندى ؟

ــ نعم .

ــ إذا تركتك تذهب بالشوال مليئاً ونسينا الموضوع ، فهل تعود إلى سرقتى مرة أخرى ؟

ــ لا طبعاً !

تقبل التوبة . . . وأشار إلى الخفير أن يكف يده عنه :

ــ اتركه يذهب .

ــ لو تركناه ، سيعود لنا فى المرة القادمة بعصابة !

ــ أنا أصدقه . . .

ــ أنا لا أصدق لصًّا.

لمست يد صاحب المكان كتف الشاب الذى ينتظر كلمته الأخيرة :

ــ أنا أصدقك . . . اذهب بما حملت !

أما هى فحاذرت أن تلمحها عين اللص أو الخفير وهى تتابع المشهد كله من خصاص النافذة فى الدور العلوى . . . وعندما راق لها الجو تجردت فى الحال وقفزت هابطة فى السلم الداخلى إلى أن احتوتها رقة النور عند مكان حبيبها الصامت .

ــ ضايقك ما حصل ؟

ــ إنما هو وجه الفتى لا يريد أن يفارقنى !

ــ إنك لن تدع ظهور لص يعكر عليك صفو الليل !

وهى تخلع عنه الجلباب ناقش معها وجهة نظر الخفير . . يرى أن ما فعلته خطأ . . . يعتقد أن ذلك الإنسان سيفترض أن سبب تسامحى معه هو الضعف لا الإدراك السليم للموقف . . . وأنا أرى أن الشاب

ليس لصاً بالمعنى الحرفى وأنه سيلتزم بالاتفاق .. وقد يتحول إلى صديق.. وجهه لا يبرح خيالى !

حاولت أن تحركه للمرح لكنه ظل على حاله من الانطواء فتمددت هى الأخرى وأباحت وجودها لنفحات النسيم وملاطفات الأشعة .

٣

لم تكن طلعة القمر فى الليلة التالية أقل بهاء ولا أعف شوقاً إلى كمال جسد يرقص لإله الحب على سطح كوكب الأرض . . . لكن الصفو لم يطل . . . هربت إلى البيت بإشارة من إصبعه . . وأطلت من خصاص النافذة العليا على شوارب الخفير وقد قفش فى هذه المرة فتى وفتاة !

وابتسمت لأن حبيبها نهر الخفير قبل أن يضبط لبسة الجلباب .

— اسمع . . . بعد هذه المرة لن تزعجنى فى الليل أبداً ولو انقلبت أشجار « المنجة » عفاريت تقص شواربك ، هل أنت فاهم ؟

اهتزت الشوارب بغضبة عنيفة :

— لكن فصلى الليلة يقطع الخميرة من البيت ، وبنجس الزراعة !

أسكته بحزم ليتأمل الوجه الوسيم لشاب فى مثل سن زائر الأمس ، لكن فيه على الفقر شيئاً من اللطافة ؛ يحاول بالنظرة الصامتة أن يسرى عن بنت مسكتها الرعشة وأشبعت وجهها لطماً . . .

هزت قلبه لمحة عينها النجلاء البليغة وهى ساقطة عند قدميه تناشده أن يستر عليها . . .

— أين وجدتهما ؟

— فى الناحية القبلية . . . تحت شجرة « منجة » ! . . .

— سرقا شيئاً ؟

— وهل كان عندهما وقت أو وعى ؟! . . . السرقة كانت ستتم طبعاً

بعد الأنس والحظ !

الولد والبنت لا يمكن أن يزيد عمرهما معاً على خمس وثلاثين سنة ، وهما ينضحان عرقاً وحباً . . اخترقا أسلاكه الشائكة تحت راية العشق ... والبنت أنثى وعيناها متكلمة . . .

— إذا تركتكما ومعكما ما تقدران على حمله فهل تعودان إلى هنا مرة أخرى ؟

تبادل الولد والبنت نظرة قبل أن يقول فى ثبات :

— لم نجئ إلى هنا إلا بعد أن ضاق بنا الحال هناك !

— لماذا لا تتزوجان ؟

— إذا لم يعقل أهلنا ويزوجونا بطريقتهم فلن نجد غير بستانك !

زمجرت الشوارب :

— قالوا لكم عن بستاننا إنه ملتقى الكلاب الضالة ؟ !

لم يعره الفتى التفاتاً . إذ هو مشغول بذلك المعنى المريح الناطق فى عينى صاحب المكان ، وتوجه إليه بالدعاء :

— اجعل لحبنا فى ظلالك القدرة على اختلاس قطرات من الهناء !

وإذا بصوت من أعلى يتدفق منه الحزم برغم رقة نعومته :

— انتظر يا ولد ... وأنت يا بنت ... أنا نازلة لكما بالرأى والمشورة!

كانت قد فتحت النافذة على مصراعيها قبل أن تطلق نداءها الفجائى ، فارتفعت إليها عيون البنت والولد والخفير وتحجرت على إشراقة وجهها وتهافت شعرها على كتفيها من كل ناحية كأنه يشهر غيرته على حسنها . . وكانت إذن الفضيحة وستعرف الجاهلية المترامية وراء حدود أسواره أنه جاء معه بامرأة .

٤

اتسعت الفرشة فى قلب العشب الأخضر للأربعة .

وبعد أن طرد الخفير من الساحة المسورة حاملا معه إنذاراً بالفصل من الخدمة إذا عاد إلى إزعاج الصفو مهما يكن السبب ، لم يبق فى حكاية البنت والولد قطرة تعتصر . . وراحت صدمة التلاقى فتفتحت الأنفس وتعانقت الحكايات واتحد الهوى . . .

بشعشعت نشوة الألفة فى حضن الأشعة المشحونة بكهرباء الفضاء البعيد، وسألت البنت وهى مبهورة بالأنثى المصقولة التى تكلمها وتضاحكها :

— هل أنت زوجته ؟

— لا .

— هل أنت زوجة أى رجل آخر ؟

— لا .

— لماذا لا تتزوجان ؟

— سيحدث هذا يوماً ما بكل بساطة .

— وما حكايتك أنت يا أحلى ما رأت عينى ؟

وضحكت قلوبهم وارتوت من الصفاء

— علمينى كيف تحبين الرجل ؟

قرصتها من خدها الأسمر الزاهى :

— ولم لا تعلمينى أنت ؟

— أنا ؟

— حالنا واحد .. كلانا فى موقف الخالصة للحب .. أنا جئت من المدينة مع حبيبى فى ستر الليل وأنت جئت من القرية فى ستر الليل مع الحبيب !

— أنا أعبر عن حبى بالطاعة وليكن ما يكون .

— وأنا أريك فى الحال كيف أعبر !

أدرك صاحبها ما تنوى أن تفعل ، ورجاها بنظرة أن لا تنضو عنها الرداء الخفيف الذى نزلت به وتتركه للعشب الأخضر . . . فابتسمت فى الضوء الحنون ممتثلة لرجائه ، وبدأت رقصتها بصيحة مرحة ...وفى الحال اندمجت فصارت خفيفة كالجناح الرقيق . . وأمتع هو نفسه دون أن يلتفت إلى محاسن رقصتها بدراسة مسلية لتأثير الغلالة الخفيفة على الضيفين . . .

وانتهت الرقصة القصيرة هناك عند السور وعادت زاهرة كالنجمة فقال صاحب المكان لضيفه المبهور :

— ما رأيك فى هذا يا صاحبى ؟ .. نحن الآن أصدقاء ... ما قولك فى رجل يسمح « لحريمه » بالرقص أمام رجل غريب ؟ . .

لكن الفتى ظل جامداً مسحوراً أمام السؤال ، فضاحكته « الحريم » ليسترد المقدرة على النطق :

— قبل أن ترد تصور أيضاً العكس . . . تصوره هو يرقص أمام محبوبتك !

والبنت قبل الولد استردت قدرتها على الكلام :

— لو حصل هذا لخنقنى . . . إن لم أمت أنا قبلها من الخجل !

سألها صاحب المكان مستملحاً نجل عينيها :

— طيب ما قولك فى أن نرقص معاً نحن الأربعة هذه الرقصة ؟

ومع سيادة الضحك وجد الغلام أيضاً كلمته :

— لكأنك تطلب منا أن نسلخ جلدنا بأيدينا !

لكن بعد لحظات تبادلت النجوم ومضات برقية تلاقت فى السماء كالبسمات المتقاطعة ، وكل ما فى السماء من سنا تعانق فى أشعة الضياء الليلى وانصب فى انعكاسات سماوية على ثلاثة يرقصون حول الياسمينة الحية فى ملابس خفيفة وكأنهم أطياف تعيش بالرقص على العشب الأخضر .

٥

عمق الصورة فقط هو الذى تغير عندما جاءت ليالى الظلام وأخذت حركات الرقص العفوية تبدو كالعمل السحرى ، وتكتسب صفة جديدة هى الاندماج بالمعنى المطلق لجلال الكون . . . وظل تيار واحد يسرى بين الأجسام الأربعة الراقصة التى تشابكت أيديها فى حلقة مقفلة إلى أن قطعه نداء الخفير من وراء السور :

— كلب الحراسة مات مسموماً !

ما دام الإنذار لم ينفع فلا بد من طرده وتثبيت الغلام فى وظيفته بعد استكمال الإجراء الإدارى . . هكذا أعلن صاحب المكان قبل أن يشتبك مع الخفير بقذائف متبادلة من فوق السور :

— لعل الكلب نائم مجرد نوم ؟

— بل ميت وشبعان موتاً !

— ومن قال لك إنه مسموم ؟

— شكله ناطق !

— عندك شهادة فى الطب الشرعى حضرتك ؟

— بل الطبيب الشرعى هو الذى قرر ذلك بنفسه !

— متى ؟!

— بمجرد ما شاهد البقع التى على جلد بطن الكلب !

— وأين هو الطبيب الشرعى ؟

— عندنا فى الاستراحة .. أنا بلغت .. والطب وصل مع الإدارة والنيابة والدنيا !

— كلهم جاءوا عندنا هنا ؟ !

— والعمدة .. والكلب الميت .. الجميع فى الاستراحة والقهوة حاضرة .. وكل الواجب عملناه بدون إزعاج لكم حسب الأوامر فى آخر مرة . .

— من صباحة ربنا إن شاء الله مفصول من الخدمة !

— أنا كتمت عنكم المسألة قدر ما استطعت ؛ إلى أن أمرتني النيابة بإخطاركم للحضور أمام مجلس التحقيق ، وربنا لا يكلف العبد فوق طاقته !

— مفصول من الخدمة !

٦

وجدهم الفجر فى كآبة تسلطت عليهم بعد إجراءات التحقيق الطويلة التى استلت من ليلتهم نخاع السرور وأماتت الرقص . .

ومرت ساعة ثقيلة البطء لكن مع تباشير النور أخذوا يتكلمون فى شئون صغيرة من شواغل النهار . . . إيقاد الفرن وترتيب البيت وجمع ساقط « المنجة » وتهذيب العشب . . . ثم طلعت الشمس على زائر لم يتوقعه أحد ، فقد ارتفع نباح جرو لصق السور من الخارج ، قرب الباب الفاصل بين حدود الزراعة وحدود الصومعة . . . !

قال صاحب المكان مستغرباً :

— لم يكن عندى غير كلب واحد عجوز هو الذى جاءنا فى مأتمه بشخصيات مهمة . . والأغلب أن يكون هذا الذى نسمعه عفريت الكلب !

لكن الباب الذى فتحته يد ناعمة مشفقة أظهر فعلا جرواً صغيراً بدأ زيارته بتعبير جسمانى كامل عن التودد . وشاركت مؤخرته أذنيه وذيله فى رقصة تعارف ظريفة . . .

وهتفت التى فتحت له :

— تأمله ! هو صورة مصغرة من الفقيد ! . . . هذا ابن كلبك بلا جدال !

وهارشت الكلب الصغير بأصابعها حتى حركت فيه كل حوافز

اللعب ، ونهضت تجرى على الخضرة فانطلق وراءها كأن يريد أن يأخذ بثأره . . وحميت المطاردة الضاحكة بين الجرو الظريف والياسمينة الطائرة على العشب الرطب بندى الصباح . . .

وانتعشوا فى النهار بعد كآبتهم . . ورتبت المرأتان البيت وأوقدتا الفرن وخبزتا الفطير على حين تكفل الرجلان بجمع « المنجة » والاسترخاء والثرثرة . . .

وانتهى اليوم بأحسن مما بدأ ، إلى أن سترهم الظلام فغنوا وصفقوا ورقصوا حول كومة الثمار كالمجانين . . وفجأة نبح الكلب الصغير مرهفاً أذنيه الدقيقتين نحو الغرب ، فالتفت صاحب المكان ليجد أمامه بندقيتين . . .

وتجمدت الرقصة حتى صاروا كالتماثيل ، وسكت الكلب أمام شبحين طويلين لا يدرى أحد كيف هبطا من ارتفاع السور .

وفى السكون العميق دوت رصاصة وسقطت البنت الكحيلة العينين ميتة عند قدمى حبيبها . . وجاء أول تفسير للموقف على لسان الشبح الآخر الذى أشار بيده إلى زميله مطلق النار :

— أبوها !

هذا صوت خفير « المنجة » وهذه شواربه ... وأضاف مخاطباً حبيبها :

— ترقص فى مكانى يا عاهر وتظل حياً ؟

ودوت من بندقيته الرصاصة الثانية فسقط الولد فوق جثة حبيبته ، وكانت الرصاصة الثالثة من نصيب الياسمينة التى فى الحال تساقطت أوراقها البيضاء على العشب ذابلة هامدة . .

وظل صاحب المكان فى وقفته الجامدة أمام الفوهتين غير مصدق للكابوس الذى احتواه فى صدمة ، إلى أن دوت الطلقة الأخيرة .

نهاية رائد

obeikandl.com

هذه قصة بيت من بيوت القاهرة فى آخر النصف الأول من القرن العشرين ، أهله من الطبقة الوسطى . وأيسر ما يقال فى شخصية « رجل البيت » — عصام — أنها ليست مما تقع عليه الملاحظة فى كل بيت مصرى . وما فى مجاهل نفسه من عقد نفسية يخلع على حياة البيت ومصائر أهله — الأم وبناتها الثلاث — لوناً خاصاً قد لا يوفق القصصى المولع بالواقع كل يوم إلى مثله . ولعل هذا هو سر رغبتى إلى الزميل ، غفر الله له ورحمه ، فى أن يأذن لى فى محاولة تسجيل هذه الصورة ، وقد بلغ من كرم الزميل الراحل أنه لم يضع بين يدى ذكرياته وصراحته وحدهما ، بل أضاف إلى حديثه الصادق الشائق كنزاً آخر وجدت فيه أصدق العون ، هو دفتر يومياته ، ودفتر يوميات شقيقته الصغرى .

١

الضجة الفارغة ! كلها ماتت مع الصباح ولم يبق منها إلا هذا الصداع الفظيع فى رأسه ، خلف عظام جبينه . وكان أول ما استرجعه ذهنه من ذكرى ليلته المضنية منظر أخته الوسطى وهى جالسة فى « الكوشة » إلى جانب عريسها فى ثوب الزفاف الأبيض . وتمطى الأستاذ فى فراشه ، وحك بظاهر يده ذقنه غير الحليقة وهو يعتدل جالساً على طرف الفراش وامتدت يده إلى المنضدة الصغيرة الملتصقة بوسادته فتناول نظارته ذات الإطار الضخم وسد ذراعيها أذنيه ، وجعل يحرك قدميه على السجادة

الصغيرة باحثاً عن خفيه . ثم أجال فى الغرفة نظرة كليلة ناعسة ، فطالعته الكتب فى رفوفها ، والأوراق المتناثرة على المكتب . . وعادت تحتل ذهنه صورة أخته هدى وقد عقدت يدها بذراع حجازى أفندى وجعلت تختال فى « الزفة » تحت رعد من دقات الدفوف . . وارتسمت على شفتيه الغليظتين ابتسامة تهكم شاحبة . . ياللتلك الضجة المسرحية المضحكة التى تقترن دائماً بالزواج ! . . ذلك الغناء الرخيص . . « اتمخطرى ياحلوة يا زينة » . . وقد لا تكون العروس من ربات الجمال ، ولا هى فى حديقة النساء بالوردة اليانعة . . « تهنوا وتتمتعوا الليلة » . . والبنات يسمعن . ويحلمن . . البنات من العذارى وأنصاف العذارى الهائجات المائجات من حول العروس . وقد استروحن فى مراسم « الفرح » وأغانيه الخليعة . . . شتى الخيالات الحسية . . والكلمات الوقحة التى تتردد على ألسنة بعض المدعوين والتى يجهر بها أصحابها المتظرفون دون حياء : « إن حجازى أفندى لن يجد الليلة وقتاً للتفكير فى هندسة السيارات ! ! . . » وصوت العالمة المجلجل بالكلمات والرقص القبيح وهى تتغنى بمسرات الليلة التى تنتظر العروسين ، ثم وهى تتجنى على الحقيقة الماثلة للعيون : « عريس قمر نوره علينا ظاهر » . . والعريس حجازى أفندى ، ذلك المخلوق الأصلع الأكرش الذى تتعثر كهولته فى مطلع عقده الخامس ، وصاحب ورشة السيارات الهندسية ، هو آخر من يذكر محياه السمالوطى بالقمر ، والهوى ، والنور . . والعروس التى تصغره بنصف عمره . لا تكاد الدنيا تسع فرحتها ، وأمها الست دولت ، وهى تخب فى ثوبها اللامع العجيب ، بقامتها المكتنزة المفرطحة ، ترتسم على وجهها الملطخ بالأصباغ آيات من الرضا والغبطة ، كتلك التى ترتسم على محيا تاجر أزرق الناب أتم لساعته صفقة رابحة . . .

وأقبلت « مبروكة » الخادم السمراء القصيرة تعلن مقدم زائر من أصدقاء عصام :

— سى حامد يا أستاذ .

ولم يلبث أن دخل الزائر . ومع أنه كان فى مثل سن صديقه ، فى نحو الثالثة والعشرين ، إلا أنه كان يبدو أنضج شخصية وأكبر سناً . ودار الحديث بعد قليل عن شعور عصام وقد خلا البيت من إحدى شقيقاته المحبوبات ، فقال :

— إن غاية ما يخالجنى من إحساس هو أن البيت قد استراح من ضجة الاستعداد للزفاف ، والحديث الذى لا يفرغ عن « الجهاز » والفساتين والمدعوين والفرح ، وزيارات الأسرتين : حجازى أفندى وأولاده من زيجته السابقة عند الست دولت . . والست دولت وهدى عند حجازى أفندى . . وبعد العشاء . . هدى وحجازى ، فى ركن الصالون ، وقد اشتبكت أيديهما وعيونهما فى مناجاة بلهاء . . لقد زال بحمد الله هذا الكابوس الثقيل ! . .

وتأمل عصام صديقه حامد وقد جلس إلى المكتب وجعل يتصفح أصول آخر مقال خطه قلم صاحب البيت عن « الزواج مقبرة السعادة » . كان فى وجه حامد الأسمر الوسيم حزن عميق غامض . ولم يكن عصام يجهل أن ضيفه كان يضمر لهدى دائماً ميلا خفيفاً يعتمل فى نفسه على استحياء . أهو حزين لأنها أصبحت لرجل آخر ؟ . . وعجب عصام كيف أحس لهذه الفكرة فى نفسه مسرة شريرة ، كأنما لذ له أن يعلم أن هناك رجلا غيره يستشعر الأسى ، لأن هدى الرقيقة الحسناء قد سقطت بين ذراعى الجلف الخشن حجازى أفندى ! . . ولم يلبث أن استبدت به رغبة جديدة ، شريرة هى أيضاً ، تدفعه إلى أن يقسو على ذلك الصديق الخجول المنطوى على جرحه :

— إننى ليحزننى يا حامد أن تكون هدى الطفلة المرحة الجميلة قد وقعت فى قبضة ذلك الرجل التافه البغيض ، فلقد كانت جديرة بخير منه ، لكنها لم تعرف كيف تنتظر فرصتها . .

كان يتكلم وهو يرمق صديقه ، ويجد مسرة نادرة فى دراسة وقع كل كلمة من كلماته فى نفس ذلك الشاب الصامت الذى يبذل أعنف الجهد فى السيطرة على انفعاله . . .

وهمس حامد : قسمة ونصيب !

ولكن عصام كان ممن يلتذون بالقسوة ويجدون فى ممارستها متنفساً لشفائهم المكنون ، فعاد يقول وهو يقترب من ضيفه :

— إنى لأتصورها الآن . فى بيت ذلك الخاوق ، فى ظله ! . . إنها لمهزلة ! . .

وأشعل الضيف سيجارة من علبة صاحبه الملقاة على المكتب ، ثم مشى مطرقاً إلى النافذة فأطل منها على شارع ابن خلدون . . وتأمل عصام ظهر رفيق صباه وزميله فى العمل الصحفى ، ثم سدد إليه ذلك السؤال الذى طالما شغل فكره :

— أكنت تحبها يا حامد ؟

وخيل إلى عصام ، فى لحظة الصمت التى أعقبت سؤاله ، أن بعض الظهور تستطيع التعبير عن مشاعر أصحابها كما يعبر الوجه ذاته ، فلقد قرأ فى ظهر صديقه الإجابة عن سؤاله قبل أن يبلغ سمعه صوته الخافت الأبيض :

— أجل . أحببتها ، وأحبها .

ومرت لحظة صمت قصيرة أخرى قبل أن يسأل عصام ضيفه من جديد :

— إذن تدرك حماقتك إذ تركتها تسقط فى ذراعىْ رجل آخر ؟

فلما التفت حامد ، كانت فى عينيه دموع لا تنطلق ، وألم عميق مر مرارة الندم الثقيل الفادح :

— عصام . . بربك دعنا من حديث هدى !

٢

هذه إحدى أخواته تذهب ! وقد ولى الزمان الذى كانت غرفته تشهد فيه اجتماع شقيقاته الثلاث ، كأنهن ثلاث أرواح رشيقة خفيفة ، فيجلسن حول مكتبه ، أو يتربعن فى قمصان النوم على فراشه ، ويهدمن العالم و يبنينه من جديد . . وكان يحاولأمينة ، كبراهن ، أن تمشط شعرها الناعم الأسود الطويل أمام مرآته الضخمة . ولم تكن أمينة ثرثارة بطبعها لكن شخصيتها اللامعة كانت تفرض وجودها ، ولو لم تفتح فمها بكلمة واحدة ، على كل مكان توجد فيه . . إنها الذكاء الرصين ، والقوام الرشيق ، والسر المغلق . . ولكن هدى ، على النقيض من أختها ، لم تكن تفهم من الحياة غير الحركة والضجة والكلام . وكانت تصغر أختها بخمس سنين ، فهى فى الحادية والعشرين ، شقراء ملفوفة ناعسة العين . إنها الحسن المرح ، والقلب الطيب ، والنفس القانعة . . أما صغراهن ، نادية ، فهى الصبا الغرير يحلم بحياة مفعمة بالعواطف ، والخفة المرحة ، تتحدث عيناها الداجنتان البراقتان بشوقها إلى العالم الواسع الكبير .

وكنّ أنس أيامه ولياليه . . وكنّ فى الأمسيات يحكين له — كل بدورها وعلى طريقتها — ماوقع لهن فى يومهن : شارع فؤاد و« فتريناته » البديعة ، وفيلم روبرت تايلور الجديد فى سينما مترو ، و« بصبصة » الشبان لهن فى عرض الطريق . . كنّ ظريفات ، مسليات ، غامضات وكان هو صديقهن ، وحاميهن ، من أنفسهن ومن الناس ، فى ظل من حنانه وصراحته وتحرره الفكرى . . وكانت هدى ونادية تتبادلان ، فى بعض الأحيان ، أثوابهما . . فكان يسره أن يراهما تطلعان عليه وقد اتخذت كل منهما سمت الأخرى وزيها . . وإنه ليذكر ولع هدى منذ طفولتها بالأصباغ وأحمر الشفاه ، وكيف كانت تقتحم عليه صومعته ، فى شىء من الزهو والنشوة والاستحياء ، لتسأله الرأى فيما اتخذت من زينة . . وعصرت قلبه يد ثلجية قاسية وقد ارتسمت لخاطره صورة

مما يصنع الخيال الجامح . صورة أخته هدى وهى تدخل فى تلك الزينة وذلك الاستحياء فراش عرسها فى الليلة الماضية ، مجلوة منمقة بأيدى الماشطات لكى تفتن الذكر البهيم الذى اشتراها لتكون حصة كهولته من متعة الحياة .

لقد حطم هذا الزواج المبتسر شطراً من حلم حياته الكبير . كان دائماً يحلم بزيجات مثالية لشقيقاته العزيزات . كان يريد لكل منهن زوجاً جديراً بها . وبرأيه هو فيها . زوجاً جليلا ومدهشاً على نحو لم يكن خيال عصام يحسن على كل حال وضع حدوده ورسم ميزاته . وهذا الزوج المنشود ، زوج الأحلام المثالية ، الرائع الغامض ، يتلاشى اليوم حتى يتقمص شخصية حجازى أفندى الجاهل ، التافه ، المترهل ، المتبلد ! أية هوة بين الرباط المقدس الرفيع الذى كان يتمناه لأخته وهذه الصفقة الحقيرة المخزية التى عقدتها أمه . إنها سوق للرقيق ، تباع فيها المصالح والأجساد ! . . ثم تأتى العشرة والعادة ، ومطالب الحياة والمجتمع والوسادة الواحدة ، فتوطد فى بطء مروع أركان هذه الشركة الوهمية . . وتصبح هدى وصاحبها زوجين كسائر الأزواج ، زوجين « محترمين » ، وربما خيل إليهما ، فى بعض الليالى ، وكما يخيل للناس ، أنهما ، حقًّا ، سعيدان ! . .

كذلك جعل الأستاذ عصام الصحفى الناشىء يحدث صديقاً آخر من أصدقاء الدراسة القدماء . وكان محمود أميناً لخزانة إحدى مدارس القاهرة الابتدائية ، ووغداً من الطراز الأول . كانت حياته تدور حول محور واحد ، هو المرأة . وما من مرة وقع عليه فيها بصر عصام إلا ذكر أنه كان أول من قاده إلى عالم المرأة . وكانا يومئذ غلامين يجتازان مرحلة المراهقة الباطشة . ولقد اجتاز عصام تلك المرحلة إلى آفاق المثل العليا والأفكار السامية بينما لبث صاحبه غارقاً إلى أذنيه فى وحل الشهوات . . . وإنه لحيوان . . إن الرجل السعيد هو رجل أوتى القدرة على السيطرة على غرائزه . إن هذا هو سر السعادة . وليست مشكلة الإنسان الكبرى

obeikandl.com

أن يختار بين إشباع كيانه الحسى أو إشباع كيانه الفكرى . ولكن أن يوازن بين هذين المنزعين المتعارضين . . وما من مرة نظر فيها عصام إلى صاحبه إلا استشعر الرضا عن نفسه وزاده النظر فى أحوال صاحبه اعتزازاً بدنياه الداخلية الرحبة التى تصب فيها أنهار المطالعة والتأمل والدرس ، و إيماناً بما فى حياته على هامش العواطف والرغبات من سمو تنفث فيه العزلة ، مصادر كل قوة ، ومهد كل عمل عظيم وتاريخ مجيد . .

٣

لم تعد أمينة التى عرفها أهلها . .

ولم يكن قد مر على زواج هدى أكثر من شهر عندما بدأت أمينة تحس كلما دار حديث الأسرة حول هدى أنهم يشيرون إليها ، هى ، من طرف خفى . . .

فإذا أسهبت أمها فى تصوير سعادة ابنتها الوسطى فهى تلومها ، هى ، لأنها لم تدخل بعد « بيت العدل » .

وإذا كان أخوها يهاجم الزواج فى أحاديثه ومقالاته ، فهو إنما يسعى إلى مجاملتها ، هى ، و« جبر خاطرها » . . ولم تكن تعلم أن أمها بدأت فى أحاديثها مع عصام تلمح إلى توفيق أفندى ابن خالة الست دولت ، وهو موظف فى أرشيف وزارة المواصلات يناهز الثامنة والثلاثين من عمره ، وفى قدرة عينه اليمنى على الإبصار شك كبير يكاد يبلغ مرتبة اليقين ، ولكنها لم تكد تردد ذلك الاسم مرتين حتى كان عصام قد أمسك بيدها وقادها إلى غرفته ورد الباب ثم قال لها : أماه ! لقد سبق لهذا الحيوان أن تقدم إلينا طالباً يد أمينة ، فرفضته حرسها الله ، لأنى كنت قد فتحت عينها على حقيقته ، فبالله دعى أختىّ المسكينتين لقدرهما وكفى ما أصاب أختهما ! . .

كانت شقية . أشقى فتاة فى شارع ابن خلدون — فى العالم . . لماذا وقف أخوها حائلا دون زواجها ؟ وما سر هذه البغضاء التى يكنها لتوفيق أفندى . بل للرجال جميعاً ؟ ومتى يكف عن التدخل فى شئونها وتنظيم حياتها ؟ إن حياتها ملك لها وحدها . ومن حقها أن تصنع بيديها مستقبلها وهناءها . . ألم تختر هدى رجلها ؟ أليست اليوم أسعد النساء ؟ . لقد كانت هدى الصغيرة أرشد منها ، فلم تصغ إلى كلمات ذلك الأخ المدمر المغرور ؛ ولم تلق بالا إلى ذلك السم الذى ينفثه فى حياتهن بمحاضراته المريضة عن المثل العليا ، والحياة الرفيعة ، والزواج القائم على التكافؤ ، وعلى الحب . . الحب ؟ ! . . ومن يستطيع أن يزعم أن كل بيت سعيد فى مصر قام على الحب ؟ . . إنها لاتحب توفيق أفندى . . هذا حق . . ولكنها نادمة أشد ماتكون المرأة ندماً لأنها أطاعت أخاها الأحمق ورفضت يد هذا الرجل . . هدى تزوجت قبلها . . هدى زوجة ، وهى عانس ! سيفوتها الركب ، وتولى الأيام ، ويزحف الشعر الأبيض كديدان الموت فى ليل شعرها الطويل . . ولسوف تقضى حياتها فى برد الوحدة ، لا لشىء إلا أن الرجل الذى طلب يدها يكبرها باثنتى عشرة سنة ، ولم يدخل جامعة ، أو يقرأ كعصام كتب الفلسفة والأدب ! . . إن عينه الواحدة تكفى ! . . ولكم يحبها ولكم جرحه رفضها ! . . لقد قرأت فى عينيه الألم الصامت فى ليلة زفاف أختها ، وأدركت أنه لم ينسها ، ولم يفقد الأمل فى أن تكون يوماً له . . إنه ينتظر إشارة من يدها لكى يمنحها السعادة التى سبقتها أختها إلى رحابها . .

ودفنت أمينة وجهها الباكى فى الوسادة ، وحنت عليها فى سكون الليل غرفتها الحزينة الخالية من صوت الرجل ورائحته وسلطانه

لم لا يكون لها ، كأختها ، فردوسها الصغير ؟

إنها ليست أقل من هدى جمالا وذكاء ، فأين نصيبها من الحياة ؟

إنها تريد نصيبها وقسمتها . . تريد أن تخضع ، وتلين وتستجدى . . تريد سيدها . . .

واستوت جالسة على طرف فراشها : فطالعتها فى مرآة خزانة ثيابها صورة مائعة فى نور مصباح الليل الأزرق : صورة فتاة طويلة مسترخية عند سريرها . شعرها ثائر على جبينها وكتفيها ، وقميصها مرفوع فوق ركبتيها ، اللتين تضيئان فى النور القليل ، وعيناها ذابلتان وراء أهدابها . . . .

توفيق ! من لها بتوفيق الآن . . وأين قوته وحنانه ، وأين صوته ورائحته! فلما استدارت لترقد ، ووقع بصرها على سريرها الخالى ، أجهشت بالبكاء لأنها وجدته عريضاً ، واسعاً ، مهجوراً . .

ومرت أيام ثلاثة ، ثم همت أمينة ذات صباح أن تدخل المصعد الذى يرتفع بها كل يوم إلى عيادة طبيب الأسنان فى شارع سليمان باشا ، وإذا بها تجد نفسها أمام توفيق ، وكان خارجاً من المصعد وقد وضع يده فوق قطعة كبيرة من القطن تغطى عينه اليمنى . .

وتبادلت كفاهما تحية فاترة حائرة ، ثم سألها وهو يخطو إلى جانبها فى شىء من الارتباك والخجل نحو باب العمارة عن صحة أمها ، وعن أسنانها فسألته عن عينه : فضحك وهو يقول لها إنه يخشى أن يكون طبيب أسنانها أقدر على خدمة زبائنه من طبيب العيون الذى يعبث منذ شهرين بعينه وأعصابه !

قالت ومدت له يدها : أعود إلى المصعد ، فإن طبيبى ينتظرنى . لقد كانت فرصة طيبة ، وعسى أن نراك قريباً . .

قال ونظر فى عينيها بعينه المكشوفة : لست أدرى ، فلقد طلبت إلى رئيسى أن ينقلنى إلى دمنهور ، ولعل الرحيل قريب .

وخيل إلى أمينة أن مدخل العمارة قد انقلب من حولها أرجوحة من أراجيح الملاهى ، وارتعدت أهدابها فوق بصرها الزائغ وسمعت نفسها تقول فى صوت غريب ، وكأنها فى حلم لا سيطرة عليه لإرادتها .

— ولم الرحيل ؟ أهو بسببى ؟

وكان سكوته ونظرته أبلغ من كل بيان . .

وعاد صوتها الحالم المتمرد على إرادتها يقول :

— إنك لن تفعل هذا !

فسألها : ولم لا يا أمينة ؟

قال صوتها : لأنى لا أريد أن تبتعد عنى . . ولا تذكرنى بما كان منى فإنى أريد أن تنساه وأنساه . .

فانبثق من عين توفيق السليمة فرح مجنون ، ونسى الدنيا والناس فرفع يدها برغمها إلى شفتيه وقبل أناملها الطويلة العصبية ومعصمها النحيل ، وأطاحت القبلة المحمومة بقطعة القطن من فوق عينه اليمنى ، فسقطت إلى الأرض ، وطالعت أمينة من وراء أهداب العين الذابلة المبتلة نظرة مسيحة بيضاء لا حياة فيها . .

٤

عندما دخلت أمه غرفته وجدته قائماً فى انتظارها وسيجارته تتأرجح بين شفتيه :

— ردى الباب ، فإن لى معك حديثاً . .

فعلت وأقبلت فجلست أمامه ممتقعة الوجه مرتعدة اليدين فسألها :

— أتعرفين أن أمينة تخرج مع توفيق أفندى قريبك ؟

فأطرقت الست دولت برأسها ، وهمست :

— إنها قالت لى أمس إنه لقيها منذ يومين فى مصعد الدكتور ثم صحبها فى الترام إلى باب بيتنا

— عظيم ! . . وقد لقيته أمس أيضاً ، وشهدهما بعض أصدقائى معاً فى جزيرة الشاى . . وماذا قلت لها حضرتك ؟

— قلت . . قلت . . وماذا أقول لها يا بنى ؟

obeikandi.com

— إمنحيها بركاتك ! أليست تصيد لنفسها برضاك عريساً ؟
— يا بنى لا ترفع صوتك ، فقد تسمعك « البنية » .
— إنها تحلم به ، فلن تسمع ! . . هى لا تسمع ، وأنت لا ترين شيئاً ! . . إن رسالتك الوحيدة فى رأيك هى أن تدفعى ببناتك إلى أحضان الرجال . وأى رجال ! . . ومنذ وفاة أبى وأنت تنسجين خيوط شقائهن ، وعلى شفتيك ابتسامة التاجرة الماهرة . .
— عصام !
— ألم تفهمى أن زواج هدى قبلها هو الذى يدفعها إلى الجرى وراء رجل سبق لها أن رفضته ؟ إنها فى نظرها مسألة كرامة . .
وماذا أفعل يابنى وتلك رغبتها ؟ ألا ترى أنها خسرت فى الأسابيع الأخيرة نصف وزنها ؟
— أنت أمها . . تحدثى إليها . قولى لها إن الفرصة لم تفتها وإن من الحماقة أن تضيع حياتها كلها فى لحظة طيش تمليها عليها كبرياؤها . .
— إنها لن تستمع إلى كلامى !
— لقد استمعت إلى كلامى أنا مرة !
— فتحدث إليها إذن هذه المرة أيضاً .
— أمينة تعتقد أنى أكره توفيق ، وتقف منى الآن موقف التوجس والحذر ، وهى تحبك ، وتعلم أنك تودين لها الخير . .
فأطرقت الست دولت برأسها الذى شاع فيه الشيب وعقدت يديها البضتين السمينتين فوق صدرها ، وهمست فى صوت تستبد به الحيرة .
— ماذا أقول لها . . ؟
تكلم عصام ساعة طويلة وأمه تصغى إليه وتهز رأسها ، ثم أمرها أن تذهب فتقول لابنتها ماقال . وجلس وراء مكتبه وأرهف أذنه يسترق السمع إلى الحديث الذى يدور فى حجرة أمينة بينها وبين أمها . وكانت تبلغه من الحوار البعيد أصداء غامضة لا يتبين منها كلمة . .

ثم سمع بابـ حجرة أخته وهو يفتح فى حركة عنيفة وتبين خطوات أمينة فى الصالة ، ولم يلبث بابه أن فتح فارتطم بالجدار ، وعلى عتبته وقفت السمراء الثائرة ، ملتهبة النظرة ، مرفوعة الهامة :

ــ اسمع يا أخى ! إنى عرفت من كلام أمى قسوتك التى فطرت عليها . . لقد لقنتها الحديث كلمة بكلمة ، وكأنى كنت أسمعك أنت وهى تتكلم . . وقد جئت لأقول لك إنى لن أسمح لك بعد اليوم أن تتدخل فى خاصة شأنى . . لى من سنى وذكائى ما يبيح لى توجيه حياتى ويؤهلنى لذلك . . وأحب أن تعلم أن توفيق قد طلب يدى مرة أخرى ، وأنى قبلت . وسأتزوجه برغمك . . وكل كلام تقوله بعد هذا لن يبعدنى عنه ، بل عنك أنت . .

وكان عصام يعلم أن أخته هذه تهزها الإهانة الجارحة ولا تأخذ بعنانها اليد العنيفة الباطشة ، فجمع لها نفسه فى ابتسامة مرة ساخرة وصوت هادئ خبيث :

ــ إنى لأعجب لم لم تنهشك هذه الحمى إلا بعد زواج هدى ؟!

قالت وهى تخطو فى الغرفة نحوه :

ــ ذلك شأنى . وليس فيه على كل حال ما يمنحك الحق فى تحطيم سعادتى بأنانيتك ، وقد أنذرتك ولم يعد لى إلا أن أغادر غرفتك .

ــ لم يعد لك إلا أن تستمعى إلى !

ولم يكد يلفظ آخر كلماته حتى كان قد خطا خطوتين واسعتين قطع بهما عليها الطريق إلى الباب . .

ــ اسمعى يا أخت . . أنت فى هذه اللحظة تكرهيننى . وليس لك عندى إلا كل خير ، ولست أعترض على زواجك إلا لأن توفيق هذا غير جدير بك . .

ــ إن تقدير ذلك من حقى وحدى .

ــ ما أجملك غاضبة !

ـ دعنى أخرج ياعصام .

ـ أتخافين أن أزيح الغشاوة عن عينيك فأحطم أوهامك ؟

ـ أخاف أن تقول قولا تندم ذات يوم عليه !

ـ إنها صورة أحب أن أرسمهما لك فى كلمات قليلة : شابة عريقة وذكية ، جميلة ومثقفة ، موعودة بأسمى المتع الرفيعة .. وكهل جاهل غبى ، كأنه فأر الأرشيف . . . فكرى ياميمى فى حياة بأسرها تقضينها مع هذا الفأر . . الإفطار ، والغداء ، والعشاء . . والنوم ، واليقظة . . النظرة من عينيه . . المداعبة من يده . . يكفى أن تتخيلى منظره فى غرفة النوم بملابسه الداخلية !

وصرخت أمينة وقد تفجر الدمع من عينيها وارتعدت شفتاها الرفيعتان ، واندفعت نحو الباب ؛ لكن أخاها قبض على معصمها ، وزأر فى وجهها :

ـ والقبلة من شفتيه ، والضمة . . .

وكانت قد أفلحت فى إنقاذ يدها اليمنى من أسر قبضته فرفعتها ، وأهوت بها على وجهه .

ولم يتحرك عصام ، ولكنه نظر فى الوجه الذى زاده البغض حسناً على حسنه ، وبدا له كما لو أن شعاعاً نورانيـًا قد رف على أرق شفتين فى الوجود . . .

٥

مرة أخرى حم القضاء ودخلت أخته الثانية فى عصمة رجل لم يكن فيما يرى ، أهلا لها . أصبح بيت شارع ابن خلدون حزيناً موحشاً ، قد خلا من ضجة المرح وعطر الأنوثة . وطار عنه روحان خفيفان من أرواحه الثلاثة الغامضة الرشيقة ، وأصبح عصام عصفوراً فريداً من عصافير الليل ، يرد على نفسه متى كان المساء باب صومعته ويسقط بجناحيه الكسيرين تحت نور مصباحه ، أميناً على حزنه ، حفيـًا بكتبه ، مطرقاً فوق أوراقه . . كان قد خسر معركتين ، معركة هدى ومعركة أمينة

وكانت الهزيمة الثانية فادحة . زفت أخته أمينة إلى توفيق أفندى كما زفت هدى منذ شهور إلى حجازى أفندى ، فى ليلة مبتذلة كثيرة الضوضاء . وكان ذلك عذاباً مزق سكينة نفسه . . واستقرت كلمات المأذون المزركشة المتراقصة فى نفسه كالطعنات المسمومة . ومع ذلك أوتى الشجاعة بعد إتمام العقد على أن يتقدم إلى أخته وزوجها بكلمات التهنئة التقليدية . وكانت أمه تحوم حوله ببصرها وفى عينها الحائرة دعاء إلى السماء أن تمر الليلة على خير . وبالقرب من (الكوشة) جلست هدى وصاحبها ، وفى بطنها انتفاخ تقذى له العين . . إنها تنتظر حادثاً سعيداً . وكان أخوها يتأملها فتأخذه من مظهرها الجديد طمأنينتها الحيوانية التى تغرى بصفعها ، وغبطة الأنثى وقد استكن فى أحشائها الحمل ، واسترخاؤها السعيد لتلك البذرة الجديدة التى تباشر نموها الغامض فى أعماق كيانها الأنثوى . . وكان حامد أيضاً حاضراً . . وتأمله عصام وساءلته نفسه : أهو باق على حب هدى ؟ ألا ينفره اليوم منها منظر حملها ؟ ولم لا يقصد إليها فيحييها ؟ . . ولكن بصر هدى يقع على حامد فتستأذن زوجها وتقبل على الشاب الأسمر الوديع فتصافحه فى بشاشة ومودة وهى تقول قولا سمعه أخوها « العقبى لك ولعصام » ! فال الله ولا فالك ! أيغدو عصام بدوره ضحية لهذا الخداع الفاشل ، مثله فى ذلك مثل سائر الناس ؟ إنه بينهم غريب . . حتى شقيقتاه أصبحت كل منهما « حرم » رجل ! . .

أى قبح زرى فى هذا الحشد السخيف من النساء والرجال والأطفال! ويا لفظاعة هذه الرائحة المتصاعدة من هذا القطيع ، رائحة العرق ، عرق الأبدان ، وعرق الأفكار . .

كانت ليلة فظيعة ، ثم طلع النهار فسكنت الضجة الفارغة وماتت مع مشرق الشمس . .

ولم يكن عصام قد لمح صديقه محمود وهو ينسل من صخب الحفل

إلى حجرته — حجرة عصام — ويسأل الخادم السمراء اللعوب « مبروكة » أن تحمل إليه فنجاناً من القهوة وهو يغمز لها بعينه . .

محمود لا ينسى المرأة أبداً ، فهو إلى حيث يذهب ، يحمل على كتفه صليب شهوته . . فلما أحضرت إليه البنت القهوة لم ينس أن يداعبها بصنعة ودية رنت على ذراعها الزجراجة ، ولم يعبس لها وجهها البشوش المكتنز . . وخرجت مبروكة فجعل محمود يتأمل هذه الحجرة التى تفوح منها رائحة الورق ، والتى لم يكن يحبها . . إنه يحب الحجرات التى تفوح منها رائحة المرأة ، ويسخر فى أعماق كائنه الحيوانى النهم من هذا الصديق النحيل العليل ، دودة الكتب ذات المنظار ، الفخور بعلمه وبجهله على حد سواء ، والذى قرأ كل شيء ولم يرشيئاً . . إن صديقه الفيلسوف يحصى الأفكار ويسجلها ، بينما يحصى هو مصروفات التلاميذ ، ومفاتن النساء ، ويسجلها . . وأفكار عصام لا نساء فيها ، أما هو فإن للمرأة فى حياته المكان الأسمى . . وذكر ، وهو يترشف قهوة مبروكة ، رفيقته التى تعايشه — نصف خادم ، ونصف عشيقة — وابتسم ، وتمطت عضلاته القوية وهو يجتر ذكريات الليل الذى ذاقه فى أحضانها . . وكذلك وجدته نادية — صغرى شقيقات صديقه — عندما دخلت حجرة أخيها لتعيد النظر فى زينتها . .

وكانت نادية تخب فى ثوب للسهرة من التافتاه الزرقاء فوقفت مرتبكة أمام هذا الصديق من أصدقاء أخيها الذى طالما سمعت عن معاشقه . . وجعل محمود يتحدث إليها فى خفة لبقة حديث الرجل الناضج إلى الطفلة الغريرة ، ويتأمل فى سرور لا يحاول إخفاءه ، هذا الشيء الطاهر الساذج الغريب الذى لم يعرف فى حياته مثله . . هذا الطهر كان يفتن حيوانا من طرازه . . وهى كانت تحس أمام رجولته الصريحة الدافقة رغبة طبيعية فى أن تخفض له جناح الطاعة . . وانبثقت فى ذهن محمود مقارنة عجيبة بين ليلتيه : فى الليلة الماضية كان يضم امرأة هلوكاً خبيرة بالهوى

وكان يخنقها بتمبلاته . وكانت تربكه بحبها . والإيلة يجد نفسه مع هذه الصبية الصغيرة « الخام » التى يدرك بغريزته أنها مولعة به مفتونة بسيرته ، ولعلها تفكر فيه قبل أن تنام ، وترتجف عندما يتحدث أخوها عنه ، ولعلها تخفى فى ركن خفى من خزانة ثيابها صورة قديمة له مع أخيها من أيام المدرسة الثانوية . . !

ومن يدرى لعل لها « دفتر يوميات » تسجل فيه — كما تفعل بطلات الأفلام والقصص — خواطرها وآمالها . .

وقال لها فجأة :

— لابد أنك سجلت خواطرك عن زفاف أختيك فى دفتر يومياتك ؟ . .

فانتفضت الدمية ذات الثوب الأزرق وحملقت فى وجهه عيناها البرقتان العسليتان :

— من قال لك إن لى دفتر يوميات ؟

وكانت رمية من غير رام ، ولكنه لم يتراجع :

— عصام قال لى !

— وكيف عرف عصام وأنا حريصة على إخفائه عنه ؟

— يظهر أنه عثر عليه ذات يوم فى حجرتك . .

— وقرأه ؟

— من الغلاف إلى الغلاف !

تضرجت وجنتاها وارتعدت ظلال أهدابها فرق لها قلبه وسألها فى رقة لم تخل من تكلف : أفى يومياتك يانادية ما يسوءك أن يطلع عليه أخوك ؟

— ليس هذا من شأنك !

ورأى الدموع تلتمع فى عينيها ، فأدرك أن كلمة عابثة أخرى منه تكفى لوقوع الأزمة العصبية المزعجة . وبادر إلى الجد يستر به ما صنع عبثه ، فاعترف لها بأن أحداً لم يحدثه عن يومياتها ؛ وأقسم أن الأمر لا يعدو فكرة طرأت على ذهنه فتلقفها لسانه . .

operkandil.com

قالت وهى تبتسم من وراء دموعها :
– أخفتنى ! . . .
قال : إن الشىء الوحيد الذى أستطيع أن أقطع به هو أنك عندما تلحقين بأختيك فى عالم الزواج لن يكون لديك وقت لكتابة يومياتك . .
وابتسم وهو يستمع إلى إجابتها الصبيانية التى كان يتوقعها :
– محال ! إنى لن أتزوج أبداً !
– أيعنى هذا أن عصام سيربح الجولة الأخيرة ؟
فارتسمت فى عينيها حيرة غريبة :
– عصام . . عصام . . إنى لا أفهم عصام ! !

٦

أيفهم عصام نفسه ؟

كان يبذل جهداً مضنياً فى البقاء طافياً على سطح ذاته ، لكى يظل محتفظاً بطمأنينته وسكينة نفسه . ولكن قوة عاتية كانت تجذبه بكل عنفوانها نحو عالمه الباطن الرحب الذى تمور عتمته الغامضة وراء أسوار نفسه . وكانت هذه القوة تلقى عليه ، وكأن لها صوتاً فى دمه ، سؤالا ضخماً رهيباً : ما سر رغبته فى أن يصنع على هواه سعادة شقيقاته ؟ وما الذى يدفعه إلى محاولة السيطرة على مصائر من حوله ؟ . .أيرجع ذلك إلى ما تحس به نفسه المرهفة من حيوانية الحب التى يسترها البشر وراء غلالة من الشعر ؟ إنه يكاد أن يكون جاهلا بالحب ؛ وليس فى شبابه غير تلك المغامرة القذرة الوحيدة التى قاده إليها منذ سنوات صديقه محمود ، والتى خرج منها ليميل إلى أول جدار يلقاه فيقىء عنده اشمئزازه وتقززه . . لقد وقفت حساسيته النادرة حائلا بينه وبين متاع الحواس ، وفى نور الفكر كان يحتقر جنون الغريزة . . ما السر إذن ؟ . . أهو ذلك الولع الغريب المركب فى طبيعته بلون آخر من ألوان الامتلاك : امتلاك الأرواح ؟

تلك حقاً إذه حياته الكبرى : أن يكون رائد أرواح ، وصانع نفوس وخالق أفكار .. وبينما ينكب أصدقاؤه الشبان على ترف المخادع الرخيص كان هو يحلق فى آفاق الروح الطليقة . وكان ينظر فى الرجال من أقرانه ويقول إنه يكفى — كى يعرف المرء قيمة رجل من الرجال — أن ندفع به فى مخدع .. إنه يخلع مبادئه ومثله قبل أن يخلع ثيابه .. ويكشف عن سوءات روحه قبل أن يكشف سوءته .. ولقد كان أكبر همه أن يجنب عزيزاته الغريرات زواجاً يقوم على اتفاق الأبدان والمصالح وحدها . كان يحبهن وينشد عند كل واحدة منهن حباً مقصوراً عليه موقوفاً على رسالته . ويتمنى لكل منهن رجلا من طرازه .. من طرازه هو نفسه .. أما أن تميل إحداهن إلى رجل من سواد الرجال بالنظرة أو الكلمة ، فتلك هى الخيانة التى ما بعدها خيانة ، والجرح الذى يغور فى صميم روحه إلى أعماق الروح ..

وهو يذكر من صور طفولته أنه كان يمقت كل صبى يقترب من شقيقاته ويفلح فى إضحاكهن أو الاستئثار باهتمامهن .. ولقد كبرت الصبايا ، وتمردت اثنتان منهن على قانونه : فنالتا حياة باهتة تائهة فى غمار الملايين ، ولم يبق إلا نادية هى أمله الباقى .. المؤمنة الوحيدة فى معبده .

ونادية لغز . عيناها العسليتان سر عليه حجاب . لقد واعدت محمود فى ليلة زفاف أمينة وهى تلقاه من يوم إلى يوم ، وتصحبه إلى السينما ، وتمنحه قبلاتها وتحلم به كل ليلة وهى تخطر فى الظلام فى حجرتها ، وكلما مرت أمام المرآة ألقت على خيالها نظرة فاحصة ، نظرة الحمى والخيلاء والحنان . طليعة تلك العاطفة المعقدة المقنّعة التى يستر البشر حقيقتها وراء غلائل الشعر ..

وعصام يجهل هذا .

يجهل أن المعركة الثالثة والأخيرة على الأبواب .

موقفه القديم من أختيه هدى وأمينة لم يكن عن رغبة أصيلة فى الدفاع عن هنائهما . . لقد كان يدافع عن سعادته الذاتية وكان فى حاجة إلى وجود شقيقاته . . وبغيرهن لم يكن يرى الوجود وجوداً . . والآن لم تبق له غير نادية . إنها آخر رباط يصله بطفولته الحبيبة ، يوم كانت تحف به الأثواب النسوية وترق له الأصوات الرخيمة وتحنو عليه الأيدى الرشيقة . . ولو ضاعت هى أيضاً لما بقى له من دنياه شىء ، بل تلقفته الوحشة ويفقد ذلك الإحساس العميق الأصيل الذى يقوم عليه كيانه النفسى : إحساسه بأن هناك قلباً — واحداً على الأقل — تحتل صورته فيه المكان الأعلى ، ويعلو سلطانه فيه على كل سلطان . .

هى تلميذته . أليست تحترم آراءه ، وتردد كلماته مفتونة بها ؟ إنه لا يبغى أكثر من هذا .

وعندما تدخل صومعته ويراها وهى تلمس ملابسه وكتبه وأوراقه ، فإن مسرة لطيفة نقية تشيع فى نفسه وتنشر فى عتمتها أقباساً من النور ، كأنما تخلع يد الأخت الصغيرة على أشيائه حناناً كريماً ، تلك اليد البيضاء الرقيقة التى لم تمسها دناءات البشر . .

٧

وحدث ذات يوم أن تأخرت نادية فى عودتها من المعهد العالى لمعلمات الفنون عن موعدها المألوف ، فلما تأملها أخوها خيل إليه أنه يقرأ فى عينيها ويلمح فى مظهرها إشعاع غبطة داخلية غامضة المصدر .

من أى نبع خفى ينهل وجود هذه الطفلة الحسناء ؟

وما الذى يدور فى هذا العالم المغلق من اللحم والفكر ؟

ألعلها — هى أيضاً — تخدعه ؟ . .

أتراها تلقى رجلا ؟ . .

وقال لها وقد جلسا إلى العشاء وحدهما (فقد كانت أمهما الست

دولت معتكفة لمرضها) إنه لثقته بها يدع لها حرية التصرف فى وقتها ولقاء صديقاتها والتسرية عن نفسها ؛ فهو يعرف أنها فتاة عاقلة ؛ ولن تكتم عنه من أمورها شيئاً ؛ فهو صديقها ؛ ولسوف يركن إلى العزلة التامة يوم تغادره بدورها لتتبع الرجل الذى يختاره قلبها .

وتضرجت وجنتا نادية وقد ذكرت محمود ، ثم سألت أخاها دون أن ترفع عينيها عن طبقها : ماذا تعنى ياعصام ؟

فارتسمت فى وجهه ابتسامة تقطر مرارة ، ولكن صوته كان هادئاً ، دافئاً بالمودة والاستسلام :

— أعنى أنى رجل كتبت عليه الوحدة . . .

وتريثت نادية قليلا ، ثم رفعت إليه عينين براقتين غامضتين وقالت له فى مثل مودته :

— إنى لا أفكر فى الزواج !

— إلى متى ؟

— أحلم بوظيفة مدرسة فى روضة أطفال .

— وإذا تزوجت ؟

— لو أنى تزوجت فإنك ستكون لى دائماً نعم الصديق ، وإن كنت لا أفهم لماذا تتحدث عن نفسك هكذا . . إنك تستطيع أن تتزوج ، وتفتح بيتاً ، وتصنع لنفسك حياة مستقلة كاملة .

حياة مستقلة وكاملة ؟ . . وارتسم لخاطره وجه فظيع . . وجه « العالمة » التى زفت أختيه تحت رعد من دقات الدفوف ، وأوشك أن يبكى وهو يسترجع صوتها القبيح : « عريس قمر نوره علينا ظاهر ! . . »

ومن وجه مغنية الدف السمجة انتقل فكره بلا مناسبة ظاهرة إلى وجه محمود الواشى بحيوانيته .

وفى الوقت نفسه كانت نادية وهى تداعب حبات العنب المثلجة فى الطبق تفكر فى محمود وتطالعها صورة وجهه الواشى برقته . .

ألف محمود أن ينتظرها على باب المعهد فى موعد انصرافها ، يوم الأحد ويوم الخميس من كل أسبوع . فكان يتلقى ابتساماتها الرقيقة ، ويحمل عنها كراساتها وأدوات « التريكو » فى حقيبتها الخفيفة الرشيقة ، ثم يتخيران شارعاً هادئاً يتسكعان على رصيفه . .

وقد توفق نادية إلى يوم كامل « تزوغ » فيه من المعهد فيقصدان إحدى دور السينما فى حفلة الصباح . . وكان يقول لها وهو يضحك إنه لا يحب فى الأفلام مشاهدة اهواء الطلق ومناظر الصفحات الأولى من الصحف والرسائل الخطية . لأن الإضاءة فى تلك المشاهد تكون من القوة بحيث تحول دون متاع العشاق . . وكانت نادية فى يومى السينما ، تعود إلى البيت فى حالة غريبة من الإعياء والكآبة وما إن يقع بصرها على عصام حتى تجيش نفسها ندماً ، وكم من مرة أوشكت طبيعتها الصريحة أن تدفعها إلى الاعتراف لأخيها بسرها ، لعله خيل إليها أن حبها يشع حولها كالهالة ، وأنه سيفضحها . .

ما الذى كان يفتن صاحب نساء كمحمود فى طفلة غريرة كنادية ؟ إنه لم يعرف قبلها امرأة استطاعت أن تمنحه ذلك الإحساس بالاستسلام الواثق والخضوع الكامل . . كانت ظلا وفتوناً وطاعة .. وكان خضوعها لقبلاته النهمة ومداعبات يديه . . . . لا يفتأ يغريه بمتاع أوفى . . وبدأ فى مقابلاتهما السريعة فى الشوارع ودور السينما يضيق بالقبلات العنيفة العميقة ، ويحلم بغرفة مقفلة تملؤها نادية بطاعتها ونضرتها وأضواء بشرتها الشمعية المشربة بشباب الدم ، ثم يطرد هذا الخاطر الملح إذ يذكر ثقتها به وإيمانها بحبه أو يذكر أخاها الصديق . . ربما خطر له أن يتزوجها ، ثم تقضى على الخاطر صورة الحياة الزوجية الساخرة التى طالما رسمها عصام نفسه فى أحاديثه ومقالاته . .

وجاء من الأيام يوم انتهى فيه هذا الصراع النفسى بصاحبه إلى ترجيح كفة الزواج فقرر أن يطلب يدها ، وأن يكون ذلك فى بيته ،

وبعد أن يطرد عشيقته . .

وصحبته نادية دون اعتراض إلى مسكنه . . وكان قد أعد صيغة معينة لمفاجأتها بطلب يدها . فلما وجد نفسه معها لأول مرة فى غرفة واحدة . وهى طائعة ساذجة ؛ نسى الكلمات المعدة وأسكت ضميره بكلمتين : سأتزوجها فيما بعد ! . .

٨

كان عصام قد تماثل للشفاء من مرضه الطويل عندما زارته أخته أمينة وزوجها توفيق أفندى وطفلتها الصغيرة « نينى » . ومن أمينة عرف أن أمه التى كانت تقيم عندئذ فى سمالوط حيث تقع « أملاك » حجازى أفندى زوج ابنتها هدى ، يسرها — كما يسر ابنتها وطفلهما « عادل » الذى أتم شهره الخامس عشر — أن يقضى عصام ونادية أياماً فى ضيافتهم . . وكان عصام فى تلك الفترة فى حيرة شديدة من أمر نادية وصديقة جديدة لها لم تقع عليها عينه ؛ تدعى « خيرية » أوكذلك قالت له أخته . كانت نادية تدخل عليه غرفة مرضه ، فى تمام زينتها ، فتسأله فى عجلة عن صحته ، وقد تسقيه بيدها جرعة من دواء حان موعد تناوله ، ثم تقول له وهى تحول بصرها عنه متشاغلة بالنظر فى المرآة :

— عصام « خيرية » تنتظرنى أمام سينما ريفولى . . فيلم هائل . . فهل تستطيع أن تعنى بشأنك حتى أعود ؟ . . وربما أحضرت « خيرية » معى . .

وكان يشعر أنها تكذب ؛ ولكنه يبتسم قائلا لها :

— نعم جيئينى بها . . كم أود أن أرى هذه الصديقة الجديدة التى تكاد تشغل وقتك كله . .

وتخرج نادية منطلقة إلى محمود الذى ينتظرها فى مسكنه الصغير بشارع النزهة وتاركة أخاها يتقلب فى فراشه . . كيف يسعه أن يضع حداً

لاندفاعة نادية الصغيرة الساذجة ؟ إن العنف لا يغنى . . وفتاة فى سنها لا تخرج للقاء واحدة من بنات جنسها منمقة معطرة كما تفعل ، ومشتعلة مضيئة كما يراها . . إنه الحب ! . . ما أجمل هذا النور الذى يضفيه الحب على البنات الصغيرات ! . . الحب هو القوت الغامض الذى يمد الوجه النسوى بهذا البهاء . . ولكن أى لون من الحب ؟ . . العاطفة البريئة ، نشوة التعارف والتفاهم النفسى ، أم حضيض اللذات الوضيعة ؟ . . ولأول مرة فى حياة عصام النفسية فكر فى أن يتبع أخته يوماً دون أن تشعر ليرى وجه « خيرية » هذه . . من تكون ، أو من يكون ؟ . . لعل فى حجرة نادية دليلا يهتدى به إلى حقيقة تلك الشخصية الغامضة . . رسالة ، أو صورة . .

وفى حجرة نادية تصفح الكراسات المبعثرة على المكتب الصغير . . وعثر على تذكرتين قديمتين لإحدى حفلات الصباح فى سينما ستديو مصر لا بد أن « خيرية » كانت معها . . وامتدت يده إلى أحد الأدراج ، وكان مليئاً بالأوراق والمفكرات و « الأساتيك » وأقلام الرصاص والصور القديمة . . كنز طفلة . . ثم وقعت يده على كراسة ضخمة فى آخر الدرج فأخرجها ، وتأمل غلافها الفستقى ، ثم فتحها ، وقرأ فى صفحتها الأولى ، بخط نادية الدقيق كلمة كبيرة « يومياتى » . . آه إنها تكتب يومياتها ! وجلس على طرف الفراش الصغير الذى يضوع من وسائده المزركشة عطر نادية ، وأشعل سيجارة ، ودخل ذلك العالم الغريب من الشعر المنثور.. إن لها لأسلوبا ! .. ولكن : من يكون « م » هذا الذى يظهر ويختفى بين السطور ؟ أتراه يعرف أن نادية تحرق فى محبته كل ليلة ، قبل أن تنام ، كل هذا البخور ؟ . . أفى الرجال واحد يستحق هذه الصلوات :

« إن قبلته لم تلهب شفتى وحدهما . . لقد أشعلت النار فى شبابى كله ، انطلقت من شفتى مخترقة كيانى ، واستقرت فى روحى ذبذباتها الدافئة

التى ستصحبنى يوم أموت إلى قبرى . . لو لم يكن فى حياتى كلها غير هذه القبلة لكان من حقى مع ذلك أن أقول إنى عرفت ما الهوى ، وما الصبابة وما الفناء فى المعبود . . »

أخته تحب . . أخته شاعرة !

وإذا جرس الباب الخارجى يدوى فى الشقة كلها فينتفض عصام واقفاً ويقذف بالكراسة فى أعماق الدرج وهو يرتجف كالصبى الهلوع ، ثم يهرع إلى الباب وهو لا يدرى أن صوته المرتعد يردد فى همهمة غريبة : « الفناء فى المعبود . . الفناء فى المعبود . . »

وفتح الباب ، فوجد أمامه آخر إنسان كان يتوقع فى تلك اللحظة وذلك المكان أن يراه . .

كانت الطارقة « روحية » التى تعيش فى بيت صديقه محمود خادماً وعشيقة . ولم تكن الأصباغ التى لطخت بها وجهها الأسمر الوسيم تخفى ماوراء نظرتها الكسيرة من حزن عميق وكأن فى عينيها أثر البكاء الطويل ، وظل السهاد . . وهى تريده هو بالذات ، وقد طال ترددها قبل أن تحزم أمرها على الحضور . . إنها شقية ، أشقى امرأة . . لقد هجرها محمود هجراً غير جميل . . طردها طرداً ، كما تطرد الكلاب . . وليس فى حقيبتها غير ريال ، وخاتم ذهبى ، وصورة الحبيب الغادر . . ماذا تصنع ؟ ألا يستطيع الأستاذ أن يعيد إليها عطف صديقه ورضاه وكرمه المأثور ؟ . . جنيهات قليلة ، على الأقل ، تبدأ بها حياة جديدة ؟ . .

وكانت قد اتخذت مجلسها على أحد مقاعد حجرته ، وجعلت تجفف دموعها الغزيرة وهى تصور له فى كلمات متقطعة متعثرة شقاءها وحيرتها ؛ وكان هو يعدها أن يبذل كل ما فى وسعه ، فرفعت إليه عينيها الرطبتين وقد انتثر شعرها المصقول على جبينها وارتسمت على شفتيها الغليظتين المصبوغتين ابتسامة شكر ورجاء . . إنه طيب ، ولطيف : فليت صاحبه مثله ! . . فلما رأى النظرة وسمع الثناء قال لنفسه : « إنها ما جاءت إلا

لترى شبا كها على صيد جديد . . وهى لا تنتظر ولا تطلب غير أن آخذها الآن بين ذراعى : وأحتفظ بها لنفسى . . كلهن هكذا . . دود يعلق بأقفية الرجال . . »

ورأته باقيا على جموده فكانت هى التى دنت منه وأسندت رأسها على كتفه ، ثم ضمته ، ومكنته من شفتيها . . أغمض عصام عينيه وقد جاشت نفسه وشمتاها فى فمه بإحساس من يأكل طعاماً تتقزز له نفسه وملأت رائحتها أنفه . . وأحس بها تدفعه فى رفق خبير نحو الفراش وتسقط فوقه . . . . فشعر كأنما يسقط فى الفضاء من حالق وذكر المرأة الأخرى فى ذلك البيت المريب الذى قاده إليه قديماً محمود صاحب هذه المرأة ؛ وإذا به يطلق صرخة رهيبة ويدفع عنه هذا اللحم الساخن القذر المباح :

— دعينى . . دعينى . .

فاعتدلت المرأة وقد استبد بها الذعر وعقلت لسانها الدهشة :

— ماذا ؟ . . ما بالك ! . .

— اخرجى . . دعينى . . .

— أتطردنى ؟ . . طبعاً ! . . الوفاء لصاحبك ! . . كلكم أوغاد ! . . أنت تريد أن يهجرنى لكى يتزوج أختك ! . . الآن أفهم ! . . ألا تعرف؟! . . ولكنه لن يتزوجها أبداً . . سينال منها ما يشاء ثم يلفظها بدورها ، كما لفظنى .

ومادت الأرض من تحته ودار السقف فوق رأسه ، وامتدت قبضتاه المتشنجتان إلى كتفى المرأة التى صعقته إشارتها إلى أخته ، وجذبها إلى الأرض ، وصرخ فى وجهها :

— إنك تكذبين ! تكذبين !

فى رأسه دوى رهيب « م . . م . . م . . محمود ! »

وقالت المرأة وهى تخلص نفسها وتضحك فى شماتة :

— أحسبت أنك تعجب امرأة ؟ . . إنك هزيل طرى خوار !

وأختك الشريفة العفيفة بنت الطيبين : اذهب فابحث عنها ! . .
واختطفت حقيبة يدها ؛ وانطلقت خارجة وهى تسوى شعرها . .
فلما عادت نادية بعد ساعة ، كان أول ماقال لها أخوها :
ـ غداً نسافر إلى سمالوط لزيارة الأسرة . .

٩

سمالوط . الست دولت وهدى وحجازى أفندى وعصام ونادية حول مهد «عادل» الصغير . . صفقت نادية بكفيها أمام تلك الكرة العجيبة من اللحم الحى الباكى . وجعلت تضاحكها . وتلمسها ، وتناغيها . . ووقف عصام يتأمل هذا الوحش الصغير الأصلع ونادية وهى تقبل قدميه العاريتين . . وتقززت نفسه وقد شم رائحة اللبن والبودرة والبول . . أهذا هو مصير نادية أيضاً ؟ . .

أهذا هو ما تحلم به ، وما تنشده بغريزتها عند محمود ؟
أليس من واجبه هو أن يحطم هذا الحلم البشع ؟ . . نعم يترك نادية فى هذا المنفى مع أمها وأختها ، ويعود فى اليوم التالى إلى القاهرة فيقصد إلى مدرسة محمود ويغلظ له فى القول وينهاه أن يلقى أخته ويتركه على جفوة وقطيعة . .

كانت الثقة والقوة ملء نفسه وهو يجتاز فناء المدرسة نحو حجرة أمين الخزانة . ولكنه لم يكد يدخلها حتى كان محمود قد قفز من وراء مكتبه واندفع إليه فضمه فى مرح إلى صدره وجعل يرقص به أمام المكتب الصغير المثقل بدفاتر الإيصالات والأختام وعلب الدبابيس وهو يقبله ويصرخ فى أذنه :

ـ أهلا بحبيبى . . أهلا بصهرى العزيز . . خلاص ياعصام . . تبت على أيديكم . وسوف أنتقل إلى جوار زوجتى العزيزة وأمحو من حياتى ذلك الماضى العابث كله ، فلا تقل لى إنك لا ترانى لها أهلا . .

لا تقل لى إنلك لن تمنحنى يد نادية . . نادية ياحبيبى ، وإلا خنقتك بيدى هاتين ، هنا أمام الخزانة ، وليكن ما يكون . . وتطالع صحف المساء قراءها بعنوان كبير على خمسة أعمدة : « أمين خزانة مدرسية يقتل صحفياً فى مكتبه » ! لا ياعصام ، خير من هذا أن تختار أهون الشرين ، فتقبلنى على عيبى ، زوجاً لأختك ! . .

كل ثقة بنفسه زالت أمام هذا الحيوان المرح المطمئن السعيد .

الزواج الأخير !

آخر لبنة فى الجدار الضخم العالى القائم بينه وبين شقيقاته !

لم لا يقاوم ؟ وأين الحديث الذى أعده كلمة كلمة ؟ وما هذه الابتسامة الخانعة الصفراء على شفتيه ؟ . .

لقد ضاع كل شىء . . الآن هو وحيد . . وحيد إلى الأبد . . ولسوف يعود بعد قليل إلى ذلك البيت الكبير الخالى ، فيستقبله رفيق حياته السكون العميق . . ثم يقبل ذلك الرفيق الآخر المرهوب ، الليل الأسود ، الطاغية . . وعندما تزحف ظلماته ، سيطوف هو بالبيت كالشبح الذليل فى الأطلال ، ويشعل أنوار البيت كلها ، لكى يوهم نفسه أن البيت مازال آهلا بسكانه . . لا ، لقد ذهبت إلى الأبد تلك الأرواح الرشيقة الخفيفة التى طالما عمرت البيت بضحكاتها وأصواتها ، وخلفته شبحاً فى طلل . .

كانت أسوأ ليلة فى عمره . .

أشعل الأنوار فى كل غرفة ، ثم ضاق بالنور فنشر فى البيت جو الحداد . . .

وغاص فى هوة من الحزن المظلم . ثم أضاء مصباحه وحاول أن يكتب ولكن ذهولا مستغرقاً عجيباً سيطر على قواه ، فاستسلم لخدره ، وترك السيجارة تحترق فى المنفضة ، كأنها بقايا حياة . .

وبغتة ، دوت فى ذهنه الهامد جلجلة فكرة جديدة !

أجل ! . . لسوف يعدن : كلهن ! . . .

لسوف يعدن فيجتمعن عند سريره . نادمات ، تائبات . خائفات مشفقات . . إن فى صيدلية البيت الصغير أنبوبة كاملة من الكينين ؛ وقد قرأ أن أقراصها تكفى للقضاء على حياة الإنسان ، فليأخذ إذن نصف ما فى الأنبوبة من أقراص . وبذلك يفزعهن ، ثم لا يموت ! . . وستعرف نادية أن ذلك كان بسببها ، فتركع عند فراشه باكية مروعة وتقسم له أنها لن تتزوج محمود . . ستصبح فى يده كالعجينة يصوغها كيف يشاء . .

وتولته خفة نزقة . وتصورهن معولات راكعات حول سريره ، وخيل إليه أنه يسمع صوته المتحشرج إذ ينادى الموت ليزيد فى فزعهن ، فنهض إلى الورق وأسرع قلمه وكتب ثلاث برقيات الأولى إلى سمالوط ، والثانية إلى توفيق أفندى فى شبرا ، أما البرقية الأخيرة فإنى لا أزال أحتفظ بها إلى اليوم . . .

١٠

طفل . طفل ممدود فى فراشه ، وفى معدته نصف ما كان فى أنبوبة الكينين من أقراص . وفى نظرته إلى ساعة معصمه — بين كل دقيقة وأخرى — لهفة الانتظار .

لقد أعد المشهد بدقة شيطانية ، وبعث ببرقياته الثلاث فى مواعيد متفرقة ضمن بها أن يجتمع شمل الأسرة كلها حول سريره فى ساعة واحدة . .

ولم يكن ينتظر النافرات البعيدات وحدهن ، ولا ذلك الكاتب الصديق وحده ، وإنما كان ينتظر أيضاً تلك الآلام التى قرأ عنها . .

وبدأ رأسه يثقل على الوسادة ، وكأن فى حلقه حريقاً ، وكأن فى رأسه دوى مصنع كبير . .

وتشنجات عنيفة كان قد قرأ وصفها المروع بدأت تعض فى بطنه ، وغثيت نفسه فى نوبات الفواق ، فأطلق صرخة الرعب فى فضاء البيت الساكن . .

وانتصب واقفاً وهو يترنح ثم يسقط مرة أخرى فوق الفراش وقد سالت على وجهه خيوط لزجة باردة من العرق الغزير وتثلجت أصابعه ، ونادى فى صوت مختنق كأنما تخرج نبراته السقيمة من بطنه :

– نادية ! هدى ! أمينة ! .

لم تأخرن ؟ ومن يضمن له أن القدر الذى أصابه من ذلك العقار لن يكون فيه القضاء عليه ؟ . . وإذا لم يحضر أحد ؟! . . إنسان واحد . . أى آدمى . . وجه بشرى . . يد رحيمة تمتد إليه . .

ولقد أوشك أن يصرخ فرحاً عندما سمع الخطى السريعة والأصوات العالية فى مدخل البيت . .

ورأى أمه وهدى ونادية يقتحمن بابه ، وسمع صرخاتهن ورن اسمه فى أذنه فأدرك أن نادية تناديه وقد انحنت عليه وأحاطته بذراعها وغمرت وجهه بقبلاتها :

– عصام ! ماذا أخذت ؟ ومتى ؟ لم فعلت هذا ياحبيبى . . .

وجعلت تنهداتهن وأسئلتهن تتلاقى وتشتبك فوق رأسه ، فأغمض عينيه وقد سرت فى كيانه مع الآلام الشديدة نشوة الاستمتاع بهذا الرعب كله ، وهذا الحنان الدافق الموفور . . وخيل إليه أن هدى تغسل له وجهه بمنشفة مبتلة ، وأن نادية تحاول أن تقيس نبضه . . وأمه المسكينة كان صوتها ينصب فى أذنه كالموسيقى :

– تكلم ياعصام ! قل شيئاً ياحبيبى ! لقد ذهب حجازى أفندى ليحضر طبيباً . . كيف حالك الآن ياولدى . . أنا أملك .

لم يكن واثقاً أن هذا الرجل الذى دخل الآن هو حجازى أفندى فقد كان بصره زائغاً ، ولكنه خمن ذلك عندما رأى الرجل الآخر

الذى أقبل من خلفه وعرف فيه سمت الأطباء . . ثم سمع عويل هدى ، وصوت توفيق . وبكاء طفل صغير فى الغرفة المجاورة لغرفته .

لقد امتلأ المكان بالناس ودفء الاهتمام . .

وشقيقاته . . كن كما شاء وتمنى . .

وهذا الطبيب البليد . ماذا يصنع ؟ . . إنه يلتقط أنبوبة الكينين من فوق النضد الصغير المجاور للفراش ، ويسأل — كم قرصاً أخذت؟ . .

ولم يجب عصام ، ولكنه أدار وجهه نحو الجدار وهو يقول لنفسه إنه إذا اعترف بعدد الأقراص التى تناولها .فإن الطبيب سيدرك الخدعة ويكشفها لشقيقاته فيسكن عنهن الروع ، وهو لا يريدهن مطمئنات فإن ذعرهن هو الشىء الوحيد الذى يعينه على تحمل آلامه . .

— عصام . كلمنى : أنا نادية . . .

— بسببك . . بسببك كل هذا . .

ولم تجب نادية على هذه الهمسة الذليلة ، ولكن يد الطبيب امتدت إلى ذراعه بإبرة غاصت فى لحمه .

ثم جرعته يد أخرى — لعلها يد أمه — فنجاناً من القهوة ، فلم يكد السائل الدافئ المر يمس حلقه حتى انبثق القىء من فمه وقد هزت بدنه المنتفض بالحمى تشنجات فظيعة .

وبدا كأن ذلك البدن المعذب قد استكان بعد نوبة القىء القاسية إلى شىء من الاسترخاء ، فخرج الطبيب إلى صالة البيت وتبعته الأم وبناتها الثلاث ، فلما عدن معه بعد دقائق كان فى وجوههن من الروع واليأس ما أفزع فتى الأسرة التعس فى محنته . .

— لماذا تبكين ؟ . . . . ماذا قال لكن ؟ . . أريد أن أعرف . . أترانى سأموت . . أماه !

فأجهش من حوله بالبكاء . .

— أموت ؟ . أنا أموت ؟ . . أما من سبيل إلى إنقاذى ؟ . . إنى

obeikandi.com

ما أردت هذا ، وما كان الموت بغيتي . . ألا تصنع لي شيئاً ياسيدي . . شيئاً يرد على الحياة . . .

وتعلق بسترة الطبيب ، وقبل يدي الرجل الغريب وبللها بدموعه . .

— إنها غلطتهن . . هجرنني وآثرن على قربي الحياة مع حيوانات من هذا الطراز . . حجازي . . توفيق . . محمود . . لماذا يقف هؤلاء الأوغاد حول سرير موتي ؟ . . ماذا يفعل السفلة في هذه الغرفة ؟ . . ماذا يصنعون في بيتي ؟ . . لقد أقبلوا ليشهدوا أني أموت . . فليخرجوا . . ليخرجوا في الحال . . أريد أن أظل وحدي مع شقيقاتي . . إنهن لي وحدي ، ولن أتنزل عنهن لأي رجل . . .

وأشار الدكتور بيده إلى حجازي وتوفيق فانسلا من المكان وخرجت على أثرهما الست دولت وراء الطبيب وهي تشهق بالبكاء . . وخلت الغرفة إلا من الأرواح الثلاثة الرقيقة ، فالتفت بسلطان الأرواح المحتضر . .

— آه . . الآن أنتن لي . . عدتن إلي . . ياحبيباتي . .

وفي هذه المرة قاء دما ، تلقته نادية في راحتيها .

ولكنه ظل يتأملهن من خلال دموعه ويناجيهن :

— لم رحلتن ، وخنتن عهدي ؟ أما كنتن سعيدات معي ؟ أما كنت سعيدة معي يا نادية ؟

فأعولت نادية بالبكاء ، وسقطت أمينة فوق قدميه ، ومرت هدى على شعره وجبينه بيدها المرتعدة . .

وأراد أن يتكلم ، ولكن الكلمات لاذت بالفرار خارج نطاق ذهنه كسحابات من الدخان . . ومزقت أحشاءه آلام فظيعة ، ونزح الظمأ لعابه . . ثم دخل في منطقة حلم غريب . . وكان في الحلم جسد امرأة ضخم عار ثقيل ، قد انطرح فوقه ، كأنما يشرب أنفاسه . . وثمة يد تنثر التراب في وجهه . . إنهم يدفنونه حياً . . وتقلص جسده فصار كالوتر المشدود ، وهبطت حرارته ولهث بأنفاسه وتسكع نبضه

obeikandl.com

على عتبات الأبدية ، ثم دخل الغرفة الزائر الرهيب حاصد الأرواح .

* * *

وقد كان هذا الحداد سبباً فى تأجيل زواج محمود ونادية واحداً وأربعين يوماً .

obeikandl.com

الرقصة الجديدة

obeikandl.com

obeikandl.com

١

كانت هذه أول مرة يهبط فيها من الشجرة إلى الأرض بعد غروب الشمس .

وكان الأفق كله سابحاً فى ضوء القمر ، بسمائه وأرضه وصخره وشجره وأحيائه ، عندما عصف بذلك الحيوان الفريد القابع كعادته عند ملتقى غصنين قويين فى ذروة الشجرة ، شوق غامض عارم إلى الهبوط فى الليل إلى الأرض ، وكان ذلك فى يوم قديم ، منذ بضع عشرات قليلة من ملايين السنين .

هبط الأرض متوجساً يتلفت ، ومشى غير بعيد من الشجرة التى يسكنها كما سكنها قبله أجداده قروناً من الأزمان ، وتأمل نبات الأرض الزكى فى المساء ، والأحياء العجيبة الضخمة التى تمشى على أربع أو تزحف على بطونها أو تتاوى وهى تفح وتنفث الشر . ووجد رزقاً وقوتاً ، فاستخفه الطرب ، وراح ينادى وحشاً ضارياً رآه إلى شىء من العبث ، ثم تصدى له واستفزه فى خبث وجرأة ومناورة ، وزأر الوحش وهجم فوثب حيوان الشجر الفريد المرح فى خفته القردية إلى الشجرة وجعل يرسل من فوقها عواءه الضاحك ، مستمتعاً بما ينفثه السبع الهائج من أنفاس الخيبة .

إلى تلك اللحظة كانت هذه الشجرة هى دنياه كلها .

كانت له فوقها حياة مفعمة خائفة ، وكان مستوحداً ونفسه كلها وحشة ، ولم يكن له اسم ولا جنس ولا عقل ولا ذاكرة ، ولكن أحلام الزمان غضة فى قلبه المتوجس الخفاق .

. لم يكن دبًا ولا سنجاباً ولا قرداً ، ولكنه ابن عم لها ، يعيش مثلها على الأشجار ويجهل أن له أباً وأماً وجنساً ، وإذا وقف اعتدل فى وقفته واستخدم يديه .

وقد عاش طويلا فى القمم الخضراء قبل أن تدفعه فتنة الأرض الغامضة إلى أحضانها . . كانت طبيعة الأرض تجذبه وتخلق له — من خلال فضوله — عقله البشرى . . . وقد بدأ المغامرة بوثبات خفيفة إلى الأرض كان يعود منها إلى الشجرة وقلبه ينتفض من الرعب . ولم يكن فى البداية ينزل إلى الأرض ذات الأسرار والروع إلا عند شروق كوكب النهار الساطع الكبير ، فى ذلك العيد اليومى الذى كان يهلل له فى كل مرة فرحاً بالنور وعبادة له . . ثم وجد من نفسه الشجاعة ذات مرة فقضى فى الأرض الواسعة المحيطة بشجرته نهاراً كاملا كله تجربة ومتاع حتى طردته وحشة الغروب إلى عالمه الأخضر الآمن ، حيث يفهم لغة الطير التى تبنى أعشاشها معه على الشجر وترتل له الأنغام بالقرب من النجوم .

ولكنه ، فى ذلك المساء ، هبط فى الليل ومشى فى الأرض يعابث وحوشها ويستطلع سحرها .

وكان قد قطع مسافة فى الوادى عندما حدثت له تجربة جديدة رائعة ، فى لقاء فريد اهتزت له نفسه بضرام من عواطف الرعب والأنس والرهبة .

رأى واحداً آخر ، مثله . . واحداً يشبهه ويمشى هو الآخر على قدميه منتصب القامة فى توجس وفضول وحيرة .

ورآه الآخر ، وصرخ ، ووقف . . .

وقفا أحدهما أمام الآخر ، مصعوقين من الدهشة ، والتقت عيونهما .

والتقى فى الأرض أول مخلوقين بشريين من سكان الشجر ، أبناء عم

القرد والدب والسنجاب ، فى الليل ، فى الكون ، فى التاريخ .
وكان كلاهما عملاقاً .
وفى قلبيهما طفولة الزمن ، وحلم قريب بتلك « الجنة » الخضراء التى هبطا منها .
دهر من الشعور فى نظرة طويلة عميقة كأنها يقظة موجعة من سبات طويل . . وإذا به يتبين أن هناك فارقاً عجيباً بين تكوينه وتكوين شبيهه .
كان شعر المخلوق الآخر أطول من شعره ، وكان ينقصه شيء ما ، فى وقفته اللينة وشهقاته الناعمة ، وكان فى صدره ثمرتان عجيبتان ، لهما شكل ما أبدعه !
وومض فى عينى الآخر أيضاً إدراك لهذا الفارق العجيب !
والمخلوقات البشعة تزحف وتقفز وتطير وتتلوى غير بعيد منهما ، وفى سمعهما فحيح صادر من شق فى صخرة . . .
ودمدمت شجرة معمرة وهى تحترق من ضربة صاعقة شق وميضها السماء متعرجاً . . والأفعى فى الشق تفح فى إصرار . . وكان « هو » مخلوقاً بشريًّا كأنه مسودة إنسان ، خاضعاً لسلطان الطبيعة ومتضرعاً إلى المجهول الهائل الذى يحتويه ، ولكن فيه يقظة فى النفس والتذاذاً بالحلم . . وكانت « هى » مثله ، لولا شبهة شاحبة من ضعف . . ولم يكن « هو » يعرف أنها « هى » ولا كانت تعرف أنه « هو » !
لم يكن أحدهما يعرف شيئاً فى تضرعه الخائف الأبكم إلى قوى الكون ، لم يكن لهما شعائر وطقوس ، ولا صروح وتوابيت ، ولا لغة ولا شعر . . ولكنهما قضيا الليلة لأول مرة فى الأرض ، وباركاها بالحب . .
وعندما أيقظهما أول شعاع من أشعة الشمس ، نهضا يهللان فى نشوة لوجه كوكب النور ، و إذا بهما يريان فى مكان الشجرة التى دكتها الصاعقة خشباً أسود متفحماً وقبساً متوقداً يتوهج لهبه فى سحر أخاذ .

نظر إليها ونظرت إليه وانطلقا فى همهمة مضطربة تريد أن تتوضح حقيقة الإحساس المشترك . . ثم مد « هو » يده الكبيرة المكسوة بالشعر فأمسك يدها ، وعجب لصغرها وهو يجذبها معه نحو ذلك اللهب الساحر وبوحى الفطرة المتفتحة عن برعم العقل . تعهد أول زوج من الناس وقدة النار حتى لا تخبو ، وصار الليل يأتى ويذهب دون أن يجذبهما الشوق إلى القمم الخضراء ؛ وقد كانا قبل النار يحبان الغزال الجميل العابر فى سلام القرون الأولى ؛ فصارا صيادين يستطعمان اللحم فى سعار .

ومرت حياة فإذا معهما مخلوق ثالث صغير يحبو ويلهو ويضحك ويتعلق فمه الصغير بثدى أمه ، ثم ثان ؛ وثالث ، ورابع ، وجماعة إنسانية حقيقية فى الأرض .

كانت البداية الحقيقية لنشر ظل الإنسان على الأرض وإخضاع طبيعتها لمقتضيات عيشه . .

وجاءت ليلة أخرى ، بعد حياة مرت ، وسبح الكون فى ضوء القمر وسبح رب هذه الأسرة فى ذكريات تيقظت فى عقله ، وذكر الشوق الغامض العارم الذى دفعه فى تلك الليلة القديمة إلى الأرض . . إلى لقاء قرينته . . وفاضت نفسه وجاشت . . وتناول عوداً وأدناه من شفتيه وراح يقلد صوت الهواء وهو يغنى فى أعواد اللوتس والغاب المجوفة ، وصوت الطيور ، وكل موسيقى الكون التى تعيش فى أعماقه .

وعصف به الطرب وراح يصور نفسه الساذجة ويشرح بلا وعى أعماقها وخلجاتها ، وإذا بقرينته وابنيه وابنتيه يترنحون ويتمايلون ، فكان الرقص . . وولدت الإنسانية .

٢

ومرت بضع عشرات قليلة من ملايين السنين ، وجاءت ليلة فى حانة من آلاف الحانات ، فى مدينة من آلاف المدن .

ــ قل لى . . ماذا جئت تصنع فى هذا البار ؟

ــ أشرب وأنتظر امرأة . . هل جلست فى حياتك مرة فى بار تشرب وتنتظر واحدة منهن ؟

ــ أهى فنانة ؟

ــ راقصة .

ــ الرقص شىء جميل . . .

ــ لعن الله الرقص ! !

ــ أتلعن التعبير الإنسانى الكامل عن نشوة الحياة ؟

ــ الرقص لعنة . . لعن الله أول إنسان دق الطبل لامرأة فرقصت ! !

ــ دعنا إذن من الرقص . . أنت إذن تنتظر راقصة هنا كل ليلة . . أهو الحب ؟

ــ ستحضر « هى » بعد قليل فتراها بعينيك . . أو على وجه التحديد ترى آخر لحظات حياتها !

ــ ماذا تعنى ؟

ــ أنا الليلة قاتلها !

ــ ستقتلها الآن ؟

ــ أمام عينيك .

ــ أنت سكران !

ــ أبداً . . فقط هى بنت حواء . . لعنة . . صيادة . . أما أنا فإن فى جيبى الخلفى مسدساً . . وفى المسدس ست طلقات . . اثنتان لصدرها واثنتان لبطنها ، أما الرصاصتان الأخيرتان فلرأسها الجميل إن شاء الله . .

ــ إنك تفزعنى ياسيدى فى أول لقاء لنا !

ــ المرأة أصلها قرد . . . قرد من قرود الشجر . . تراها ساعية دائماً

obeikandi.com

وراء أى رجل غنى الجيب ميت الضمير . . كانت حبيبتى وكانت وديعة ، وفجأة انقلبت قرداً كأصل أمها . . الليلة أحطمها وأحطم سعادة غيرى بها . . يا أستاذ هذه لاتصلح إلا قردة فى قفص حديقة القرود . . خائنات . . هات ياجرسون كمان واحد كونياك ، وبلاش الأنشوجة الناشفة دى . . . ترقص عارية وتتلوى كالأفعى الخارجة من تحت صخرة . . سأقتلها . . . سأضرب فى الصدر والرأس والبطن . . وستشهد بعينيك المشهد الأخير من هذه القصة . . ستدخل «هى» مختالة فى معطفها الفاخر الذى أهداه إليها الرجل الآخر . وأنتظرها فى هدوء ويدى فى جيبى الخلفى ، وعندما تصير على خطوة واحدة منى ، وتفتر شفتاها الكاذبتان عن ابتسامة اللؤم وتحية الغدر ، تخرج يدى من جيبى بالمسدس وأسدد فوهته إلى مواطن جمالها وفتنتها فأنثرها على الأرض . . سأقتل الأنثى طويلة الشعر بديعة الصدر ، الناعمة . . . هاهى ذى تدخل . . نعم هى هذه . . حواء . . أليست حلوة فى معطف الفراء الأسود ؟ . . هذه يدى تمتد فى هدوء إلى جيبى الخلفى ، وعلى شفتيها « هى » ابتسامتها العذبة ، سم الأفعى . .

ــ انتظر يارجل حتى أنجو بنفسى . .

ــ لا . . . انتظر أنت . . . انتظر . . . أهلا حبيبتى . . . تأخرت على يا حبيبتى . . أعرفك بالأستاذ . . كنت أكلمه عنك قبل حضورك . . حضرتها الفنانة المعروفة . . كونياك ياروحى ؟

وجلست « هى » ووضعت ساقاً على ساق بعظمة ، ودعك « هو » كفيه ولم يعد فى وجهه من الملامح غير ابتسامة عريضة ، وانحنى نحوها يسألها فى اهتمام وتحبب :

ــ كونياك يا روحى ؟

ــ والحساب علىّ . . ! !

ــ ماشى كلامك . شنطتك مفتوحة دائماً يابنت ياشاطرة . . هذا

الزمن يا محترم هو زمن النساء . . أين تذهب يا سيدى ؟ ألا تأخذ معنا كأسا أخرى ؟ . . إذن، مع السلامة . . لا . . لاتحاول دفع الحساب . . الحساب دائماً على الست . . .

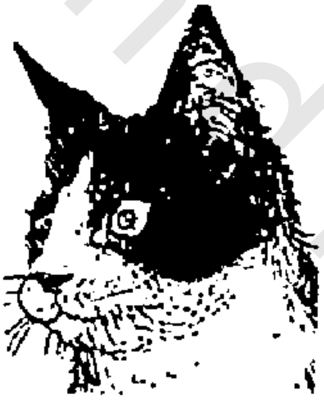

obeikandl.com

obeikandl.com

دعنى أيها الصديق أعود مرة أخرى إلى هذه الذكرى الغريبة من ذكريات حداثتى ، فأقص عليك ذلك الحادث القديم الذى وقع لى يوم كنت طفلا فى العام التاسع من عمرى ، وقد أعاده إلى ذاكرتى فى هذه اللحظة منظر ابنتك الصغيرة عندما دخلت علينا منذ قليل وعلى كتفيها عباءتها المنزلية الخضراء .

كان عمى يصحبنى كل ليلة إلى ذلك « السيرك » الكبير الذى شغل القاهرة فى ذلك العهد موسماً كاملا ، إذ كان يضم مجموعة عجيبة مثيرة من أمهر اللاعبين وأبرع الحيوانات المدربة ، وكان عمى يعرف من أفراد الفرقة بهلواناً مغربياً ذائع الصيت يدعى « ابن عمار » فكنا نزوره فى بعض الليالى فى غرفته التى يحرسها زئير الأسود وفحيح الأفاعى .

وقد نشأت بينى وبين ذلك اللاعب المشهور مودة عظيمة ، وكان رجلا ضخم البنيان موفور الصحة مهيب الطلعة ، فى طبعه سذاجة ، وإذا تحدث بلهجته المغربية فكأن حديثه الموسيقى . . وقد ألفت أن يتحفنى بين الحين والحين بهداياه النفيسة ، ومازال عندى منها صورته تلك التى تحمل عبارة الإهداء الرقيقة وتوقيع صاحبها .

وكان « ابن عمار » دائم الرضا عن نفسه ، جم الدعابة والمرح ، وكان — فيما يبدو لى — يزاول عمله الخطير بنفس الاطمئنان والبساطة والثقة التى يحلق بها ذقنه أو يشعل سيجارته ، فكان عجباً أن ندخل عليه ذات مساء فنجده عابساً مضطرب السخط ، وبدا حتى لى أنا الصغير أنه يعانى قلقلة عصبية غريبة ، فأقبل عليه عمى يسأله عن أمره ، وأجاب صديقى الضخم :

— لقد ظهر مرة أخرى . إنه الليلة هنا ! . .

وسقطت من بين يديه المتقبضتين علبة الأصباغ التى كان يصبغ من ألوانها وجهه حين دخلنا عليه ، فركلها بقدمه فحطمها وهو يسب ويلعن فى لغة هى خليط من المغربية والفرنسية . . .

قال عمى : عمن تتحدث ؟ ومن هو هذا البطل الذى استطاع أن يثيرك إلى هذا الحد و يفقدك ما ألفناه من اتزانك و وقارك ؟

قال و يده ، التى أمام المرآة ، ترتجف بالفرشاة الصغيرة :

— الكابوس الثقيل . . مصيبة المصائب . الحاج زيتون المغربى !

— زيتون المغربى ؟ !

قال ابن عمار : إنه سر من أسرار الطبيعة . . وعندما يغيب ليلة عن السيرك يتنفس المروضون واللاعبون الصعداء ، لأنهم يعلمون أنه قدر مكتوب . . وهو متفرج مزمن ، قد تبعنا فى كل بلد ذهبنا إليه . . وكنا نظن فى بعض الأحيان أننا أفلتنا منه ، ولكنه لا يلبث أن يظهر بغتة فى مقعده المختار ، ملتفاً بعباءته السوداء ، ومحدقاً فى اللاعب بعينيه الثاقبتين الثابتتى النظرة اللتين تشعان فى وجهه الأغبر الصارم . . إن له نظرة مروعة ، كأنها قبلة الموت . . هى شعاع ينطلق من فوق ثغره الدقيق الذى يبدو فى سكونه وصمته كأنه يلقى ما يشاء من الرغبات الغامضة فى جو الملعب . .

فتساءل عمى وهو يشعل سيجارة :

— لم أفهم . . أى ضير فى وجود هذا السيد بين المتفرجين ؟ . . أهو شؤم ؟ وبالله من يكون ؟

— وهل أدرى أنا ؟ . . إن اسمه الحقيقى مجهول كصاحبه ، وهو

لا يتكلم حتى نعرف جنسيته وهويته . . وأغلب الظن أنه هندى من أهل الفراغ والمس الروحى . عاش فى مراكش . وله ثراء ، وبين جنبيه إيمان بقوى الروح التى لا حدود لها . . ونحن الذين أطلقنا عليه اسم « زيتون المغربى » ، وهو اسم جدير بوجه صاحبه الذى لم يكتف من الزيتونة بلونها فاستعار أيضاً شكلها . . وقد كنا خلفناه وراءنا فى « رباط » وفى زعمنا أنه باق هناك ؛ فإذا به الليلة يظهر فى مقصورته . . قيل لى هذا الآن ؛ فكان علمى به سر حالى الذى ترانى عليه أيها الصديق . . إننى . . إننى . . خائف . . .

— خائف ؟ !

— إلى حد فقدان الثقة بنفسى !

قال عمى وهو يمشى إلى صاحبه :

— وأى أذى يمكن أن يلحقه بك أو بغيرك حضور هذا الرجل الغريب إلى الملعب ؟ إن هو إلا وهم يا أخى !

فصاح اللاعب المشهور :

— الأذى كل الأذى فى حضوره ! . . اسمع ياصاحبى . . أنت على طول عهدك بنا ومعرفتك لنا لا تستطيع أن تعرف أى أسرار نفسية تحرك البهلوان — إذ هو معلق فى الفضاء على ذلك الارتفاع العظيم — من يده أو قدمه أو أسنانه القابضة على حبل أو حلقة حديدية . . فى كل ثانية من الدقائق الخطيرة التى تستغرقها « النمرة » يكون البهلوان منا تحت رحمة أعصابه وسيطرته على إرادته . . إنه عرضة للإفلات والسقوط والموت تحت أنظار الجمهور الجشعة المروعة . . وسره كما قلت لك فى السيطرة الكاملة على إرادته . . فلو أن إرادة خارجية . . إرادة غير إرادته . . تدخلت فى عمله بشكل حاسم لكان فى ذلك ضياعه . .

(٣)

obeikandl.com

وهذه المشيئة الخارجية الجبارة لا يمكن أن تأتى من مصدر عادى ، وهنا سر زيتون . .

— يا أخى قل لى ما حكاية زيتون هذا !

— إن هذا المخلوق . كسائر مخلوقات الله . صاحب شهوة يعيش عليها . . ولكن أى شهوة شهوة زيتون . . . إنه إنسان درب إرادته وقواه النفسية الخارقة وروضها حتى صارت فى يده كالسيف الصارم . . إن لذته الكبرى هى هذه المشاهد العنيفة التى تبعث فى النفس البشرية — على درجات متفاوتة — شعوراً من القسوة الوحشية يصحب الرجة التى يحدثها فى الأعصاب توقع الخطر ، والتى تتطور فى بعض النفوس الشاذة إلى رغبة آثمة فى وقوع الشر . . وزيتون — عليه ألف لعنة — صاحب نفس شاذة باطشة . وقد أوتى حساسية لا حد لها ؛ وإرادته سوط فى يده يخط به . . تقريباً . . مصائر الناس . . صدقنى يا أخى إنه فلتة .. إنه يكتب أقدار اللاعب على الحبل أو المروض أمام الوحش ، وكلاهما كما بينت لك يكيف أفعاله ويسيطر على حركاته بقوة عضلاته الخاضعة خضوعاً مطلقاً لقوته النفسية .. لطاقة الروح الإرادية فى كيانه .. أما القوت الذى يتغذى به هذا المخلوق البشع . . أما أمنيته السارة وفرحته الكبرى ، فذلك أن يشهد أحد أولئك اللاعبين مع الموت وهو يذهب فريسة حركة طائشة من يده لاختلال طارئ على سيطرته على نفسه . . إنه ينتظر ، من مكمنه ، متحفزاً كالثعبان ، متوثباً كالنمر ، متربصاً كالقضاء ، ذلك الدوار المفاجئ أو تلك الحركة الخاطئة . التى تقذف بإنسان حىّ إلى موت فظيع يجعل منه فى غمضة عين حطام جثة غارقة فى الدم . . وهذه اللحظة الخاطفة التى تتم فيها الكارثة المفجعة هى من صنع بشر . .

— من صنع زيتون ؟ !

— من صنع زيتون . . من صنع من حقت عليه ألف لعنة ! . . . هذه هي لذته ! . . . فهو يعرف متى يرسل من إرادته ذلك الشعاع الباهر أو ذلك السيال الآمر فيحدث به فى إرادة ضحيته خللا حاسما يكون فيه حتفه . . .

وفى ركنى كنت أرتعد فرقاً . وكان العرق يسيل على وجهى وظهرى . حتى أوشكت أن أصرخ بالبكاء سائلا عمى أن يخرج بى فى الحال من ذلك المكان . . ولكن عمى ضحك ووضع يده على كتف صديقه :

— ما هذا الذى تقول يا ابن عمار ؟ !

— إنك لا تريد أن تصدق ، ولكن هذا الرجل الخارق الرهيب قد أضاع من زملائنا وزميلاتنا سبعة أو ثمانية فى السنوات الأخيرة لا لشىء إلا لينال لذته ورعدته الشنيعة ويروى عطشه إلى ذلك المشهد البشع الرائع . . مشهد إنسان حى يموت أمامه أشنع ميتة . . أتذكر « عائشة » بطلة ملعبنا التى قضت نحبها العام الماضى فى أنقرة تحت أنظار عشرين ألف مشاهد ؟ إنه يا أخى هو قاتلها ! . . ظلت أمداً طويلا صيد زيتون وقيد نظرته الشيطانية . . كنا نعرف وكانت هى أيضاً تعرف . . ولكنه لم يفقد الرجاء .. وظل بها يعالجها ، وقيل إنه دفع فى طريقها شابًّا بديع الشباب فأحبته ، وأن حبيبها قضى فى مخدعها عشية الحادثة ساعات ، أحالها خلالها كومة من اللحم والعظم واهنة العزم مضعضعة الإرادة ، وبهذا وحده استطاع فى الملعب أن يسلط أمره الغامض ، فهوت من ذلك الارتفاع الشاهق وسط صيحة من عشرين ألف حنجرة ، وعلت الثغر الدقيق الساخر ابتسامة غامضة ، وطوى الشيطان عباءته السوداء على كتفيه وغادر الملعب بعد مصرع عائشة وابتلعه الظلام . . وما كان ليصدقنا أى مجنون لو أننا جعلنا نصيح : إليكم القاتل فخذوه !

وسمعنا فى تلك اللحظة دقًّا على الباب وصوت غلام من خدم السيرك ينادى :

obeikandl.com

— دورك ياسيد !

فانبعث ابن عمار — وقد سمعها — واقفاً يكرر فى همسات متصلة :

— دورك ياسيد . . دورى . . دورى . .

ولمعت حدقتاه فى وجهه النحاسى الوسيم ، وعاد يهمس كأنما يخاطب نفسه :

— ها هو ذا الليلة هنا . . ولعله ، بنداء من عينيه ، أو بحركة من شفتيه ، أو بإشارة من يده ، قادر على أن يجعل من هذه الليلة آخر عهدى باللعب وبالحياة . . آخر دور . .

ورأيت عمى وقد امتقع لونه يجاهد ليسخر من خوف صديقه . . ودفعه إلى الباب دفعاً ، ثم تناولنى من يدى وهرع بى إلى مقصورتنا ، وما إن جلسنا حتى دوى الملعب بتصفيق حاد ، فقد ظهر البطل المحبوب بين الحبال فى أعلى قمة الملعب . .

كان عمى عن يمينى يلهث بأنفاسه والعرق يغطى صدغيه وجبينه ، وكان صديقه ابن عمار هناك عالياً فى القبة يقفز بمهارته المذهلة بين تلك المجموعة المعقدة من الحبال والحلقات فى سرعة تخطف البصر . .

وهمست وقلبى يدق فى صدرى :
— عمى . . أين زيتون !

فارتعدت يده المستندة إلى ذراع المقعد :

— أجئت لتتفرج على ابن عمار العظيم أم على . . زيتون ؟

ولم يكد يرفع بصره مرة أخرى إلى قبة الملعب حتى كان الجمهور قد زأر وهو ينبعث واقفاً فى رعب جماعى مروّع وقد شهد بطله الكبير يهوى فجأة كالحجر إلى حافة الشبكة ومنها إلى الأرض بعد أن أفلتت قبضته الحلقة التى وجهتها إليه زميلته . .

obeikandl.com

وقد أنسى كل ما مر بى . ولكنى لا أنسى لحظة الرعب التى سمرتنى فى مكانى عندما شهدت . فى المقصورة المجاورة . عباءة سوداء تهرول خارجة من المكان .. منطوية على ذلك السر الغامض الماثل فى هيكل إنسان من أبناء الفناء . . .

obeikandl.com

obeikandl.com

همس صوتها اللين كضوء الشمعة : متى تكتب قصتى ؟

فنظر فى بريق عينيها الوحشى تحت قوسى حاجبيها المشرعين وأجابها : « سوف أكتبها يوماً ، وفى ذهنى منذ الآن عنوانها . ولكنى فى حاجة إلى فترة من الزمن تسكن فيها نفسى إلى فكرة كتابة قصة كهذه . . قصة نفس بشرية أوتيت كل هذا القدر من الوحشية »

— وما العنوان ؟

— « الوحش خارج القفص » . .

قالت : « أتحتقرنى وترهبنى بعدما مزقت بين يديك قناعى ؟ إن هذا العنوان وحده يقول ذلك » !

ووقع بينهما صمت عميق . .

كل شىء ساكن إلى أقصى مدى السمع : وظلال الأشجار الضخمة مبسوطة على الطريق ، بين الحركة والسكون . . والسيارة تطوى الظلال فتمحوها فيما ترى العين ، كأنها تهتك أستاراً . . ووراء عجلة القيادة ذلك الوجه الأسمر الجميل الذى تنطلق القسوة الفطرية فى قوسى حاجبيه . . وعن يمينها ذلك الرجل الذى يكتب قصصاً عن الوحوش والبشر . .

منذ ساعات قليلة لم يكن يعرف عنها شيئاً ، أما الآن فقد رفعت له النقاب عن روحها ومزقت بين يديه حياءها وأباحته نفسها يرتاد مجاهلها ، وفى يدها المرفوعة مصباح ينير له سبيله فى أدغالها الرهيبة . . قالت له : « سأجعل منك كاهناً ، وعلى ركبتى أركع ، وبين يديك أعترف بخيرى وشرى ، ومجدى وعارى » . .

وعادت تسائله : « أترانى وحشاً ؟ » . . قال : « لست وحدك الوحش ! . . » . قالت : « تقول هذا لترضينى . . . »

قال وبصره إلى الطريق الذى تلقى عليه الأشجار الضخمة ظلالها وتنشر فيه غيابات السكون : أقص عليك بدورى قصة صغيرة : قصة وحوش لا عدد لها : وحوش فى غابة كبيرة . . ذلك أنى أوتيت منذ أعوام حظاً لم يؤته أحد من الناس ، إذ شهدت بعينى أسداً يفترس مروضه . . والأسد وحش كما تعلمين : والمروض إن كنت لا تعلمين إنسان ، أخ من البشر . .

— وأين كان ذلك ؟

— فى السيرك . .

— والأسد أكل الرجل أكلا ، أمامكم ؟

— تعلمى الصبر واسمعى . كان مقعدى فى الملعب بحيث لو مددت ذراعى للمست الأسد داخل قفصه ، وكان اسم الأسد « سلطان » . . وكان وحشاً صعب المراس تلتمع عيناه تحت لبته السمراء كما تلتمع عيون بعض النساء تحت قوسين من حاجبين ينمان عن قسوة دفينة باغية . . وكان المروض منتصباً وجهاً لوجه إزاء الوحش ، ومعتمداً بإحدى يديه على حربة ضخمة ذات حدين ، وبيده الأخرى تحرك السوط فى وجه الأسد . . وكان فى ساحة الملعب حشد من الناس . . ينظرون . . وكلهم بشر فما فينا ليلتئذ وحش إلا الأسد ولم ألبث أن لحظت أن إحدى قدمى المروض مهيضة ملفوفة وأن الأسد فى حالة غير مألوفة من الهياج والتمرد ، فهو يرفض إطاعة الأوامر التى يصدرها إليه مروضه ، وقد كشر عن أنيابه وجعل يرسل زئيراً عالياً يهز أركان الملعب وينفس به عن غيظه الساخط وكبريائه الجريحة .. ولكن المروض لم يعبأ بغضب الوحش ، بل جعل يسوطه ويزجره . . ولعل هذا كله لم يكن فيه شىء جديد ، فتلك هى على كل حال المبارزة المألوفة بين إرادتين ،

على إحداهما آخر الأمر أن تخضع للأخرى . . وأوشك لحظة خيل إلينا أن المروض قد اكتشف فيها عند تلميذه العاصى علامات العودة إلى الرضوخ والطاعة : فقد كف عنه سوطه ، وأراد أن يرجع إلى الوراء خطوة واحدة ليترك للأسد المسافة الكافية للقفز فوق الحاجز : ولكن قدمه العاجزة عثرت بحربته ، فترنح بقامته المديدة : وأطلقت الجموع المحتشدة فى الملعب صرخة عامة قصيرة . .

وفى أثناء جزء من ألف من الثانية : استطعنا أن نعتقد أن الرجل سيستعيد توازنه . . وكنت أشهد نظرة الرعب فى عينيه ، وكان أول من يعلم أنه قد اضطهد الأسد فى ليلته وأنه هالك إن سقط . .

ولقد سقط الرجل على أرض القفص كتلة لا حراك بها . . وعجبنا فى غمرة الفزع أكان سكونه عن قصد منه ، أم كان رعباً وهلعاً . . والحق أنه لم يحاول أن ينهض من كبوته ، وأظنه كان لديه الفرصة الكافية لو شاء أن يفعل . .

أراك تلعقين شفتيك بطرف لسانك الأحمر الدقيق ، كأنما خيل إليك أنك فى مكان «سلطان!» .

* * *

والآن فانظرى ماذا كان . . كان الصمت العميق يخيم على ساحة السيرك ، وقد نهض « سلطان » إزاء الإنسان الملقى أمامه بحيث لم يكن الجمهور يرى شيئاً من ملامحه . . فأى لغز خفى كان ساعتئذ فى عينى الوحش ؟

قالت : أحسبه كان يلعق فمه بطرف لسانه ! . . »

ــ أما الناس . . ماذا كان فى أعماق نفوسهم من الإنسان وماذا كان فيها من الوحش ؟ . . إن المرء لتساوره فى مثل تلك المواقف الرهيبة إحساسات غير متوقعة ، ومذهلة . . بينما كان الصمت المروع سائداً

والأسد والمروض ثابتين فى وضعيهما كأنهما شخوص لوحة بارزة : غزت نفسى عاطفة غير معقولة لا أدرى مأتاها : أهى من الانفعال الحقيقى ؟ أم من الفضول الوحشى الكامن فى الواعية الخفية لنا نحن البشر ؟ . . لا أدرى . . والذى أدريه هو أنى كنت فى تلك اللحظة أخشى أن يطول انتظار « سلطان » ! . . كان فى أعماقى صوت وحشى يقول لى إن هذا الوحش أحمق إذ يكتفى بهذا التحديق فى جسم الرجل الملقى تحت رحمته ! . . ولم أكن الوحيد الذى ساورته تلك الرغبة الفظيعة الغامضة ، بل كانت كل الوجوه من حولى تكاد تفصح عنها ، ولكن لم يكن يسع أحدنا أن يجهر بما كان يتمنى فى سريرته : أن يتذوق الوحش ، تحت أعيننا ، لحم فريسته . .

فى تلك اللحظة كنا كلنا وحوشاً . .

مزق المشهد أقنعتنا ، وكشف خبيئتنا . .

وكان انتظارنا قد طال — ثوانى كالدهر — والوحش الذى تركزت فيه وحشيتنا منتصب كأنه القدر ، مدرك أن عليه هو — وقد تغيرت ظروف الصراع — أن يتقدم وينعم بوليمتنا وقرباننا . . ففعل كأنما تدفعه إرادتنا ، ووضع فوق كتف الفريسة — فريستنا كلنا — أحد مخالبه الثقيلة . . وحدث هنالك انفجار صاخب رهيب ، فقد دفعت المقاعد إلى الوراء ، وارتفعت من مئات الحناجر صيحات تتكلف الإشفاق والروع ، وهرع نحو جدران القفص الحديدية من استطاع ، وتدافع الناس وداس بعضهم بعضاً ، وشبت النساء على أطراف أقدامهن . . ولكن هذا الهرج العنيف لم يصرف الوحش عن فريسته ، وإنما التفت نحو الحشود الملتفة بلفتة ملكية وفحصها باحتقار هادئ ، ثم عكف على صاحبه يهزه ، ويعضه . . وما لبث ثمه أن امتلأ بما لا ندرى . . ربما بلحم آدمى ! . .

ولو لبثت تلك الأمنية الأثيمة تجيش فى النفوس المحيطة بالقفص

دقيقة واحدة أخرى لكان قد التهم فريسته وقضى الأمر . . ولكن النفوس كانت قد استردت طابعها الكريم ، وأولئك الذين كانوا فى مبدأ الأمر قد شاركونى رغبتى الوحشية فى التفرج على مذبحة ؛ قد عادوا كما عدت يستفظعون هذا المشهد البغيض عندما تحققت أمنيتهم تحت أعينهم أو كادت . . وكأنما كان « سلطان » يقرأ أفكار الناس من حوله ، فقد ترك ضحيته على غير انتظار وكف عن تمزيقها ونهشها كأنما هو قد خضع آخر الأمر لمشيئة تلك النفوس التى تعاونت على إملاء إرادتها عليه . .

قالت صاحبة الصوت اللين كضوء الشمعة وهى تلعق شفتها الحمراء بلسانها العصبى :

ـ ما أسرع ما ارتددتم من نشوة الافتراس إلى الطابع « الإنسانى » الكريم . . وإنى ، أنا ، لأعجب للأسد كيف نزل عند إرادتكم ، وباع بذلة الخضوع نشوة الدم !

ـ لم يكن وحشاً كاملا ! . . إنى أعترف أن ذلك الوحش المروض كان أقل منك فى وحشيته درجة ! . . وقد أجبره سلطاننا نحن على أن يتراجع وجلا ، وما لبث أن فتح باب القفص عن رجلين قد شرعا حربتين ما كاد السبع الضارى يراهما حتى تقهقر إلى باب آخر وراءه يوصل إلى قفص خلفى . . وأقفل الباب عليه . . وهرع الرجلان إلى الجسد الذى لم نكن نعلم بعد ما حل به ، ولكن الرجل لم يلبث أن نهض بعون زميليه قائماً . . وكان عنقه ينزف دماً وقد سلخ جلده ، ومن جبينه ـ بين عينيه ـ كانت تتدلى كتلة قرمزية من اللحم الحىّ ، كأنها شاهد على مخلب « سلطان »[1] ! . .

---

(١) نشرت هذه القصة أول مرة فى جريدة « المصرى » منذ أكثر من عشرين سنة ؛ وقبل أن يفترس أسد اسمه « سلطان » ـ أيضاً ـ مروضه فى سيرك القاهرة فى نهاية سنة ١٩٧٢ .

obeikandi.com

وانحنى الرجل للجمهور الذى أوشكت ردته إلى الوحشية أن تضيعه ، وانسحب يجر ساقه المهيضة . .

ولم يكد يختفى حتى اتجه اهتمام الرجال والنساء إلى أخيهم الوحش وقد صار فى القفص الخانق مع زميله المنتظر وهو يذرع القفص فى انفعال بالغ : وكلما مر أمام زميله الجاثم فى الركن لحس له هذا بلسانه بقعة قرمزية من الدم على ساقه . .

وأقبل من ورائى سيد جليل فأدخل عصاه من خلال القضبان وجعل يضرب بها سلطان كلما مر من أمامه ، وسلطان ينظر فى استخفاف إلى هذا البشرى الذى لم يطق أن يكون وحشاً أكثر من دقيقة واحدة !

وهمس متفرج آخر فى أذنى ملخصاً شعور الجميع :

— لماذا يضربه ؟ إننى كنت فى صف الأسد !

نعم كانت صلاة صاحب العصا نفاقاً بغير إيمان !

والتفت إلى صاحبته التى كانت تقود السيارة فما راعه إلا أن رأى قبضتها على عجلة القيادة ترتعدان . . وكان كل شىء ساكناً إلى أقصى مدى السمع ، لولا ذلك اللهاث المحموم من صدرها . . وكان كل شىء ينطق بالجمال فى تلك الليلة الصافية ، فمن رأى السيارة تطوى الظلال حسبها تضم عاشقين ، لولا أن سائقتها كانت تلعق شفتيها بطرف لسانها الدقيق العصبى كما كان يفعل — على دم رجل — لسان « سلطان » فى القفص !

كانت تصلى . . . صلاة الوحوش المؤمنة !

obeikandl.com

obeikandl.com

obekandl.com

لا يا صديقي . هذا الذي أخذنا إليه عثمان تحت تلك القبة المضروبة فأنفقنا فيه ليلتنا، ليس ملهاة أطفال! إنها الدنيا ! إنه عالم كامل عجيب . . إنه السيرك ، أكبر مسرح في العالم . ذلك الذي يتآخى فوقه الإنسان والحيوان .

اخرج بنا إلى شارع الهرم ، وقُد سيارتك على مهل ، واصغ إلي أحدثك عن صورة من عالم السيرك غير هذه التي شهدناها الليلة . . صورة تعيش منذ عهود سحيقة في نفسي ، وقد تتضاءل معالمها تحت الرحى التي تطحن أيامنا وتذرها مع الريح ، لكنها لا تلبث أن تبعث حية أمام مشهد كهذه الكف التي رأيناها الليلة ، كف مروض الضواري التي قضمها الوحش ذات مرة . .

قال صديقي وهو يتثاءب فوق عجلة القيادة :

ـ أحسبني أعرف القصة ! أليست قصة البهلوان الذي . . .

كلا يا حسن ! بل هي صورة أخرى لست أدري لم كان يتردد القلم دائماً في يدي كلما هممت أن أكتب عنها ؛ ولم يكن بطلها بهلواناً يغازل المصير على حبل ، ولا راقصاً بارعاً فوق ظهر حصان أو فيل ؛ ولا مروضاً يسيطر على ضوار تزأر في قفص . . لم يكن حتى أحد أولئك الفلاسفة الذين يصبغون وجوههم ويزركشون أزياءهم ويفلحون في جعل الناس يستلقون من الضحك على ظهورهم . .

كان إنساناً عاديًّا مثلي ومثلك ، يرتدي ـ إذا تصدى للموت على طريقته ـ طرطوراً تدندن فيه الأجراس ، وقميصاً سابغاً من الحرير الأحمر اللامع ، ويركب « بسكليت » . . نعم ، « بسكليت » يا أخي . . !

وكان يدور ويدور وهو متجمع فوق آلته كحشرة عجيبة حمراء، ظهره قوس . وأنفه بين ركبتيه . وساقاه تعملان في البدال في سرعة متزايدة ؛ و « البسكليت » يتطوح به حتى ليخيل إليك في بعض دوراته السريعة الخاطفة أن رأسه يكاد يمس أرض القرص المعدنى المستدير الذى يدور فوقه ؛ والذى ؛ هو أيضاً ؛ يدور . . يدور حول محور تسيطر على حركته وسرعته قوة موتور كهربائى . . لكنه يدور فى الاتجاه المضاد لاتجاه «البسكليت» . . وكلما زادت سرعته الآلية رأيت الحشرة الحمراء المنكبة على «البسكليت» تجاهد بكل قوى عضلاتها وإرادتها كى تصارع قوة الدوران المضادة القاذفة . كما لو كان يكافح ريحاً غاضبة عاتية . .

أتراني استطعت بهذه العبارات المضطربة أن أرسم لك صورة كاملة لأداة العيش التى كان ذلك الإنسان ينتزع بها ، كل ليلة ، وجبة عشاء له ولزوجته العرجاء ؟

ربما كان من واجبى أيضاً أن أبين لك أن القرص الذى كان يدور فوقه لم تكن له حافة ، وأن قطره لم يكن يتجاوز الأمتار الأربعة ، على حين كان ارتفاعه عن سطح الأرض نحو عشرة أمتار ؛ وأنه كان فى الحقيقة شيئاً جهنمياً يبدأ دورانه فى بطء ثم تزداد سرعته ، أسرع فأسرع ، حتى لا تعود العين ترى منه غير أسطوانة براقة جن جنونها ، وكأن سطحها بخطوطه الدائرية التى حفرتها فيه العجلات على مدى الأعوام بركة ماء صقيلة ألقيت فيها حصاة فانداحت دوائر دوائر . . .

وقد ذكرت لك أن الرجل كانت له زوجة . . وأنا لا أنسى تلك السيدة الشقراء التى كانت من جنس زوجها ؛ من بنات الشمال . . وكانت هى الأخرى ، ترساً صغيراً فى عجلة السيرك الهادرة ، ثم سقطت ذات ليلة من القبة العالية فتهشمت ساقها اليسرى ، فهى اليوم عرجاء تمشى متوكئة على عصا من الأبنوس الأسود ؛ وإدارة السيرك تمنحها معاشاً

أسبوعياً هزيلا . زاعمة لها فى حياء الكرم أنها تؤدى عملا له قيمته : لعله إمساك الدفتر وحساب نسبة الضرائب ، أو شىء من هذا النحو لم أفهمه تماماً . .

كنت أراها دائماً واقفة إلى جوار أحد الأعمدة الضخمة التى ترفع القبة فوق الساحة ، فى ثوب بسيط ، وروحها تطل من عينيها فى لهفة عميقة على رجلها الذى يدور ويدور فينتزع ضحكات السرور وشهقات الفزع . . .

رجلها ذو الطرطور ، الذى تحبه ، ومن خشيتها عليه : كل مرة ، تتسمر كالتمثال أمام الطابع المروع للعبته ووسيلة رزقه : .

وفى المرحلة الأخيرة الخطيرة من « اللعبة » عندما كان يبدو أنه يوشك فى مزاج من الجد والهزل أن تقذف به إلى الفضاء قوة الدفع المنبعثة من مركز الأسطوانة ، كانت كل واحدة من تلك الترنحات القاسية الخطيرة تنتزع من الجمهور ، ومن بعض زملاء اللاعب : نفس الشهقة المختنقة التى تهز كيان المرأة شريكة حياته . . أبداً لن تبرح ذاكرتى يا أخى صورتها وهى مستندة فى إعياء إلى العمود الخشبى الشامخ ؛ بينما الأسطوانة البراقة تخطف خطف البرق مرسلة زمجرتها الصماء وقد طقت فى حافتها القاتلة شرارات كهربائية وامضة ، خضراء وحمراء ، وذلك الصفير الجهنمى يصحب المأساة كلها ، حاداً قاسياً : كأنه عواء مستمر كالنذير . .

وفى كل مرة كنت أقرأ فى عينيها سؤالا أليماً ، هو خبزها اليومى : أتراه اليوم موعده مع الموت ؟

وكنت أتأملها طويلا بعد أن ينتهى « الشغل » فترق لهما نفسى ، وهما يخرجان فى كل مرة جالسين جنباً إلى جنب . . ولكم قرأت نفسهما . . لقد انتهت « اللعبة » هذه المرة أيضاً بسلام . . كفت الصفارة العصبية عن شكواها المتصلة ، وهدأت الأسطوانة العالية من سرعتها قليلا قليلا

حتى توقفت .. وهاهى ذى الحشرة الحمراء التى كانت تجنى القوت وتصارع قوى الوجود قد قفزت إلى الأرض الثابتة ، وانحنت فترنمت فى الطرطور أجراسها ، وابتسمت للأكف المائجة .. هاهو ذلك الكائن البشرى يخطو فى إعياء إلى الركن الذى يعلم أن صاحبته تنتظره فيه .. إنها تتلقاه بابتسامة تقطر فرحاً مراً .. لقد نجا من الموت .. ربما كان ذلك غداً .. فى حفلة النهار .. أو فى حفلة الليل .. لكن الآن ، فى هذه اللحظة ، أمامهما ليلة .. ليلة كاملة يعيشانها معاً ..

فى تلك اللحظات التى كان يطيب لى فيها أن أسرى بروحى فى روح هذا الزوج من الناس ، كنت أحس أن عالمهما يفصلهما عن كل عالم ، حتى عالم إخوتهما الذين يضطربون حولهما .. وأنظر إليهما فأراهما – من مكانى البعيد – يفرشان على الأرض ورقة من صحيفة ويضعان فوقها وجبة العشاء ، تؤاكله أليفته .. ربما كان ذلك هو عشاؤهما الأخير معاً ، لكنهما يضحكان ..

ترى ماذا يقول لها وتقول له ؟ إن حبهما ضخم يسع الكون كله .. ولعلهما يحلمان بمكان جميل يأويان إليه بعد السنين العجاف وينثران عليه الزهر والنغم ورغد العيش ، وكل جمال ..

ياصديقى قد أنسى كل ما رأيت وعرفت فى السيرك ، ولكننى لن أنسى أنه ما من أحد منهم ، لا المروض الجبار فى قفص السباع ، ولا البهلوان المارد على حبله ، ولا المهرج العالمى الذى يبصق على الحياة فوق نشارة الخشب التى تكسو أرض الساحة ، ما من أحد فى ذلك العالم العجيب قرأت فى وجهه ما كنت أقرؤه فى وجه ذلك الإنسان الذى ترن فى طرطوره الأجراس ، إذ يتصدى للموت فى سبيل القوت فيفرض على نفسه ، مرة أو مرتين كل ليلة ، تلك المحنة التى يبلغ من فظاعتها فى بعض اللحظات أن يرفض وجهه الإذعان لإرادته ، فترتسم عليه

كل الحقيقة الرهيبة المفجعة . ويغدو . . حقاً . وجه محكوم عليه بالموت . .

عد بنا الآن يا أخى من الحرم إلى المدينة . فما أحسبك تذوقت من حكايتى الساذجة شيئاً يعوضك عن ساعة نوم أضعتها ! .

obeikandl.com

في المجتمع

obeikandl.com

— يا بيه . . . يا بيه . . اشترى منى ورقة والنبى . .

توقف الرجل : ونظر إلى البنت الصغيرة التى طلعت له من وراء كشك المترو ، ونهرها :

— ياشيخة غورى انت كمان . .

كان يبحث عن تاكسى ، وكان شارع عماد الدين هامد الحياة فى الفجر الشاحب . والبرد لاذع .

— خد لك ورقة . . مين عارف يا بيه . يمكن تكسب . .

امتدت يد الرجل الأنيق فى شىء من الضيق والعجلة إلى جيب معطفه وخرجت مليئة بالنقود . وامتدت بقطعة صغيرة من ذات القرشين إلى البنت الصغيرة .

— خدى . . وغورى بقى من وشى . .

التقطت البنت الصغيرة قطعة النقود من فوق جلد القفاز البارد ، وسألت السيد وهى تضع أوراقها الملونة تحت أنفه :

— إسعاف ؟ أقباط ؟ مواساة ؟

— لا . دا علشانك . . بس حلى عنى بقى . .

وحث الرجل الخطى إلى ناحية شارع فؤاد وهو يتطلع إلى مرور تاكسى خال يسرع به إلى بيته الدافئ الوثير فى الزمالك ؛ لكن البنت الصغيرة تبعته من بعيد تتسكع بقدميها القذرتين الحافيتين . .

كانت فى الثانية عشرة من عمرها ، نحيلة سمراء تتراءى فى هزال الجوع ، ولها شعر أسود طويل . وقذر . وكان جبينها معصوباً بمنديل أخضر . وثوبها البالى الأسود القصير يعلو ركبتيها ، وركبتاها أيضاً

قذرتان . . وكانت تقترب منه وهى تخشى بأسه . . كان الرجل واقفاً الآن تحت مصباح النور القائم أمام صيدلية الناصية . فجاءته البنت الصغيرة مرة أخرى من أمامه وقالت له فى انكسار :

– يابيه . . أصل الساعا دى ماتلقاش فيها تاكسى كتير . .

– أنا بعدين رايح أخفاك كف ماتخديش غيره . .

– ما تخلى بالك طويل امال ياسعادة البيه . . يمكن أفيدك . .

سكت الرجل لحظة وهو يتأمل الصبية فى عجب ، فابتسمت له ، ابتسامة قاسية حزينة .

– تفيديني بإيه يابنت الكلاب انتى ؟

رفعت إليه عينيها العسليتين المريضتين وهمست :

– الدنيا برد وأنا سقعانة قوى . . وجعانة إن كنت تصدق . . جعانة قوى . . والليل طويل يابيه . . ونادر لما أفندية ولا بهوات يا خدونى . .

– ياخدوكى ؟ !

قالها وهو واقف أمام مواطنته الصغيرة كالمصعوق . .

– انتى بتقولى إيه يا بنت ؟

– فى خرجة السيما السواريه . . ساعات يعنى . . واحد من بتوع آخر الليل . . ولا شلة أفندية . . أتمسكن لهم علشان ياخدوا منى ياناصيب . يكلمونى ويضحكوا معايا . . وساعات يخافوا منى بعدما يكلمونى وأجاوبهم . . ويسيبونى . .

وابتسمت مرة أخرى ابتسامتها الناضجة القاسية ، وقالت :

– السن يا بيه . . علشان قاصر . . لكن سعادتك لو جيت معايا دلوقت بولاق ، فى البيت ، اختى حسنية أكبر منى . .

وكالملسوع صرخ الرجل وراء تاكسى فارغ كان سائقه قد مر به كالسهم : تاكسى .. تاكسى ! !

لكن صوت البنية الصغيرة كان لا يزال يتوسل فى أذن الرجل : حسنية أكبر منى .. وأحلى يا بيه والله العظيم ..

عندها جرى الرجل بأقصى سرعته نحو التاكسى الذى كان يتراجع إليه ، فلو رأيته حسبته ينجو بعمره من جب الأفاعى .

obeikandl.com

obeikandl.com

[redacted]

أنت ساخط أشد السخط لأن العالم المهوم بالتجرد والعلانية قد خلا من روعة الغموض وسحر المجهول ؛ وأنا لا أقرك على زعمك [ولا أرى معك أن النزعة العصرية قد قضت على عهد « الجنيات » وكل ما يسيطر على قلوبنا ويهز أعصابنا ويشبع نهمنا الغريزى إلى روائع المجهول ؛ فأنا أعتقد أن فى صميم حياتنا العصرية أشباحاً وأطيافاً ذات رؤوس آدمية تسير بيننا وتحتك بها كل يوم وكل ليلة دون أن ندرى ؛ وأن العالم لا يزال عامراً بالغيلان والوحوش والسحرة ؛ حتى بين من نلقاهم كل يوم ، وبين أقرب الناس إلينا !

إليك هذا القطيع من النساء والرجال ، قد أقبلوا ليعتصروا اللذات كلها فى هذا البيت الجميل الحافل بالأضواء والموسيقى والخمر والعطر ؛ فتخير من تشاء من الرواد ثم دعنى أحسر لك القناع عن كل وجه يقع عليه اختيارك ؛ لأكشف لك الغول الكامن وراء كل محيا صبيح أو مظهر خادع أو ابتسامة مشرقة . .

إن هذا البيت صورة مصغرة من الحياة نفسها . . بهو واسع عامر بالأقنعة ، لكل من رواده قناع يستر به الغول القابع فى كيانه : فدعنى إذن آخذ بيدك فى هذا البهو ، وتخير منه نماذجك . . .

إليك هؤلاء النسوة الرشيقات الأنيقات العطرات ، قد برزن كالعرائس الخشبية التى تعيش دون أرواح ، بعيونهن الجوفاء الغارقة فى كحل صناعى . وشحوبهن الطباشيرى المروع ؛ وتلك الجروح الغائرة الحية المفتوحة فى وجوههن . . . ألسن جثثاً لها كل مظاهر الحياة ، هاربة من محلات الموتى لتغوى الأحياء وتضلهم وتضيعهم ؟ أى سحر شيطانى يشع منهن خاويات النفس خربات الروح ، باردات كالدمى العاجية ، مفزعات

ببشرتهن الشاحبة التى أضناها سهر الليل . بابتساماتهن الدموية التى يرسمنها على ثغورهن . برءوسهن الفارغة إلا من كل لغو باطل . . .

نعم أستطيع أن أحدثك فأطيل الحديث عن « ساحرات » العصر الحديث . . . لكن لنكتف الليلة بهذه الهيفاء التى أذهلك عن نفسك حسنها . . هذا بيتها وأولئك ضيوفها . . بأى مستور من أسرار الشهوة القطيعة تقود ذلك الثرى المعروف من أنفه وتمسكه من وسطه كما يمسك القرد وتنسيه زوجته الشابة وأطفاله الحسان ؟ بهذه الابتسامة العجوز المنداة بالدم ؟ بحدقتها البلورية ولونها الخزفى وأسنانها الصدفية ؟

إنها الآن فى تجربتها الرابعة الكبيرة : فعلى يديها وبفضلها انتقل إلى دار السلام ثلاثة أزواج كانوا ملء الدنيا صحة وعافية ، فأفرغت نخاع عظامهم واستلت موفور شبابهم ؛ ولبثت هى نضرة متوردة ، قد ورثت مع ثرواتهم صحتهم بعد أن أذابتهم كالشمع فى مخدعها الوردى . . . وهى الآن تعالج الرجل الرابع ، ولعله لا يزال يقاوم ، ولكن صدقنى إنه رجل هالك !

سيدة كل حفل وربة كل جمع : عطرها يضوع فى كل مسرح من مسارح الخلاعة ، وقدماها ترقصان فى كل ليلة رقصة الخطيئة . . حذار إن نادتك عيناها . . حذار إن همست إليك شفتاها . . حذار إن امتدت إليك يداها . . ضع كفيك على عينيك لا تشهد ، ضعهما على أذنيك لا تسمع ، ضعهما على قلبك لا يضل ولا يغوى !

سيقول لك الذين يعرفونها إنها فى الأربعين ، وتزعم هى أنها فى الخامسة والعشرين ، فلنقل إنها امرأة فى الثلاثين من عمرها الذى بدأ فى المجهول ويعلم الشيطان وحده أين ينتهى . . كان اسمها يوم ولدت « زهرة عبد الذكور » أما اليوم فهى الغانية الشهيرة المتألقة « سهير نبيل » . . وليست هى بالمرأة البارعة الجمال ولا هى بالألمعية الذكاء : لكن الحلاق

و« الماكيير » والخياطة — أولئك الذين يعدون أعظم فنانى العصر الحديث — يعرفون كيف يظهرونها فى أروع مظهر تطمع فيه غانية . . .

هى للجماهير ربة من الأرباب . وهى فى صميمها طبل أجوف ، خاوية خربة : ميتة العقل والقلب . تتكشف سوءاتها ونقائصها عندما تنضو عن كتفيها رداء المجد ، وينحسر عن محياها قناع الشهرة المتألق البراق . . .

الرجال عندها ليسوا رجالا ، بل مراحل الطريق إلى المجد !

كان أولهم فتى ريفيًّا من ذوى قرابتها فى البلدة التى نشأت فى دروبها على قسوة الحرمان . . وكان الثانى مفتش القطار الذى ركبته إلى القاهرة يوم هربت من القهوية ساعية وراء حلم غامض بالمال والنجاح . . وثالثهم صاحب أول بيت سكنته فى العاصمة . . ورابعهم أستاذها الذى دربها للمدينة وأعدها للأنوار والظلمات ، وهو صحفى تألق فترة من الزمان ثم خبا نجمه على يديها ، كأنما كان الشمعة التى احترقت لتضىء لها السبيل . . ثم انطلقت وحدها تفترس الرجال الواحد بعد الآخر كأنهم تلك الأحجار المرقومة التى توضع على جانبى الطرق الزراعية لتدل الناس على طول الطريق !

إنها تعرف كيف تختارهم من بين مشاهير رجال الصحافة والسينما والأدب . . ومع النجاح المطرد فى عالم السينما العجيب تغيرت معالم حياتها : فهى اليوم تربح الآلاف من الجنيهات وتطالع صورها الناس ويتردد اسمها على كل لسان . . وسهرات بيتها هذا حديث المدينة . . وانظر ! . . إن ملعب التنس عندها مساحته أكبر من قطعة الأرض التى يمتلكها أبوها عبد الذكور فى كفر أبو عساف . . وضيوفها الآن كما ترى هذا القطيع من أرباب العبقرية والمال والمخرجين والمنتجين والنقاد والأدباء ، وأزواجها السابقون ، واللاحقون بإذن الله . . . يحرقون من حولها البخور

ويتمتعون بها شاربة وضاحكة وراقصة ومبذولة . . وستنتهى أيها الصديق هذه السهرة وينصرف حملة الأقنعة إلى عالمهم ثم يطلع الفجر على أطلال ليلة : فيشهد الغانية وحدها ، قد جمدت كالتمثال وطال جمودها ، ثم تنفجر فجأة فى بكاء عصبى تتخلله التشنجات والرعشات ، والدنيا بكل ما فيها خالية من حولها وخاوية على عروشها . . وتفزعها فى الوحدة صورة حياتها الشوهاء . وتتبدى لها حقيقة نفسها ، مخلوقة صناعية كأهدابها وشعرها .

تمثال بارد لا حياة فيه ، أعرفه أنا كما أعرف بطانة قناعها . . عروس خشبية لها كل مظاهر الحياة . . دمية عاجية يعتصر قلبها البليد وسط صحرائها المخيفة الجرداء ، حزن لا تغسله أنهار الأرض كلها ، وكبرياء مرة ، وأنانية بشعة موحشة كصحراء من جليد . . وقلق على المستقبل . . الخوف من الغد هو قوتها اليومى . . ورداء المجد الفضفاض ثقيل على كتفيها الضعيفتين . إن مجدها ومضة عابرة . . لقد شهدت كثيرات من زميلاتها يهبطن بعد ارتفاع ، فإن الكواكب تسقط كالشهب المحترقة فى السماء إلى ليل العدم الأبدى . . وكن مثلها آلهة تعبد ، وتؤخذ لهن مئات الصور ، ويلهج الناس بأسمائهن ، ثم سحب الزمان عليهن ذيول النسيان . .

وتجلس وحدها ، متعبة مضناة ، منهكة البدن والأعصاب ، تفكر فى رقم تليفون رجل . . أى رجل !

لا مرح ولا غزل ولا هتاف ، معبودة ممزقة الأوصال ، إلهة ذات قلب ميت !

هيا بنا يا صديقى ، لقد أوشك أن يبزغ الفجر وآن لنا أن نودع ربة البيت ، ولا تنس قبل أن تمثل بين يديها قبل الرحيل أن تضع على

وجهك قناعك . فإنك والله أنت الآخر وإن كنت لا تدرى قناع بديع ! !

openeikandl.com

obeikandl.com

تركت صديقى المحامى غارقاً فى حديثه التليفونى الخافت مع فتاته ووقفت بعيداً عنه فى نافذة مكتبه المطلة على ميدان العتبة : أتأمل فى شيء من الشرود منظر الميدان فى مطلع المساء ، وقد ضجت فيه الحياة بصخب همجى مذهل ، من صياح الآلة والبشر ، وتعرت بلا حياء فى رقصة مضحكة عجيبة من حركة دائبة تبدو فى بلاهتها كأن لا هدف لها . كأن الميدان كله ، من فوق ، دست هائل يمور فى قاعه هلام حى كثيف ، بلا عقل ولا إرادة ولا جمال . . أى مسرح مخبول غاب عنه المخرج وجن فوقه الممثلون . . لنهرب من اللوحة العامة المثيرة : ولنأخذ فى مسقط العدسة عينات على حدة . .

هذا الرجل المندفع فى قلب الهلام الحى والذى يبدو أن وراءه الزمن الأبله الذى صدئت عقاربه .

أو هذا المتأنق كالبرعم المتحجر . يتسكع وراء ظهور النساء . .

أو هذه التى يبدو أنها توجه لتربية عجيزتها عناية خاصة . .

أو تلك التى تنادى على ورق اليانصيب ، وفى صوتها آية الكد المضنى ، ولكأنى أرى الأشواك ناتئة فى قفاها . . كل وحدة من هذه الوحدات البشرية دنيا وحياة وقصة . . وهذا الذى يصيح ملء حنجرته ونافوخه وهو يعدو من أول رصيف محطة الترام إلى آخره ، ومن آخره إلى أوله ، هو صديقى عبد العاطى سنبل عبد العاطى ، بائع الصحف المتنور . . ابن البلد الذى ألقى على مرة سؤالا لا أنساه : أى معنى تجلى لوالده غفر الله له يوم دعاه باسم جده ؟ وكأنه يسعده أن تتكرر دائماً فى التسلسل الوراثى للأسرة هذه النسخة التقليدية من صعلوك القاهرة

obeikandl.com

الضائع . . لقد تنكر عبد العاطى من زمن بعيد لاسمه وصار يدعى فى هذه الدنيا « زلطة » . .

وأنا رجل يعيش فى عالم خلقه لنفسه بنفسه ، لكن للدست المقعر الماثل نداء لا ريب فى قوته وهو يهز أحياناً أعماق النفس فيثير منها مكمن المشاركة الأصيلة ، وعندها تنساب الذات المستفردة كالبخار المنتشر فى ذلك المحيط المتلاطم من المشكلات والرؤوس البشرية . . وصديقى لا يزال يداعب صاحبته فى التليفون ، أما أنا فقد هبطت إلى الصراط الذى يعدو عليه « زلطة » مخترقاً بصوته قاع الدست . . إن عالمى الخاص الذى أعيش فيه مستقلا بفكرى وروحى عن عالم الآخرين لا يفصل حياتى ومشاعرى ورسالتى عن عالم الناس الزاخر بألوان الجهاد فى سبيل حياة أفضل ، ولا عن المعركة التى يخوضون غمارها .. وأنا الآن أسعى مع فرع من فروع التيار فى اتجاه شارع فؤاد ، بين ألف قناع وألف مشكلة وألف لغز . . لكن المرء يسعه أحياناً ، حتى فى خلال الوهلة القصيرة الأمد التى تلتقى فيها عينه فى الطريق بوجه أو نظرة ، أن يقرأ قصة أعوام من حياة إنسان . . وأمام الفترينات المضيئة تحس فجأة بكل روح العصر الذى نعيش فيه ، وربما ذكرت رقم المبلغ من المال الذى يقبع فى جيبك ، وذكرت جيوباً أخرى لا تنطوى على مال. وتسمع « بنية » سمراء حلوة تقول لأمها أمام فستان غال جميل « هاتيه لى وبلاش رأس البر السنة دى ياماما . . » وأنت لم تكن فى حاجة إلى هذه الهمسة المؤثرة لتدرك فى الزحام المتسكع أمام واجهات المتاجر الكبيرة أن النساء قد غلبن فى هذه الدنيا على أمر الرجال . . ما أكثرهن . . إن الثوب الذى غطت قيمته فى اعتبار إحداهن على رحلة الصيف هو حقًّا ثوب بديع ، قلت أمامه لنفسى ، أنا أيضاً ، إنه كان يسرنى أن أهديه إلى زوجتى لو أن لى زوجة . .

واستدرت لأتابع تسكعى وفى سمعى توسلات « البنية » إلى أمها

وشىء من العطف على رغبتها ، فلمحت عينى . ولما أكد أخطو ، صفحة وجه يمر بى . . إن الذاكرة مخزن عجيب . . شىء فى هذه اللحظة الخاطفة من وجه عابر يرسل فى الوعى سيالا غامضاً منبهاً يريد أن ينقض على أعماق المخزن المظلمة فينفض الظلمة عن ماض بعيد . . من تكون هذه المرأة النحيلة التى مرت بى منذ هنية ، فى الاتجاه الآخر . . أتراني عرفت يوماً ما : من لم يكن لها من هذا الوجه المضيء ولا هذا الضمور الشاحب الحزين إلا خطوطه الأولى النضرة ؟ . . وأين فى المكان والزمان عرفتها ؟ . . من تكون ؟ . . . ربما كنت ضحية إحساس خاطئ ، ولعل لمحة العين السريعة التى هزت ذكرى غامضة قابعة فى أغوارى هى التى خدعتنى . . وتلفت ورائى فلم أر إلا الخضم البشرى لاتبين فيه شبهة لذلك الثوب الرمادى السابغ الذى خيل إلى أن المرأة ترتديه ولا تلك الورقة البيضاء التى خيل إلى أنها تمسكها فى يدها . . لقد تاهت مرة أخرى فى الزحام وابتلعها الهلام المتحرك ، تلك الذرة الضائعة فى البيداء التى تسفو عليها رياح القرون .

زحام أمام فترينة كريستال وتحف رشيقة . . وهذه الأباجورة تصلح لغرفة النوم فى شقتى الجديدة التى لم يتم فرشها . . لكن الثمن ٢٢ جنيها . هؤلاء القوم لا يعبأون بأعصاب فقير يحب الأشياء الجميلة . . تلك المرأة . . من كانت ؟ . . إننى أعرفها . . إنها هنا فى أعماقى ولو تاهت من الوجود كله . . لكنها لا تريد أن تصحو من همودها فتتوضح معالمها وتكتسى وجوداً وتحمل اسما وتعيش فى نفسى كما عاشت مرة أولى . . إنها فى ذاتى وجدها ، تستطيع أن تعيش مرتين . . ولكنها لا تريد . . هوذا اسمها يتقفز على طرف لسانى . . اسمها . . ياسيدى مساء الخير وأهلا وسهلا وأذهب الآن فى حال سبيلك . . كلا . هذا المغفل الذى كان يوماً ما جاراً لأسرتى يصر على أن يكون السلام باليد ، وأن يسألنى عن إخوتى واحداً واحداً . . أوف . . أخيراً زالت الغمة ،

وانصرف ثقيل الظل بعد أن أنبأنى فى زهو أنه رزق بنتا ثالثة أسماها بكل كثافة روحه « فتكات » . . لكن ماذا كان اسم التى مرت بى فى لحظة فنادتنى أن أبعثها فى نفسى ؟

وفجأة توهج شعاع . . وتوضح فى ذاكرتى : أول كل شىء ما لم أكن أتوقع . . لا اسمها : ولا كيف كان عبورها فى حياتى وإنما هو صوت . . نعم صوت : . صوت أنثى تغنى . . صوتها هى سمعته بكل خصائصه ونبراته . . بل إن كلمات « الموال » الذى كانت تترنم به ارتسمت فى إحساسى المتجمع مضيئة بارزة : فى وضوح أوشك أن يكون — لفرط قوة تدفقه من الأغوار السحيقة أليماً . .

يابايع الدر فى سوق الزلط مسكين

تطلع عليك الكلاب تنبح شمال ويمين

يلقى الزلط مشترى . . والدر ياخده مين

نعم هى مديحة . . وارتد باب المخزن مفتوحاً فى ضربة واحدة ، ومن وراء الصوت تدفقت كل أجزاء الصورة هادرة متشابكة . . طوفان يرغى ويزبد منقضاً على الحواس كلها ، وعلى مناطق فى النفس لا اسم لها فى أية لغة . . الصالة ومسرحها . . الجمهور والليل . . التخت كله . . عوض « الرقاق » ودنجل صاحب الدربكة ، وسائر الموتى يبعثون . . ورفع إذن عن حياة بأسرها ستار ، وقامت ترقص الظلال ، واكتست الخطوط المنسية كياناً مادياً جديداً . . مديحة . ولم أعرفها . أيها الزمن الأبله كيف لا تعى ولا تنطق ، . كم غيرتها الدنيا ، فى سنوات . . كم سنة ؟ . . ثلاث عشرة سنة نعم ، هو هذا . . يوم كنت أقف وراء منظر ساذج فى الكواليس وأرقب الراقصات وهن يندفعن إلى المسرح فى موكب زاعق الألوان والعرى والعطور الرخيصة . . نعم . اسمك ياهذه مديحة . لكنك كنت راقصة صغيرة : وكنت تغنين

أحياناً وأنت ترقصين مع المجموعة فتردد النسوة غناءك . . كنت دون عامك الثامن عشر ، وها أنا ذا أراك الآن وقد بعثتك حية كما رأيتك ليلة أمسكت بطنك بين يديك وأنت تدخلين لاهثة شاحبة من المسرح إلى الكواليس ، وسط تهليل السكارى وصيحاتهم ، وقلت لى : « أصلى حبلى » .

أراك يا مديحة وهذا صوتك فى أذنى وأرى العرق يسيل تحت شفوف ثوب الرقص على فخذيك اللتين كانتا منذ هنية تثيران سعار الجنس فى قطيع المخمورين . . كنت نضرة وكنت جديدة على الوسط ، وكان لك شعر طويل يسترخى على ظهرك أو يثور على محياك فتبرق من خلاله عيناك البريئتان المذعورتان ، وأسمع صوت مدير المسرح وهو يتلقاك — فى تلك اللحظة التى أوجعك فيها الجنين — مؤنباً لك على ما خالفت به ساقاك فى الاستعراض سيقان زميلاتك ، كأن لهذا التزمت الفنى فى حيث كنت تعملين قيمة . . وأسمع ردك وإنه ليحز الآن فى قلبى كما حز فيه يوم قلته أول مرة : معلهش يا أستاذ شفيق ، دانا حبلى فى الشهر الرابع » . .

كان لك فى ذلك العهد إله وكان إلهك مدير المسرح الذى ينقدك أجرك ويملك فصلك ويتحكم فى يومك وغدك ، وكان فى أحشائك ذلك الثقل الحى الذى أودعه فيها أول رجل غشك وذهب عنك إلى حديث اختفى فى المجهول . . تلك الداهية التى احتملتها وأبيت إلا الصمود لها بكل ما فى ربيعك الغض من حيوية وطاقة مكافحة . . كم غنيت للقرش وكم تأود خصرك الموجع للعيون وعلى شفتيك ابتسامة ، ثم تهاويت متخذة من راحتيك المتشنجتين حزاماً لبطنك الموجوع بحمله ، وكم سمعتك عندها تسبين وأنت تضحكين ذلك الجنين التعس : « آه يا ابن الحربنجى الغشاش ، ياما أنت راخر حاتوريني » .

أنت أنت يامديحة صرت شبحاً يمر بى فى الشارع فلا أعرفه . .

أنت هذا الشبح المنطفئ الواهن الذى عبر منذ قليل فى طريقى . . لم تعودى إذن تلك العملاقة من عمالقة الوجود الدائبة على عملها فى يأس مرح ، يوم كنت راقصة بلا أم ولا حبيب . . البروفة فى الظهر ، والسهرة فى الليل . والكأس والأرق والرجل . . لم يعد فى وسعك إذن أن تمكرى بمخمور شهوان تضاحكينه فى ملاينة ، وتفرشين لتوقحه جناح أنوثتك ، حتى إذا ما نلت كفايتك من وجبة عشاء وعمولة شراب زرعته فى مكانه وهربت بحملك المسكين إلى المسكن الصغير الذى هب بذوره الآن يعيش فى نفسى . . المسكن الضائع فى قلب شبرا ، حيث كانت تعايشك زميلتك السمراء ذات الأرداف الثقيلة . . ماذا كان اسمها . . لست أدرى ليس لها عندى اسم ، وكان فى نفسها هى أيضاً جمال من ذلك الطراز الأصيل الذى يخلعه الكفاح على المرأة فى سوق الحياة . . وكانت تحبك ، وكل زميلاتك أحببنك وعطفن على حالك ، وكن يحصين الأسابيع فى انتظار مولد الطفل ، ويفتحن الكتشينة عن البخت ليقرأن مصير ابن مديحة فى الدنيا . .

الآن أذكر اسمها ، زميلتك السمراء . . حورية . . وأذكر جلستها فى الكواليس بين فترات الظهور على المسرح ، وقد وضعت ساقاً عارية على ساق عارية ، وعلى كتفيها شالها الأحمر ذو النجوم الصفراء الدقيقة ، كأنه سماء تحجرت نجومها على أديم من الدم ، وفى يديها إبرتا « التريكو » الطويلتان تعد بهما جهازاً كاملا من ملابس الأطفال . . ثم ترفع رأسها وهى تتمايل طرباً عندما يهز صوتك أعماقها ، ولا تبالى أن تصيح لتسمعك على المسرح : « الله يا روحى أنا . . كمان والنبى ياحبة عينى على بياعين الزلط . . »

وجاء فتلقفته الأذرع العارية وحنت عليه النفوس التى بلت العيش فأضافت تجاربه إلى آفاقها المحدودة أعماقاً من الحس وراء أعماق ... أذكر مهدك فى غرفة الراقصات يا ممدوح . . لقد نموت فى عالمك المكنون

وأمك تزاول العيش على خشبة الرقص وبين موائد السكارى ، ثم جئت إلى الدنيا فإذا مهدك هناك فى الركن حيث وضعت لك الأيدى الرقيقة تلك السلة من سلال الغسيل المجدولة فوق كرسى عتيق إلى جوار مرآة الزينة . . كانت مديحة تحملك إلى الصالة كل مساء ، ثم تعود بك قبيل الفجر إلى المأوي الضئيل فى مجاهل حى شبرا الكالحة : حانية عليك وهى تضمك تحت معطفها إلى صدرها الدافئ الذى يتحلب لك من الحب رياً وزاداً . . والأيدى الناعمة التى لم تعرف منذ هوت إلى قاع الدست المخبول غير قرع الكئوس وإشباع الشهوات صارت ترتجل لك الأغانى وتغدق عليك مكبوت الفطرة السخى وتصنع لك مع رحمة الحب لعباً لا تعيها وملابس من كل نوع ومن كل لون . . وكنت تبتسم لى يا بن مديحة كلما دخلت عليك الركن وحنوت على مهدك ، فأقرأ فى ابتساماتك ثمار الخيبة ورنين الأصفاد وأرى النعش الذى ولدت تحمله على كتفيك وكل شقوة الحياة التى لا تدرى فى غفلتك من أمرها شيئاً . . ثم يبلغنا — أنت وأنا — زئير الجمهور وهو يحيي أمك إذ تنهى على المسرح أغنية أو رقصة ، ولا نلبث أن نراها تقتحم علينا ركنك ، محلولة الشعر عارية إلا من غلائلها وجداول العرق تنساب على فخذيها وحول سرتها العارية كالثعابين الرطبة اللزجة . . وأسمعها تناجيك فى دفء الأزل الذى يرتعد له بدنى : « يا روحى يا دوحة ! ماما سابتك جعان . . يقطعنى ياحبيبى . . وتضغط بيديها معاً أحد نهديها فتخلصه من سجنه الحريرى الشفاف ، وتنحنى فوقك بتلك الكرة البلورية الدافئة ذات العروق السخية والثغر الظمآن إلى شفتيك ، فلا جلال فوق جلالها ، وهى تهدهدك وترضعك أمك العارية . .

* * *

حدود تسكعى الآن هى رصيفا شارع قصر النيل ، من عند مسجد الكخيا إلى الميدان الذى يتوسطه تمثال رجل يخب فى سروال

مضحك . . إننى أتمنى الآن أن ألتى مديحة فى هذا الزحام مرة أخرى . وأتمنى ذلك بجماع إرادتى وقوة نفسى . . وتزعجنى تحية سريعة من زميل صحفى يتسكع بدوره وعينه تصنع لكل امرأة جميلة تمر به مقايسة تغفرها له كهولته . . إن فى حياة مديحة أيضاً صحفياً هو الآن ميت فى الموتى ، ولم يلمع قط . . وكان « عامر » عندما عرفها صحفياً ناشئاً فى أول الشباب ، وقد أحب تلك الأم — الصغيرة الراقصة ، ووجدت أمومتها فى شخصه سكناً طيباً . . وأخذت مديحة يومها رأيى فيما عرضه عليها باسم العطف و الحب ، وكنت الصديق الذى زارهما فى بيته بشارع جلال ليلة انتقلت إليه بابنها وبحياتها كلها ورجائها الباقى فى قوة مجهولة ترعاها وصار « عامر » يقضى نهاره فى كفاحه الصحفى أو ينفقه فى بعض الأحيان متردداً على المسارح الصغيرة والمغنيات الناشئات ليبيع أغنية من تأليفه ، فقد كان زجالا أيضاً ، أو كان يحاول أن يكون كذلك . . ثم ينطلق مع الليل إلى الصالة التى تعمل بها رفيقته ، فينتظرها فى صبر مهذب حتى ينفض السامر فيعود بها وبممدوح الصغير إلى العش . . منحها نفساً طيبة فمنحته ودها ووفاءها وكل أنوثتها الصريحة العاقلة . . وكان يحدثنى عنها وكان فى حديثه إعجاب ذكى بروح الكفاح والتعفف التى تكشف له عنها شخص مديحة . . وأعتقد أن كثيراً من المعانى التى كانت تتردد فيما كتبه لها من مواويل وأغنيات كانت من وحيها . .

كانت هذه مديحة التى عرفتها فى ماض يبدو لى الآن بعيداً كل البعد فى قاع بئر الزمن العميقة . . عرفتها ورأيتها حتى وهى تغسل ملابس ابنها الصغير فى بيتها عرفتها وكنت لها صديقاً ثم غابت فى زحمة الدنيا ولم أعثر لها على أثر عند عودتى من رحلة طويلة فى الخارج ، فقد مات صاحبها فى حادث واختفت هى من « الوسط » وضاعت مع ابنها فى الدست الهائل الذى تغلى فيه حياة الأحياء قبل أن

تتلقفهم مهزلة الموت المحتومة . . والليلة وبعد كل هذه السنين مرت بى الصديقة القديمة فلم تهش لها نفسى ولم تنبسط لها يدى . . والمرارة الموجعة التى انسابت فى نفسى كاد ينشق عنها حلقى فى صيحة ممزقة أو تنبثق من عينى دمعة خرساء . .

وإذا بها خارجة من صيدلية وفى يدها ربطة صغيرة . .

— مديحة . .

وقفت المرأة المهزولة ذات الثوب الرمادى الرصين ونظرت إلى هذا الرجل الذى يناديها باسمها وتجلى فى نظرتها أنها تنكره . . فندت عن نفسى ضحكة ترثى لنا ، وهمست فى وجهها والناس يمر بنا موكبهم فى كل اتجاه :

— « ياقى الزلط مشترى . . والدر ياخده مين . . »

وإن هى إلا لحظات جاشت فيها نفسانا بانفعال اللقاء الغريب حتى كنت قد ملت بها إلى ركن هادئ قريب أرى فيه الدنيا فى شخصها . . . أمامى مخلوقة أخرى من هزال ورقة حال كأنما لم تعش فى هذا الهيكل الناحل الذى تقتحمه العين تلك التى رقصت فى نضارة العمر على دربكة دنجل واشتهاها ، من وراء خصلات شعرها المنثور على وجهها وجسدها ، مواكب القطعان المخمورة . .

تحدثنا طويلا ، وعميقاً ، وبكينا بلا دموع . .

— الربطة دى ؟ . . دوا لممدوح ياخويا . . دوحة عيان أوى . .

— سلامته يامديحة . . عنده إيه ؟ . .

— خاسس أوى . . وحرارته جامدة . . وبيكح ومسهرنى الليل . . بيكح أوى . .

وتكلمت مديحة . . سمعت الكثير عما بلته فى دوامة الحياة خلال

كل تلك الأعوام التى انقطعت عنى فيها أخبارها . . عرفت كيف أبت أن تنقع أمومتها فى خضم الدنايا الذى يشيع فيه الزلط ، ويرخص الدر ، وكيف تهاوى عالمها وانحصر ، وكيف هانت وذلت فى بعض الأحيان كبرياؤها . . وحاولت أن أتخيل غلاماً عليلا فى عامه الرابع عشر ، وأن أصعد معه الأعوام فى مراقى السن أو أنحدر معه الدركات فى مهاوى المصير : منذ كان يرقد كالأمير فى سلة المهد وتلتف به حاشية من راقصات عاريات كالجوارى . يتغنين له أعذب أصواتهن ، وينحنين على مهده فيغدقن عليه من أنوثتهن ، ويصحو وينام على أذرعتهن الشابة المعطرة وابتساماتهن المصبوغة الناطقة بالحب . . وصحت فى نفسى وأنا أسأل مديحة عن عنوانها الجديدة بضعة أخرى من حياتنا الأولى : ليلة « السبوع » العجيبة التى أقمناها للمولود بعد انتهاء العمل فى الصالة ، على المسرح المضىء وحده فى صالة غارقة بمقاعدها وموائدها فى ظلمة أسيفة شاخصة . . على كل هذا الماضى مرت الحياة بعجلاتها الساحقة وعربدت دوامتها النزقة . . هى ذى شاحبة ومنبوذة ، ورجاؤها الباقى من كل ماعاشت هو أيضاً عليل ، والموكب الأصم الأبكم قد تركها تهوى إلى القاع ، وهى قد هوت دون أن تند عنها صرخة ، هى التى كانت الحياة عندها قبل أن تبلغ العشرين شيئاً واحداً هو أن ترفع رأسها وترقص وتربى ابنها وتخلق منه رجلا نافعاً ومحترماً .

إن الليلة التى بدأت فى نافذة مكتب صديقى المحامى قد انتهت إلى حجرة زرية تمرض فيها امرأة مستوحدة وحيدها الذى يأتمر به الموت ، وإن الابتسامة المريضة التى تقبل بها الولد هداياى لتنسخ من الوجود كل ابتسامة رأيتها فى الزمن القديم على وجه أمه . . فلما دق الباب دقة نكست لها الأم رأسها وقالت قولا أحسبها أجابت به عن تساؤلى الصامت عن مصدر النقود التى تعيش عليها وتحصل بها على الدواء : إنها هى نفسها

كما أرى لم تعد كأنثى تصلح للبيع ، لكن جماعة الرجال المحدودة التى تقبل على بيتها كل ليلة لتدخين الحشيش عندها قد أقبلت الساعة على عادتها بالعشاء ، والمزاج و . . بعض النساء . . .

عندها رن فى وجودى كله صوت عبد العاطى بائع الصحف إذ يتقبل ببشاشته المعهودة تحيتى وسؤالى عن الحال قائلا لى فى مرح أسيف :
« ياسيدى ! . . زلطة فى سوق الزلط . . وآهو ماشى الحال ! ! . . »

الصعاليك

obeikandl.com

كان الجوع أهون ما يلقاه « عباس » من دنياه ، لكن ضحكته العالية المعدية كانت تشرق على الوسط الفنى كله ، وما كنت لتجد بين أهل الفن الذين يعج بهم عماد الدين وملحقاته من هو أجدر من عباس بصفة الفن الخالدة .

وقد كنت ألقاه فى قهوة أهل الفن حيث كانت توافيه صاحبته « فتحية رومبا » بعد أن تفرغ من عملها فى « الصالة » . . شابة ذكية لطيفة كانت معروفة ببهاء طلعتها وخفة روحها ، ثم تدور حولهما حلقة غريبة من شباب أهل الفن فلا يلبث ذلك المشرب العجوز أن ينقلب إلى مسرح من مسارح البوهيمية ، يتصدره دائماً وجه عباس الشاحب وشعره المهوش وضحكته الفذة وصوته المسرحى العريض وسترته المهدلة العتيقة وربطة عنقه الضخمة السوداء .

وكانت القصائد السخيفة التى ينظمها أحد أفراد هذه العصبة العجيبة — الأستاذ « عبد السلام وهبى » — تكاد تدفعنى فى بعض الأحيان إلى ضربه . . وحتى « زينات » ، الغانية التى كان ذلك الشاعر يعيش من « كدها » والتى كان هو يدعوها ربة الشعر وسيدة الوحى ، لم يكن يبدو عليها أنها تفهمه لكنها كانت تحبه وتنفق عليه وتقول :

— لولا شعره لعبدته !

وهذه العصبة من حطام الحياة الفنية التى تحيا حياة مرحة راضية ، هى بعينها التى أقبلت عليها ذات ليلة فإذا هى شقية واجمة ساخطة . . وكانت « ربة الشعر » أول من لقينى على باب المشرب ، فما كادت ترانى حتى هتفت بى :

ـــ جئت فى وقتك . . إن صاحبك فى شر حالاته .

فبادرت بالدخول ، ووجدت صديقى عباس فى ركنه المشهور ، وحيداً وأمامه كأس « الزبيب » وأطباق سلطة الطحينة والحمص والفول النابت ، وعلى محياه فيض من الأسى والألم ينم عن حزن فادح يأكل قلبه . . فأدركت أن نكبة حلت بصاحبى ، فما يطير بابتسامته الخالدة ، التى لم يطر بها البؤس والصعلكة ، غير نكبة داهمة . .

وتوقعت أن تكون صاحبته قد هجرته ، فقد كانت فى العهد الأخير شديدة السخط على حياتها معه . .

وكان ذلك هو ما حدث فقد طارت صاحبته من عشه إلى حيث لا يعلم ، وقد قص على قصة هذه القطيعة وهو يعب فى خمر قهوة أهل الفن المريبة ويدق المائدة فى انفعال عصبى مزعج بكفه البيضاء ذات الأنامل القذرة البديعة !

وواسيت صديقى ما استطعت ، ولكنه كان يهتف بى :

ـــ إنها عشرة سنين ، أصبحت أكبر عاداتى . . والعيش بدونها ساعة واحدة يكاد يكون أمراً مستحيلا . . ولست أدرى لم كرهت أخيراً العيش معى . . . أقبلت ليلة الأمس تصرخ فى وجهى أنى أفسدت عليها حياتها إذ زينت لها دائماً هذه الحياة وأحطتها بهالة كاذبة من نور المجد وقداسة الفن ، وأنها تعرف الآن أنى خدعتها عن نفسها ، وأنها ذاهبة عنى إلى رجل غنى كريم ينتظرها ليمنحها الأمن والخفض والدعة . . وقلت لها : إنك إنما نشأت بين أحضان البساطة والفاقة التى تطبع حياة أصحاب الخلق الطليق ورواد الفن الحر والحظ السيئ ، والبوهيمية مختلطة بدمك وروحك ولا مفر لك منها . .

وسكت صديقى لحظة . ثم استطرد فى صوت يختلج بالألم المكبوت :

ـــ وجعلت أحدثها متلطفاً مداعباً عن جلال هذه الحياة وسحرها ،

obeikandl.com

وعن « الرسالة » التى حملناها نحن معشر البوهيميين والأحرار من أبناء الفن فى هذه الأرض الملعونة الموبوءة بالذهب والفضة ، وسألتها مخلصاً أن تفىء إلى نفسها وتدع البطر فما أفسد شىء حياة أهل الفن إفساده لها . . وسمعتنى صامتة ، ثم مضت إلى الباب ، فتركتها تفعل — فما كان ليربطها بى فى رأيى غير حبها لى — ثم إنها عادت أيها الصديق فأخذتنى بين ذراعيها وهى تنشج بالبكاء ورونتنى من شفتيها قبل أن تخرج وحدها إلى الدنيا . . . إلى حيث لا أدرى . .

* * *

ومر أسبوع شغلتنى فيه أعمالى عن مأساة عباس وعن قهوة أهل الفن ، ثم عدت إلى القاهرة ذات مساء فكان أول ما سمعت فى عماد الدين أن عبد السلام الشاعر قد جن . . فهرعت إلى قهوة أهل الفن ، وإذا أول ما يلقانى منها صوت عباس يطلق ضحكاته العريضة المشهورة ، ولقينى بالعناق ، وجعل يدور بى بين الموائد راقصاً . .

قلت أنت الذى جن أم عبد السلام ؟

فقادنى من يدى إلى الركن ونظرت فإذا « فتحية روبيا » قابعة حيث اعتادت أن تقبع من مائدة عباس ، ولقيتنى بكف صديقة وهى تشد على يدى هاتفة :

— انظر لقد عدت إليه تائبة نادمة مستغفرة لذنبى .

وقلت لعباس : ولكن . . عبد السلام ؟

فصاح بى : دعك منه . . هات واحد ويسكى للأستاذ يامانولى .

قلت : لا يا عباس . . إنما أريد قصة عبد السلام . .

قال : أكنت تنتظر له غير هذا المصير ؟

فدفعته إلى المائدة هاتفاً به :

— اجلس ياصاحبى ، واهدأ ، وهات القصة بتمامها .

قال عباس بعد أن طلب لنفسه كأساً أخرى من « الزبيب » :

ـ كانت « زينات » يوم عرفت « عبد السلام » ذارعة رصيف لم تشتغل بعد بالرقص فى الصالات . . وقد التقى بها فى ليلة لم يكن ذاق فيها طعاماً ، فاشترت له رغيفاً من الخبز وقطعة من الجبن ازدردهما إلى جانبها على الرصيف ، تحت أحد مصابيح الشارع . . . ثم غادرها دون أن يشكرها ، فقد شبع وجعل يفكر فى نظم قصيدة عصماء فى غرفته الحقيرة بفندقه بالحى الحسينى . . ولكن صاحب الفندق ـ وكان قد ضاق بهذا النزيل المفلس ـ طرده شرطردة ، فخرج ، قبيل الفجر ، يبحث عن مأوى . . وبينما كان يجول فى الشوارع هائماً على وجهه لقى التى أطعمته من جوع تذرع الأرصفة فى انتظار الرزق . . فتفتحت فى قلبه المنحط رغبة سافلة فى أن يصاحبها إلى بيتها . . وهناك قضى النهار كله نائماً ، وعندما أقبل الليل خرج إلى جولاته الليلية فى المقاهى والبارات بعد أن حمل القليل من المال الذى كان معها . . وما لبث الشاعر العظيم أن اعتاد هذا اللون من العيش ، واعتادته معه ضحيته زينات .

وأتمت فتحية حديث صاحبها :

ـ لقد كان نذلا عظيما ، عليه اللعنة .. وكان ، فى العهد الأخير ، يضربها ويسىء إليها سراً وعلانية مع أنها كانت مورد رزقه الوحيد ، وكان ينظم لها بنفسه الصيد ، وقد أعانها فى بعض الليالى ـ بمساعدة بعض العربجية الذين غدوا أصحابه ـ على سرقة نقود الزبائن السكارى من جنود الحلفاء . . وهذه المرأة هى التى كان جزاؤها أن ضربها عبد السلام فى مسكنها بشارع جلال ضرباً مبرحاً قبل أن يغادرها إلى غير رجعة . .

قلت : إنى لا أفهم : لماذا غادرها عبد السلام ؟

فصاحت فتحية :

ـ لأنه مجنون ! !

قلت : وكيف عرفتم جنونه ؟

فارتفعت صيحة عالية مشتركة من أطراف قهوة أهل الفن :

– إن رجلا يهجر زينات الجميلة وما تدره من ذهب . . لهو مجنون لا ريب فى جنونه ! !

وصاح ممثل خامل مهوش الشعر من وراء كوب النبيذ الأحمر الذى يهتز فى يده :

– كلنا عرفنا ، يوم هجر زينات ، أنه مجنون . . . ولم يصدقنا هو فى مبدأ الأمر ، ولكنه انتهى هو أيضاً – أمام إجماع الوسط الفنى كله – إلى الإيمان بتلك الحقيقة التى لا يرقى إليها الشك !

ومالت فتحية على يد عباس فقبلت أطراف أنامله القذرة البديعة ومسحت فى راحته خدها ، وهمست :

– ما أعقلنا نحن ياحبيبى !

oopeikandi.com

obeikandl.com

يقول مثل إيطالى : « حيث يوجد النور ، توجد المسرة » .
وأنا أنوى الليلة يا أصدقائى أن أحدثكم عن قصة زينب ، وما أدرى لم ذكرت هذا المثل حين انتويت أن أقص عليكم هذا الحادث المشجى .

لقد دارت حياة زينب فى ظلمات حياة قصيرة ، ولكن فى هذه الظلمات شمعتين أوقدتهما يد رجل واحد ، شمعة أضيئت ليلة دب إلى زينب سيدها دبيب اللص الحسيس فعلمها القبلة والهوى ونعم بحسنها وشبابها ، وشمعة أوقدت ليلة ودعت الحياة والشباب . . كلتا الشمعتين أوقدتهما يد رجل واحد ؛ كان سلطان الحياة والموت فى عمر زينب ؛ وهو اليوم يشغل منصباً خطيراً من مناصب الدولة ، ولندعه الليلة « أحمد عبد البارى » .

وفى تلك الأيام البعيدة التى أحدثكم عنها ، وحتى الآن وإلى ما شاء الله يمكن أن نعتبر أحمد عبد البارى نموذجاً للرجل الذى تكون المرأة أساس حركاته وسكناته وهدف حياته وشغل ليله ونهاره . وقد قضى فى المدارس ما يزيد على خمسة عشر عاماً فانزلق كل ما تلقاه من علم وتهذيب وثقافة على طبيعته الحيوانية كما ينزلق الزئبق على صفحة من الورق ، فخرج من هذا العمر الطويل ولم يبق منه فى تكوينه العقلى والخلقى إلا التافه القليل .

وقد عرفته فى أسيوط ، منذ أكثر من عشرين عاماً ، فعرفت فيه ذلك « الحيوان الكامل » المتمتع بخصائص الأنانية والبلادة والخمول الذهنى ، والمبادرة إلى اللذة العاجلة فى اندفاع السمكة الحمقاء إلى الطعم . . .

وقد شكا إلى لأول عهدى بمعرفته عمله المضنى ومالمه المرهق ونومه المضطرب ، وكان حديث العهد بالوظيفة وبأسيوط ، وكان أحب شيء أن نخوض بمسمع منه فى سيرة النساء ، وكثيراً ما سمعناه يسأل :

ــ عجباً لهذه المدينة هل خلت من النساء ؟ !

كانت المرأة غذاء يقظته وقوت أحلامه ، يتمثلها فى حمى الحرمان كأنما هى طيف من العطر والنور والدفء يزور الناس ولا يزوره ، وربما سمع ضحكة ناعمة من وراء نافذته فأرقته فى مضجعه حتى مطلع الفجر ، وربما مرت على طريقه ملاءة سوداء ملفوفة على بدن ضامر مشدود فشدت وراءها أعصابه شداً يكاد يدفع به إلى الجنون . .

ومضت بضعة شهور كان أحمد عبد البارى خلالها موضع تسليتنا وتندرنا ، ثم فوجئنا بانقلاب غريب طرأ على شخصيته ، فقد شهدناه مرحاً مشرقاً لا يتحدث عن النساء ، وبدا عليه أنه قد أوتى سكينة النفس من حيث لا ندرى ، فأردت أن أقع على سره ، فوقعت على مأساة زينب .

* * *

وكان أحمد عبد البارى قد حدثنى ذات مرة عن الأيام التى سبقت سفره إلينا من قريته البعيدة ، وذكر لى عرضاً أنه جاء من هناك بخادم صغيرة ، وأنه يحس الكثير من الضيق والحرج لوجود هذه « الجاسوسة » معه فهى لن تتردد فى الوشاية به عند أهله إذا ما اطلعت على غرامياته المقبلة ، وكانت تتمثل له عقبة سخيفة فى سبيل تمتعه بالنساء الجميلات اللاتى كان يدبر فى خياله الخصب المهتاج قصص غرامهن المنتظر به وفى كل غرام جديد منتظر كان خياله يرسم له خطة بديعة لخداع خادمته زينب .

وقد علمت فيما بعد أن زينب كانت تمت إليه فى الحقيقة بقرابة بعيدة غامضة ، وأحسبها كانت فى السادسة عشرة من عمرها ، على حين

كان هو يكبرها على الأقل بعشرة أعوام . .

عمل ممل رتيب ، وحرمان طاغ مستبد ، ورجل هدفه المرأة ، وفتاة صغيرة ساذجة من أقصى الريف ، كأنها رسالة لم تفض !

والذين خبروا النفس البشرية منكم يعرفون ولا ريب تلك الطرق الملتوية التي تلجأ إليها النفس للانحراف من هدف إلى هدف بقصد التكميل أو التعويض أو العزاء عما فات أو مالا سبيل إليه .

وقد كان أحمد عبد البارى صاحب نفس بدائية باطشة ، وعندما أعياه انتظار الأحلام ولم تفده الحيلة واستبد به طبعه الحيوانى ، وجد نفسه يكف من تلقاء ذاته عن اضطهاد خادمته الصغيرة ، ولم تعد تثيره بلادتها وبدائتها وجهلها وقذارتها ، ولم يعد يؤذى سمعه حديثها فالتفت إليها على غير وعى منه ، وعلى مدى شهور لا أيام . .

وجد نفسه يشترى لها ثياباً جديدة ، وحلياً رخيصة براقة ، ويعلمها النظافة والتجميل ، ويدللها ويلاطفها ، وبعد أن كانت تنام فى المطبخ على حصيرة رق لها قلبه فأصبحت تنام فوق فرو جديد على أرض مخدعه أمام سريره . .

ثم أقبلت الليلة التى عاد فيها من المقهى فوجد مسكنه غارقاً فى الظلمات ، وعلم من زينب وهى تفتح له الباب أن التيار الكهربائى قد قطع عن الحى كله منذ قليل فأعطاها قرشاً لتشترى شمعة ، وعندما عادت بها وأوقدها وسقط نورها على محيا زينب وبدنها رقصت دماء أحمد فى عروقه ، فقد بدت له خادمته الصغيرة فى ذلك النور الخافت كأنها امرأة جديدة تولد من نور شمعة ، وتألقت بشرتها السمراء تحت ومضات النور كأنها النبيذ وراء البلور ، فتناولها بين يديه وقبلها ، وطمأنها لما بكت ومناها . . . ومن ذلك اليوم أصبحت تنام معه فى فراشه ، وتأكل من طعامه ، وتشرب من شرابه ، وتشغل منه ليله ونهاره .

كان كأنما صنعها بيديه ، وبث فيها من روحه ، فكان سيدها وأستاذها ومولاها . .

وكشفت له زينب في كل يوم عن حسن جديد ، كأنما كانت ، وحدها ، امرأة لكل يوم . . وشهدتها عينه التي لم تشهد امرأة مليحة سمراء ، وعندما ألبسها الحرير وعطرها وضمخها بفنه الشهواني الأصيل ، تبدت له تحفة يهيم بها القلب ويعلق بها الخاطر ونسي نساء الأحلام ، فلم تعد أطيافهن تراوده في يقظة أو في منام ، ولم يعد يحدثنا عنهن متى لقينا ، وطالعنا منه في مجالسنا رجل سعيد يتفجر من أعطافه المرح والرضا عن نفسه وعن الناس .

* * *

ويعلم الله وحده كيف كان عيشهما ، أما أنا فأعلم أنه لم يذق — خلال عامين — غير هذا الطعام . أصبحت زينب كل النساء ، كفته خيرهن وشرهن . . كانت تحرم عليه النوافذ فلا يقربها وتسأله عن وقته في الخارج كيف يقضيه ، وكانت عيشتها ، مثل علاقتهما يخيم عليها الصمت والهدوء . .

ثم سمعت أن أحمد قد خطب لنفسه ابنة رئيسه . .

وتساءلت عما هو صانع بزينب وقد جعل منها امرأة ذات قلب ورغبات ، ولو لقيته في ذلك العهد لنصحته أن يجعل منها زوجته . . .

ولكنه لم يفعل ، بل أقبل عليها يوماً فحدثها عن « عبد الستار أفندي » الباشكاتب ، وأبلغها أنه دعاه إلى تناول العشاء على مائدته في إحدى الليالي ، وقال لها إنه ينتظر منها أن تعد للضيف الكريم خير ما جادت به مواهبها في فن الطهي من ألوان الطعام . .

وفي اليوم التالي قال لها إن الباشكاتب لن يحضر وحده ، إذ أن السيدة حرمه تعطفت وقبلت الدعوة . .

وبعد يوم آخر حدثها عن تواضع الباشكاتب ودماثة خلق حرمه

وكيف قررا أن يحضرا معهما بناتهما الثلاث ليحضرن وليمة العشاء . .

* * *

وفى تلك الليلة كان الحديث حول مائدة أحمد عبد البارى يدور مرحاً مشرقاً . حول كبرى بنات الباشكاتب ، وكانت جالسة عن يمين أحمد : متوردة الوجنات مطرقة فى خجل مصنوع ، ووالدتها وشقيقتاها يحادثنها بنكاتهن وعبثهن . . ولكن أحمد كان بادى القلق متوتر الأعصاب وكان يحاول كلما أوشك الحديث أن يخرج من التلميح إلى التصريح ، أن يغير مجراه ، وربما صرف زينب المشرفة على الخدمة ، وقلبه يدق بين ضلوعه ، فقد كان يحس أنه جالس على قمة بركان لا يدرى متى ينفث حممه !

وقد قيل إن التيار الكهربائى انقطع فجأة من مسكن أحمد عبد البارى قبل أن يفرغ ضيوفه من تناول العشاء ، فأسرع إلى المطبخ ليجلب الشموع التى كانت هناك على الرف . .

وأشعل واحدة من تلك الشموع ونادى زينب فلم تجب نداءه ، ومرت بخاطره — كلمحة البرق — ذكرى تلك الليلة القديمة التى اكتشف فيها أنوثة زينب فى ضوء شمعة . . .

ونظر عرضاً ليرى مكان زينب فصدمه منظر لم يفهمه عندما وقع عليه بصره . . ثم أطلق صرخة مروعة فهرع إليه ضيوفه ليشهدوا زينب معلقة من عنقها فى حبل متدل من سلم خشبى وقد برزت عيناها وتدلى لسانها . . . طويلا . . فظيعاً . . صامتا كل الصمت .

obeikandl.com

كانت المدينة أجمل مدائن البشر : شادها أهلها بأشد أنواع المرمر بياضاً وأقوى ألوان الرذائل رسوخاً على الزمن : ورفعوا بيوتها عند سفح الجبل على الترف الداعر وعلى عمد مرمرية ضخمة عالية مرصعة بالزمرد والياقوت ، وعلاها قباب تتلألأ أنوارها وتنعكس على صفحة البحر القريب . . وكانت تصطخب فى بيوتها الأنيقة الدافئة إذا كان الشتاء ، الرطبة إذا كان الصيف : حياة رفيعة مترفة يتردد صداها فى شوارعها الجميلة العريضة . . وكان لى فى المدينة ، وفى شارع من أكبر شوارعها ، بيت من أجمل بيوتها : يقوم على بساط فردوسى من الجمال الأخضر . . وكنت عندما أزفت الآزفة جالساً عند النافورة المرمرية فى حديقتى أتسمع خريرمائها الفضى الضاحك ، وكانت ليلة تسير فيها الحياة على الأرض فى سبيلها المألوف ناعمة البال ، وتتلألأ فى السماء ملايين الأكوان كأنها حبات الماس منثورة على المخمل الأسود . . ليلة ينفى جمالها ذكر الموت أن يخطر ببال . .

ولست أذكر تماماً كيف وقعت الواقعة ، فإن للأحلام منطقها الخاص ، وهو منطق علمتنى اليقظة أن أكن له من الاحترام أوفى نصيب . . .

أقبلت من رحاب الفضاء أجرام مندفعة هادرة تنفث النار وقد توسطها وقادها نجم كأنه وهو يقترب من الأرض ، هول متوهج فى السماء ، وفى سعيره المنطلق زرقة توشى حواشيها صفرة . . وكأنما كان هذا النجم الثاقب يقصد هذه المدينة وحدها ، فهو موكل بأهلها ، فلم يلبث

أن صار فى سمائنا يشق الظلماء نحو أرضنا وله هسيس تنخلع له القلوب . . وإذا الأشجار من حولى تحصدها الحرارة التى تتقدم النجم فى مسراه ، وأحالت الخضرة الفردوسية فى حديقتى وحدائق جيرانى رماداً أسود كريهاً ، ورفعت بصرى إلى الجبل الذى طالما رد عن مدينتنا صروف الدهر فإذا صخوره المعمرة تذوب وتتدفق حصى وتراباً فى مسارب الجبل نحو المدينة لا يصدها شىء . . .

وكانت تلك بداية النهاية ، فقد صدم النجم الأرض غير بعيد من قصر سيد المدينة — و بينه وبين بيتى مائة بيت وبيت . . وبدا لى أنى لا محالة ميت ، وأنه يوم الساعة والدنيا تبيد . .

وانطلق فى الفضاء ، حيث سقط النجم ، عمود من النور كأنه سحابة قرمزية ، وبلغت الحرارة من الشدة مبلغاً جعلنى أحس أن شرايينى توشك أن تنفجر . . وتناوشتنى زوابع ضارية عاتية ، وفارت المياه تحت قدمى من شقوق الأرض ، وحملت الرياح الهوج سقف بيتى لتلهو به فوق أعالى الشجر ، وطارت فى الجو بيوت كم أنفق أهلها فى بنائها وزخرفتها واختفت بما فيها مصعدة فى سماء جن جنونها ، وعلا عزيف الرياح ودوى كالطبول .

رأيت الهول يتلو الهول ، وأشفيت على الموت وشارفت غمراته ، وسمعت صراخ الموتى فى كل مكان ، وتأدت إلى تلك الجلجلة المكتومة المتصاعدة من باطن الأرض كأنها نذير ، وشهدت بعينى المدينة الجميلة وهى تحترق كأنها كسرة خبز تفحمت على النار ، ورفعت بصرى إلى السماء فرأيت كسفاً زاحفة من السحاب الراعد تتجمع لتنقض بالبرق الخافق ، وهبط بصرى إلى الجبل الأشم فإذا هو قد صار غوراً عميقاً فى الرمال . .

وانطلقت أعدو فى شوارع المدينة وسط ألسنة متطاولة مندلعة من النار ، وعمد من الدخان تنشد السماء . .

وكان أهل مدينتى من حولى يتراكضون فى ظلمات الذعر ، ومن البيوت التى طالما نعمت بالقصف والسمر كان يرتفع عويل طويل كأنه ينعى الذين غابوا فى أكفان من رماد . . هو الموت إذن ؛ وهذه ساعته . . ألتقط أنفاسى على هذه الصخرة الناتئة عند شاطئ البحر ، منتظراً أجلى ، وداعيا الموت أن يكون رحيما بى فيأخذ روحى أخذاً رفيقاً كما تأخذ المرء سنة النوم . . وغمرت نفسى فجأة سكينة لم أدر مأتاها : تزين لى هذا الركون إلى فكرة الموت . . وأطبقت الظلمات على وكدت أرضى بها ، ولكن هاجساً من غريزة البقاء هجس فى نفسى يقول :

« لا تمت قبل أن تكتب قصة هذا الحلم ! . . . »

وإذا بى أسعى إلى استعادة شغفى بالحياة ، فلما وفقت إلى سحب يدى التى كنت قد مددتها عن طواعية لمصافحة الموت ، عدت من تخوم الموت إلى المدينة التى تعانى سكراته . .

فى ذلك الموقف الحاسم تخليت عن وهم صحبنى طيلة حياتى بأن جسمى هو ذاتى . . الآن أدركت أنى شىء أعظم وأنبل وأخلد من الجسد الفانى . . أنى جوهر عظيم ، ولو أتيح لى أن أتخلص فى هذه المحنة من جسدى لغدوت أسنى وأعظم وأقرب إلى راحة نفسى وكمال ذاتى . .

عدت إلى المدينة الممزقة أمشى فى شوارعها الطويلة بين صفوف من المنازل الملتهبة ، وأضرب فى ظلمات طامية تغشيها غلالات من اللهب ، وحول رأسى عصفت الرياح وتحت قدمى سيول خاتلة تعوى على جانبيها الذئاب وتفح الأفاعى وهى تتلوى فى رقصة الموت وتلدغ من نجا من الهول الأكبر . . . ورأيت فى الماء المتدفق فى شقوق الأرض جثثاً تدور مع الدوامات قبل أن تمضى طافية مع التيار . . وعلى الأرض المتخنة قوم تنفجر من شدة الحرارة جماجمهم و بطونهم . . وكان الجرحى يصرخون . . وكان الموتى أيضاً يصرخون . . ورائحة احتراق اللحم البشرى تمزق

إحساسى بإنسانيتى . . وفى كل طريق وطئته قدماى لقينى مشهد مثير مجانين يصرخون ، وعمى يتعثرون ، ونساء معولات شائهات ، وقطط وكلاب وجياد تعدو ولها صراخ آدمى ، ووجوه يقطر منها الدم ، ودم تقطر منه أنفاس الحياة . وصبايا كن زينة ليل المدينة ونهارها قد سلخت جلودهن وبترت أيديهن واحترقت على عيونهن الأهداب فما عدن يصلحن زينة . . .

وسمعت وراء ظهرى أنيناً ، ثم أعولت امرأة واستنجدت بى :

ــ أنت أيها الميت العابر ! . . ألا تأخذنى معك ؟

فنظرت إلى المسكينة وقد صار وجهها ، كوجه الأرض المرتعدة فى ليلتنا الليلاء ، مثخناً ملفوحاً كريهاً ، وقلت لها :

ــ تعالى والقى معى نفس المصير .

قالت وهى تتعلق بذراعى بساعد يقطر طرفه دماً حيث قطعت الكف :

ــ أى مصير ؟ . .

قلت : وهل أدرى أنا ؟ . . هذه فيما أحسب نهاية العالم . . لم يعد من حى إلا قليل ، وإلا الرياح الحرقاء تعوى كأنها عفاريت مجنونة تعدو وتصرخ ، وألسنة النار تتحسس أنقاض البيوت قبل أن تقتحمها . . هذا هو الإنسان هشيم ورماد ، وهذه هى الأرض قفر مسود مدخن يمتد إلى آخر مدى البصر تحت الوهج المتضرم . . وهذه مدينتنا قد أمست جذوة مستعرة لها أجيج وصفير . . وهذا هو اللهب ينطلق كالوحش الجائع وقد شبع منها نحو البحر فيثب فوق مياهه وثب الخفاش المسعور كأنه جسر من مارج من نار . . أما عالمنا القديم كله فقد دفن تحت جبل من الرماد . .

قالت لا نجاة إلا البحر . . وإنى ألمح عند الشاطئ القريب قوماً يتصارعون عند زورق صغير . .

كان البحر فى عنفوان ثورته كأنه شلال أبيض هائل من ماء يغلى؛ وكانت الصخور تقتلع من قاعه وتندفع فى الجو فتهوى على طلاب النجاة فى ذلك الزورق الوحيد . . وكانت الرياح تتقاذف ماء السماء وماء البحر فكأن رذاذه إذ يصفع الوجوه رصاص من فوهات البنادق . . وكان القوم عند الزورق تسعة رجال قتل منهم فى المعركة ثلاثة . . فهبطنا ثمانية من الأشباح فى زورق، وأبعدنا عن الأرض الملعونة والسماء تمطرنا وابلا من كتل ملتهبة تتساقط علينا رماداً متوهجاً . .

وكان الماء يمور ويغلى ، وكذلك كان شوقنا إلى النجاة وجهادنا فى سبيل البقاء . .

وكان فى الثمانية الهاربين رجل مجنون أفقده الهول رشده فلما أوشك أن يفتك بالمرأة الضعيفة قذفنا به دون رحمة إلى الخضم المظلم المجهول فكان من نصيبه ذلك الكفن من الزبد الناصع البياض . .

كنا قطيعاً أعمى ينشد الفجر . .

كنا العمالقة العطاش إلى الغد . .

فلما بزغت الشمس بعد دهر طويل وصراع مرير طلعت على عالم ميت بارد ليس فيه من آثار الحياة غير الزورق بركابه السبعة وتلك الأرض البيضاء الغامضة التى تبدت لهم من بعيد . . أرض جديدة رسا عندها زورقنا ، باردة فى وحشتها ، لم نكد نهبط إليها حتى أطبق علينا زمهرير أشد من السعير عذاباً ، وزغب الثلج الأشهب ينساب على الأرض فى سحابات رقيقة مسفة تسوقها رياح كأنها هى أيضاً تحتضر . . وليس وراء ذلك سوى الثلج والجمد ، وصمت آلاف من السنين قد تجمع فى مكان واحد . . فمنا من صاروا بعد قليل تماثيل باردة لعل الأرواح التى فارقتها قد غدت هى أيضاً بعض ذلك الثلج المندوف على أديم من الجمد . ومنا من هرئت أطرافه من البرد فسقطت مبتورة . .

ولم تمض ساعة حتى كان الموت قد تخطف أرواح رفاقى ولم يدع لى رفيقاً غير تلك المرأة التى كان معدنها من معدنى والتى غالبت معى النار والريح والماء والجليد . .

ومضينا ، هى وأنا ، نضرب فى الأرض الباردة البيضاء المبسوطة ومن حولنا روح الجمود وخاطرة الفناء . .

قالت الأنثى الخالدة :

ــ نحن عشنا بعد كل هذا ، فلن نموت أبداً !

وعندها كانت الجذوة الباقية من روحى تقول لى فى وهدة الضعف إن من الخير لى أن أموت . . كان البرد يتسلل إلى أحشائى ويغرينى بالموت ، فحيثما سرت بعد اليوم فى الأرض لن أجد غير الصمت الرهيب المطبق ، وغير هذا النقاء المفزع المصمت الشامل . . وأنا فى هذه الحياة ــ وبعد أن قضى آخر رفاقى الرجال ــ وحيد . . الأرض بالثلج بيضاء . . والسماء فى مثل بياض الثلج . . والهواء فى مثل بياض اللبن . . ما كل هذا النقاء ! . . هذه الظلمة البيضاء ! . . أى عيش هنا لبشر ؟ كوكب طاهر قد انعدمت فيه الحياة بخيرها وشرها . . هلك كل حى ، حتى الشمس بردت . . لن يقوى على الحياة فى كوكب الأرض بعد أن أصبح قبراً مجللا بالبياض يسبح مترنحاً فى الفضاء السرمدى سوى إله . . وخير لى أن أموت لساعتى . . ولكن هذه المرأة لا تريد أن تموت ! . . لها الحياة إذن وحدها . . لسوف تكون آخر حى يدب على سطح الكوكب الميت . . ولسوف تقضى ماقسم لها من حياة فى هذه الثلوج . . ومن يدرى ؟ . . ربما كانت ذبالة خابية من الحياة لا تزال ترقد مطمورة تحت هذه الثلوج ، تتحين الفرصة لتكون نواة خلق جديد .

بنت الحلال

obeikandl.com

كانت قد نزلت من البيت إلى الشارع راجية أن تراه وأن يكلمها ، فلما رأته على نور النيون الفاقع فى لافتة عم بشندى البقال ، وهو يمشى على مهل و بين شفتيه سيجارة ، ارتعدت وارتجفت الأرغفة الطرية فى يدها .

كانت عمتها « زكية » ضيفة عليهم فى تلك الليلة ، وكانت الأسرة تتأهب للعشاء عندما تنبهت أمها الست « بمبة » إلى أن الخبز الموجود فى البيت لا يكفى ، فلم تكدتتكلم حتى كانت فاطمة قد خطفت ملاءتها قائلة إنها ستسرع بإحضار الأرغفة المطلوبة من عم بشندى ، قالتها وهى تنتفض بالرغبة فى أن ترى محمد ، وأن يشاور عقله فى هذه المرة فيكلمها .

واشترت من البقال العجوز وتلكأت ما استطاعت فى انتقاء الأرغفة الخمسة ، ثم عادت تتلكأ عائدة إلى البيت فى الشارع الصغير . . وعندما مرت أمام حارة داود ترددت لحظة عند مدخلها الذى غشيه الظلام . . ترى أى هذه البيوت بيت محمد ! . . كانت تسمع أنه يسكن حجرة بالطابق الأرضى من أحد بيوت هذه الحارة . . ووقفت ونفثات الهواء الخفيفة التى تمس جبينها تداعب طرف ملاءتها المحبوكة على خصرها ، ثم شعرت فجأة بوجوده ، فتلفتت فى حركة مذعورة ، فرأته مقبلا من الدكان ، طويلا أسمر . . ليته فى هذه المرة يخرج من صمته ولا يمر بها بدون أن ينالها منه أكثر من تلك الابتسامة التى لاتعرف إن كانت للتحية أم لاسخرية . . . ليته يدفعها بخشونة إلى الظلمة داخل الحارة ويقبلها

بشفتيه الغليظتين . . ليته هو رجلها !

لكن محمداً ، مرة أخرى ، ابتسم عندما مر بها ومشى إلى البيت الثانى على اليسار فتح الباب ودخل ورد الباب فى هدوء فأغلقه .

اشتعل دم فاطمة فى رأسها ووراء أذنيها . . ولفاطمة نظرة ترشقها صريحة فاحصة فى العيون فتحيرها وتقلقها وتكلمها ، لكن النظرة المشهورة فى الحى كله خابت أيضاً فى هذه المرة . .

مر بها معرضاً ، ورد الباب فى وجهها !

كانت بنتاً فى عامها الثالث والعشرين ، سمرتها لطيفة وأنوثتها وافرة ، وقبل وفاة والدها المعلم برعى الذى كان صاحب عربات حنطور فى بركة الفيل ، كادت « فاطمة » تحصل على شهادة كفاءة التعلم الأولى ، ثم حجزتها الست « بمبة » فى البيت حتى صارت لا تغادره إلا فى ملاءتها ، مثل الكثيرات من بنات الحى اللاتى لم يذهبن إلى مدرسة ولم يمتحن كتاباً . . ثم جاءتها مصيبة حياتها يوم رضيت أمها وخالها الشيخ عويس أن تخطب برغم أنفها إلى عبد اللطيف ابن المعلم منصور الجرىء صاحب ورشة النجارة الواقعة على ناصية الشارع . . واعترضت فاطمة لكنهم احتفلوا بالخطبة . . زوجوها من أول مغفل طلب يدها ، كما قالت لعمتها زكية وهى تبكى . . إن « رجلها » الذى طالما حلمت به وانتظرته من طراز آخر غير عبد اللطيف . . « رجلها » لا جميل ولا غنى بل رجل ! . . رجل ظاهر الرجولة ، تحبه هى فوق حبه لها ! . . . رجل من نوع محمد رئيس عمال الصف فى مطبعة باب الخلق ، على أن يكون أغنى قليلا إذا أمكن . . محمد هو الذى يهز أوتارها الداخلية المكبوتة ، المشدودة . . عندما تراه فجأة فى الشارع تتسمر فى مكانها كالمأخوذة وترتجف بسخونة مسكرة لذيذة . لكنه هو يبتسم ويمر فى هدوء ، كأنه يعرف سرها ولا يبالى . . وهى تشعر فى تلك اللحظات أن السور العالى الذى يحصر شبابها لن يثبت طويلا

ولو جعلت تسانده من الجانب الآخر ألسنة الحارة وكل سلطة التقاليد والأسرة . .

كانت فاطمة وهى مخطوبة لعبد اللطيف تحب « محمداً » . . وكان عبد اللطيف يحضر لزياراتها فتفحصه من رأسه إلى قدميه وأنوثتها تفيض بالاحتقار والتمرد : وبالرغبة فى إذلاله وتعذيبه و « تطفيشه » . . إنها لن تكون أبداً زوجة لهذا الرجل ، هذا الوجه الجزيل الذى تغشاه صفرة ، هذا الاسترخاء البليد فى عينى الحشاش المحتقنتين دائماً بالدم ، وهذه النظرة المنكسرة . . مستحيل . . هذا النجار الطرى المدمن وارث ورشة المعلم منصور الجرىء لن يكون أبداً حلم العمر الذى كم أرقها فى فراشها ورفع درجة حرارتها ونشر فى بدنها رعدة هناء موعودة . . لا . لا . . لتثر الدنيا كلها مع أمها وخالها ! إنها تريد « محمداً » . . الحياة هى أن يكون لها محمد . . الكتفان العريضتان والرجولة الخشنة . .

لكنه « ولا كأنه هنا » . . يبتسم — فقط — ويمر بها هادئاً متعالياً !

إن يوميته خمسة وستون قرشاً ، فلعله يبحث عن عروس من بنات الموظفين ! . . هى لا تعجبه . . لقد مربها فى سخرية وكبر وصفق بابه فى وجهها . . كانت فاطمة تمشى فى ذهول والأرغفة مدلاة من يدها وترنحت فى دوار فتلكأت فى خطواتها . . قاس خشن . . رجل أحلامها ! وفجأة عادت تنسل فى ظلال الجدران ، مندفعة نحو حارة داود . . وفى اندفاع مخبول وجدت نفسها تدق الباب وهى تتلفت حواليها فى الظلام. الباب الثانى على اليسار . .

وفتح الباب . . ظهر محمد : فتلقت بيدنها المنتفض كله وقع نظرته الظافرة القاهمة ، ونكست رأسها ودخلت بدون كلمة . .

وكانت ترتعد من قدميها إلى رأسها .

* * *

بعد ساعة استقبلت الست « بمبة » ابنتها بثورة عنيفة . ولمّحت إلى أمور تجرى من وراء ظهرها .

ولم تتكلم فاطمة كثيراً بل ألقت الأرغفة على المائدة فى فتور وقالت لعمتها زكية إنها لن تتعشى ، ثم دخلت حجرة النوم فلبدت فى السرير ووجهها إلى الحائط . وتظاهرت بالنوم .

وسمعت أمها من الصالة تكلم عمتها وتهدد باطلاع ابنها الكبير سيد سائق التاكسى على لكاعة البنت فى الشوارع . . وبعد أن تعشت الست « بمبة » مع ضيفتها والأولاد الثلاثة الصغار ، وحجزت لسيد الكبير عشاءه حتى يجده مجهزاً عند عودته كالعادة قرب الفجر ، دخلت بالست زكية على البنت كى تحاسبها على عملتها الجديدة . . الناس أكلوا وجه الست « بمبة » . . يقولون إن فاطمة لا تحب عبد اللطيف . . إن قلبها مشغول . . أهذا يليق ياست زكية ؟ . . كلميها . . أدخلى لها عقلها فى رأسها . .

وتقدمت الست زكية فضربت بكفها ردف البنت المكورة فى السرير وقالت وهى تضحك :

« قزى يا بنت وكلميني . . بتحبى مين يامنيلة واتى مخطوبة لزينة شباب الحتة ؟ » وقبل أن ترد فاطمة منفجرة فى أمها كانت قد طرقت باب الشقة يد تعرف فاطمة رنتها على الخشب وتعرف صاحبها . . وسمعت النسوة الثلاث من حجرة النوم صوت الباب وهو يفتح ، ثم صوت عبد اللطيف وهو يلاطف الأولاد ويحملهم قراطيس هداياه وهم يقودونه فى سرور إلى حجرة الاستقبال .

بحثت الست « بمبة » عن طرحتها على الكنبة وهى « تزوم » فى ابنتها التى هبت جالسة فى غيظ :

— قومى يابنت لخطيبك . .

— « سم يلهفه » !

— بس شاطرة تتلكعى بالليل فى الشوارع . . خطيبك ، قومى له . .

قامت فاطمة وعمتها تربت ظهرها وتتملقها فأدخلت قدميها في شبشب أخيها العتيق ووضعت حول كتفيها شالا قديماً تداري به جلباب البيت البسيط ، ثم تمطت متثائبة وسارت نحو حجرة الاستقبال وهي تتأفف بصوت غير خافت :

ــ داحنا بقينا نص الليل يا عالم ! . . دى مواعيد حشاشين ! . . أوف . .

ودخلت عليه وهي تزفر وحاجباها مرفوعان في استفزاز صريح ومرت نظرتها قبل كل شيء على كتفيه المتقاربتين في الجلباب البلدى الرمادى . . كل شيء فيه بغيض . . جزمته الصفراء وجوربه المهدل . . شاربه الرفيع المبروم وظهره المنحنى وارتعاش أهدابه . . وفي لحمها ودمها تنهدت صورة كتفين قويتين كانتا منذ ساعة في يديها !

ــ أهلا بطاطة !

ومن فورها أدركت أنه مسطول ، فتكلفت الغضب وهي تصفعه في غلظة متعمدة بعينيها وكلماتها ، فكانت تحيتها له :

ــ ماتبطل الهم ده بقى ياعبد اللطيف قبل الجواز ! .. صحتك عدم.. حاتجوز راجل عجوز عمره تلاتين سنة !

ذهل عبد اللطيف ولم يسعفه غير صوت الأم وهي تقتحم الحجرة وراء ابنتها المجنونة في ذعر وأسف :

ــ إتى بابنت اتلطشتى في عقلك ! ! اتفضل ياسى عبد اللطيف دى أصلها قايمة من النوم تخرف ، بعيد عنك ، أهلا بحبيبى . .

وكان الخطيب مضطرباً وهو يقول لأم الخطيبة :

ــ يظهر الست الصغيرة ماهش مبسوطة من الزيارة . . أحسن أستأذن دلوقتى . .

ــ كنت جاى في إيه يا ابنى وماشى في إيه . . إمشى يامقصوفة الرقبة جهزى الشربات لسى عبد اللطيف .

وخرجت فاطمة فى سرور وهى تهمس :

— شربات إيه . . دا عاوز حاجة سخنة تشغل المزاج .

ولم تطل الزيارة التعسة . . جلس عبد اللطيف دقائق مع الست « بمبة » تجرع فى آخرها كوباً من الشربات الأحمر ماعت لها نفسه ، ثم أصر على الانصراف .

وغادر البيت بدون أن تظهر له فاطمة . . كانت فى لحظة انصرافه تزغزغ عمتها فى وسطها وهى تقول لها فى مرح عصبى :

— جوزينى انتى ياعمتى . . انتى عينك كلها نظر . .

وظلت الست « بمبة » واقفة على رأس السلم وهى تشيع الضيف بأرق ماتعثر عليه من كلمات حتى اختفى فى الشارع . . .

وبعد دقيقة واحدة كان أهل الحارة كلهم يستمعون إلى زعيق الست « بمبة » وابنتها وهما تتشاجران بأعلى صوتهما ، فقد فاض بالأم الأسى على ضياع الخطيب ، وفاض بالبنت الفرح الذى جاجل فى كيانها منذ الساعة التى عاشتها فى أول الليل فى حضن محمد .

* * *

قصد عبد اللطيف من فوره ورشة النجارة فوجد والده المعلم منصور على « الدكة » الخشبية التى تنزوى وراء الباب ، وقد خلع جلبابه البلدى واتكأ فى عظمة جسمه الضخم المترهل فى قفطانه اللماع فشغل أكثر من نصف مساحة الدكة العريضة

وحيا الابن أباه وجلس إلى جانبه مطرقاً فى صمت .

قال الوالد :

— الواد « بعضشى » عنده تعميرة كويسة ! !

فلم يرد عبد اللطيف .

— كنت فين ! عند فاطمة ؟

هز عبد اللطيف رأسه بدون أن يخرج من صمته .

ودخل بعضشى ابن صاحب قهوة كنوز الحكمة يحمل فى يده شيشة فوضعها على الأرض وناول المبسم للمعلم ، ثم مد يده إلى صدره — فيما وراء جلبابه المفتوح — فخرجت تحمل ورقة بنفسجية مكورة على سر لا يزيد فى حجمه على ساعة اليد الصغيرة التى كانت أرقامها الفسفورية تبرق فى معصم عبد اللطيف .

وتناول المعلم منصور الجرىء الورقة ففتحها عن سرها فى أناة وحرص ، وتناول منها ذلك الشيء الصغير فأدناه من أنفه ، واختبره بين أسنانه قبل أن يرفع بصره إلى الغلام الواقف أمامه ليقول له فى صوت تنم نبراته الخشنة عن السرور والارتياح :

— كويسة صحيح ياواد يابعضشى .

تبسم الولد وانحنى على الشيشة فرفع جمرات النار عن هامتها المنسقة ومد يده إلى المعلم بدون أن ينظر فأسقط المعلم فى اليد الممدودة قطعة صغيرة كان قد اقتطعها بأسنانه وعالجها بين أصابعه . فهيأ لها بعضشى مكانها ورد الجمرات حواليها فى ضربات خفيفة رشيقة بطرف الماشة النحاسية الصغيرة ، ثم أهاب بالسيد الضخم المتسلطن فوق عرشه الخشبى :

— شد يامعلم واتمتع .

نفث المعلم الكبير الدخان من فمه وطاقتى أنفه فى خيوط ثلاثة ضخمة وناول المبسم لخليفته .

ونهض الولد للخروج بدون أن ينسى أن يؤكد أنه سيعود بين الحين والحين بجمرات جديدة ، وساد الورشة المظلمة الواسعة صمت طويل لا تعيش فيه غير حشرجة السعال فى حنجرة المعلم بعد كل نفس يجذبه من الشيشة . . ومن وراء الأب والابن أخشاب مسندة إلى الجدار ، وهيا كل الكراسى الفاغرة فى الظلمة . والابن يتناول المبسم من يد الأب ويتذوق بدوره بضاعة بعضشى ويثنى عليها .

وفجأة قال عبد اللطيف وخرجت العبارة المعدة مع الدخان فى وقت واحد من بين شفتيه :

— أنا عاوز تسامحنى فى فسخ خطبة فاطمة !

سأل المعلم الكبير فى فتور ذاهل :

— ليه ؟ حصل شىء .

— ما احناش لايقين على بعض والسلام . . شايله مناخيرها لفوق قوى . . تقعد لى ساكتة واللاماسكة رواية كلام فارغ وتسيب الكلام معايا لأمها . . وطالعة فيها باخوها الواد سيد ومكسبه . . وعمرها ما ضحكت لى عنيها زى ما بتضحك عنين العرايس لخطابها . . قصر الكلام لا أنا هاضمها ولا هى نازلالى من زور . . مانفعش لبعض . .

كان يريد أن يشرح إحساسه الحقيقى فلم يجد غير كلمات غامضة مائعة . . كان يريد أن يعبر عن شعوره الأليم بأن خطيبته تزدريه ، وأنه صار يخشى مواجهتها ، هو الموفق فى رزقه والمرموق من بنات الحى ، وإن كان لا يقرأ ولا يكتب مثلها . . كان يريد أن يصفعها فى الكلام ، هنا ، كما صفعته هى هناك منذ لحظات فى بيتها . .

ظل المعلم ساكتاً ، فقال عبد اللطيف مرة أخرى .

— سامحنى فى فسخ الخطبة . النهاردة أحسن من بكره .

ووضع قطعة جديدة من الفحم الملتهب فوق هامة الشيشة وجذب من المبسم أنفاساً قصيرة سريعة ثم قدمه للوالد . . ومع الدخان ندت عن صدر الوالد تنهدة طويلة . . بليدة . . وسمعه الابن يهمس همساً يتكسر على شفتيه ويكاد يضيع فى شاربه المنتفش :

— هى زعلتك الليلة ؟

— قالت لى إنها ما تتجوزش راجل عمره تلاتين سنة وعجوز من بدرى . . . يخلصك ؟

والمعلم الكبير تأثر عندما سمع هذا الكلام :

ـ لا يابنى خلاص . . النسا على قفا من يشيل . . دورلك على بنت الحلال اللى تعجبك أنت ، وأنا ما علىّ إلا أخطبها لك . . شد ما تضيعش النفس ! !

وعاد المعلم منصور الجرىء يكرر حكمته :

ـ النسا على قفا من يشيل . . تعرف الواد بعضشى ده فى الحق بيجيب اليومين دول أحسن تعميرة فى بر مصر .

* * *

ومرت ساعة قبل أن يتنهد المعلم الكبير ويقول للمعلم الصغير :

ـ قوم بينا نروح ننام والصباح رباح .

تعاون الأب والابن على وضع العوارض الحديدية فى باب الورشة وامتحان أقفالها ، ثم انطلقا فى الظلام والغيبوبة كعادتهما كل ليلة إلى البيت .

وأمام حارة داود رفع الأب بصره إلى السماء السوداء ودعاها أن تهدى عبد اللطيف ابن الحلال إلى بنت الحلال .

obeikandl.com

obeikandl.com

فى ربيع سنة ١٩٤٦ ، لكن الجو فى دار عبد الصمد أبو فرماوى مفعم بالاختصار الكئيب والعزلة . سقف خفيض وجدران عارية داكنة . الباب فى الصدر ، عن يمينه زير قديم فوق غطائه كوز مقلوب ، وعن يسارد الفرن وملابس رثة معلقة بمسمار فى الجدار . عبد الصمد ، بين اليقظة والنوم ، مستلق فى إعياء على حصيرة قريبة من الفرن ، لا تحركه أصداء المولد فى ساحة القرية القريبة من داره . وعند ركن الحصيرة قالة من الفخار الأحمر .

عبد الصمد : (يعتدل على صوت طرقات على الباب وهو يدعك جنبه الأيمن) مين ؟ . . آه يا جنبي . . مين ؟

بركات : (صوت من الخارج) أنا بركات يا عبد الصمد . . افتح . . .

عبد الصمد : (يضحك من نفسه) الله يلعنك يا ابن الحرام انت والفص بتاعك . . طيب طيب . . جاى لك يا ابن مبروكة . . صبرك بالله ركبي سايبة (ينهض بصعوبة على طرقات أخرى ملحة ، والضحك يغلبه ، و بعد محاولات مضطربة تزيد من ضحكه على نفسه يتمكن من فتح الباب ، فتتعالى أصداء المولد) خش يا ابن مبروكة .

(وفى الحال يرتد عبد الصمد ساقطاً على ظهره يدفعه شوال منتفخ ويدخل بركات الذى يرتدى فوق جلبابه سترة قديمة من سترات الجنود ، ويلقى بالشوال على

الأرض وهو يلهث . ثم يسرع بإغلاق الباب فتخفت أصداء المولد) .

بركات : الجماعة لسه فى المولد ؟

عبد الصمد : (يتحامل على الشوال حتى يقف مترنحاً) بقى يا ابن مبروكة أنا مستحمل زقة ؟

بركات : الجماعة فى المولد ؟ كلهم ؟

عبد الصمد : (يدعك جنبه الأيمن) جتك الغم : الزقة رجعت الوجع فى جنبى العيان .

بركات : (ما يزال يلهث) انت اللى الفص ماخلخك .

عبد الصمد : من ساعة ما ادتهرلى فى العصارى وهو ملقحنى على الحصيرة .

بركات : لازم بلعته . . أنا قلت لك استحلبه . . أبو جنب اللى عندك ده هو اللى جاب خبر الحاج حجازى بعد ما صرف على الحكما دم قلبه من غير فايدة . . وأبو جنب مالوش إلا المدعوق دا يا وله . . مش قلت لك شغل له القهوة السادة وانت تصهلل .

عبد الصمد : ما عندناش ريحة البن . . وشيلة إيه دى اللى انت سارح بيها فى قلب الليل ؟

بركات : (يقرفص إلى جانب الشوال وهو يجفف وجهه بطرف جلابيته) ونوسة رخرة معاهم فى المولد ؟

عبد الصمد : (يتعوج على الحصيرة ويسند رأسه إلى الجدار) وانت دخلك إيه تسأل على نوسة ؟

بركات : باسأل على خطيبتى يا جدع . .

عبد الصمد : انت لسه قريت فتحتها ؟

بركات : وانت تطول تبقى عديلى (يربت بيده على الشوال)

opeikandi.com

آهى حا تفرج وبكره أقرا فاتحتها .

عبد الصمد : (يداعك جنبه) قالت لوهيبة خلى الواد منصور يروح يتفرج مع خالته نوسة واقعدى انتى معايا ، قالت لى : أنا وحشنى رقص أبو ريشة . .

بركات : (يداعب الشوال) حاتفرج إن شاء الله . . وزى ماخدت انت وهيبة وخلفت منها منصور آخد أنا نوسة ونخلف صبيان وبنات زى ما أنا عايز يا ابنى . . مش هو المهر اللى حابس دمى ؟ (يطبطب على الشوال) آهو المهر بيتدبر ياعبد الصمد !

عبد الصمد : انت لاقى تاكل لما عايز تتجوز وتخلف ؟

بركات : لازم أحجز نوسة قبل ما حد يطلع مهرها من جيبه .

عبد الصمد : حا تأكلها منين ؟ من خفة يدك ؟ وإلا من المدعوق اللى ما حد عارف إن كنت بتتعاطاه والا بتبيعه ؟

بركات : آهو بالطش مع الدنيا وتلطش معايا . . حلفتك بسيدى شهاب الدين وليلته المفترجة لتسكت بقى .

عبد الصمد : حتى الشغل فى البنادر خبت فيه يا بركات . . لا نفعت فى مصر ولا فى السويس . . وآهى الحرب خلصت بقالها سنة وكل الناس رجعت منها بفلوس إلا انت . . . مازادش عليك إلا الفشر والحكاوى اللى بتحكيها . . اللى يسمع كلامك يقول ما خليتش فى البندر راجل ولا ست ، ولا مصرى ولا انجليزى ، ولا عسكرى ولا حرامى ولا ابن حلال ولا ابن حرام ، إلا لما كان لك معاه دور . .

بركات : يعنى أنا كنت لقيت شغل عدل ولا اشتغلتش ؟

عبد الصمد : لقيت اللى لقيته ورجعت لنا زى ما انت .

obeikandi.com

بركات : ويعنى اللى فضلوا هناك عملوا إيه ؟
عبد الصمد : أقله ما اشتغلوش مع الانجليز يا بركات .
بركات : يعنى كنت عايزنى أفضل أنهج من العزق بالفاس اللى حيلتى فى أرض البيه علشان أطلع بتلتميت قرش فى السنة . . يعنى ما حصلتش قرش فى اليوم . . قالوا القرش بيجرى فى إيد اللى يزق عجله على هناك ويشتغل معاهم فى المعسكرات . . رحت نهجت من العتل واللفح والإهانة ما طقتش . . هجيت تانى . . هو أنا حا أعيش العمر كله أنهج ؟
عبد الصمد : ودخت السبع دوخات على قلة فايدة ورجعت تلطش برضه .
بركات : الله بقى ياعبد الصمد يابو فرماوى . . انت حاتقلب عليا : المواجع ليه ؟
عبد الصمد : والشوال ده فيه إيه ياوله ؟
بركات : (يعوج طاقيته) فيه الليالى الملاح ياوله !
عبد الصمد : الليالى الملاح ؟
بركات : فيه نص مهر نوسة ياوله !
عبد الصمد : رجعت تنط على الزرايب ؟
بركات : لا . . . دى بضاعة غالية . . . اللى فيه ياوله بورقة بخمسة . . ورقة من اللى تعلى المقام وتشق الحيط وتفوت فيه . .
عبد الصمد : بطل مزع بقى . .
بركات : انت عمرك شفت ورقة بخمسة جنيه ؟
عبد الصمد : (يتحسس الشوال باحترام) داشىء طرى ياوله .
بركات : شيل إيدك . . حاسب على الرزق . . أنا حا أسيبه

عندك قيمة نص ساعة لحد ما أروح أجيب الدكتور عمر وآجى . .

عبد الصمد : الدكتور عمر ؟

بركات : هو اللى حايشترى البضاعة .

عبد الصمد : راخر بيشترى منهوباتك ؟ الشوال دا فيه إيه ياوله ؟

بركات : فيك من يكتم السر ؟

عبد الصمد : فيه إيه يا ابن مبروكة الشوال ؟

بركات : اللى فى الشوال ده عباس الصرماتى .

عبد الصمد : (تفيقه دهشة شديدة) عباس الصرماتى ؟

بركات : بعينه العورا .

عبد الصمد : عباس الصرماتى إيه ياواد يابركات ؟ هه ؟ عباس مامات امبارح ياوله والبلد جمعت تمن كفنه ودفناه الصبح وخلصنا منه .

بركات : دفناه الصبح وطلعته أنا تانى بالليل . . . ما تفهمنى بقى . .

عبد الصمد : طلعته ؟

بركات : آى طلعته . . الدكتور عمر عايزه .

عبد الصمد : (ينتفض من الرعب وهو ينقل بصره بين الشوال وبركات) طلعته وجايبه لى هنا يا ابن مبروكة ؟

بركات : جتك الغم فى قلة مروتك . . . ياواد مسافة ما أروح أجيب له الدكتور !

عبد الصمد : (يمسك بجلابية بركات وهو فى فزع شديد) تجيب له الدكتور ؟ . .

بقى بعدما جابو له التسريح . . وغسلوه وكفنوه . . .

وقروا على روحه الفاتحة ودفنوه . تجيب له انت الدكتور؟ ليه بق ؟ يدى له حقنة ؟

بركات : ما تنوق أمال وتفهمني ؛ أنا ورايا أشغال .

عبد الصمد : عباس الصرماتي ؟ هنا في الشوال . . افتح الشوال ده .

بركات : اتلهى ما انتش حمل بصة .

عبد الصمد : بقى فتحت طربة الأعور وجبت الجثة في الشوال ولفعتها على كتفك زى زكيبة القمح ، وحاتجيب لها الدكتور كمان ؟ ... وريني اللى في الشوال ياضلالى .

بركات : (يتنهد ويفك الحبل الملتف حول قمة الشوال ويوارب فوهته قليلا بين يديه) بص يا بنى آدم . . الأعور والا مش الأعور؟

(عبد الصمد يلقى نظرة ثم يسنده بركات قبل أن يقع من طوله) .

بركات : صدقت يابنى آدم ؟

عبد الصمد : (ينهار إلى الأرض) خده واطلع بره . . خده واطلع بره دا كان منجس الدنيا وهو عايش . . ياما راح بتفيدة ياما رجع بنظيرة ، ماطالش ينجس دارى وهو عايش جايبه انت ينجسها وهو ميت ؟ !

بركات : ماتعمل أمال جاك خابط .

عبد الصمد : فتحت الطربة على الميت ؟

بركات : يعنى فتحت سراية الحكومة يا خى !

عبد الصمد : وما خفتش ؟

بركات : خفت . . إنما جبته .

عبد الصمد : والدكتور عمر ابن الحاج نعمان بيشترى الميتين ؟

بركات : يلزمه تمرين على الأموات . .

عبد الصمد : يعنى من كتر ما هو فالح ؟ آهم كل ولاد الحاج نعمان فلحوا ماعدا عمر صاحبك . . كل سنة يسقط وعمره ما حيبقى دكتور .

بركات : الدكتور عمر دا زين شباب البلد ياجدع .

عبد الصمد : ما كانش الحاج نعمان كل ساعة يشتكى منه .

بركات : كان قعد سايرك الحاج نعمان واشتكى لك من ابنه ياعبد الصمد يابو فرماوى ؟

عبد الصمد : آهى الناس كلها عارفة . . فى مصر يسيب المدرسة بتاعة الطب ويمشى فى المظاهرات وينحشر فى اللى مالوش فيه . . وكل يوم والتانى إنذار لا بوه لما الراجل ياولداه عيي بقلبه واحتار فيه الأطبا . .

بركات : إش فهمك انت فى اللى بيعمله الدكتور عمر فى مصر ؟

عبد الصمد : آهم بيقولوا الباشا اللى اسمه النقراشى ، ديك اليوم قلبه من ع الكوبرى كان حايجيب داغه .

بركات : (يضحك) اسكت اسكت بلاش أمور جهل .

عبد الصمد : الكلام دا أنا سامعه من عبد المتجلى أفندى وهو قاعد يحكى الحكاية على مصطبة الشيخ كامل . . والتانى اللى جه بعد النقراشى راخر قارش ملحة عمر ابن الحاج نعمان . . الباشا اللى اسمه سدقى ده . . الواد ده حايضيع نفسه بأقول لك . . إخواته التانيين ماهم مهديين يا أخى وفاتحين نفس أبوهم . . اللى موظف واللى تلميذ . . اشمعنى هو اللى فهيم فى السياسة أوى . . هو أبوه قلبه وجعه إلا منه ياراجل . .

بركات : انت لا تعرف عمر ده يبقى إيه ولا إيه اللى جارى فى

مصر . أنا اللى أعرف . . أنا اللى شفت . . حدفتنى الدنيا فى زنقة من زنقاتى على بيته فى شارع القصر العينى . . لبدت عنده كام شهر . . خدمته هو ورفقاته . . تلامذة إنما الواحد منهم بألف راجل . . سمعت كلامهم وعاينت أفعالهم . . لا يهمهم صدقى ولا سليم زكى . . ولا ميت ألف جونى . . ساعة ما يملوا الشارع يرجو الأرض (يرفع صوته مشوحاً بيده) : لا مفاوضة إلا بعد الجلاء . . الجلاء بالدماء . . تسقط معاهدة ستة وتلاتين . . كنت معاهم يوم كوبرى عباس . . وشفتهم لما هجموا على عسكر الإنجليز فى ميدان قصر النيل كما الأسود . . بعينى دى شفت عمر . . اللى مش عاجبك . . وهو بيضرب جاسوس من جواسيس الحكمدار وقع فى إيد التلامذة قبل ما يفتحوا عليهم الكوبرى . . عمر دا كبير يا عبد الصمد كبير أوى ، بس انت اللى مدفون هنا فى قبرك ولا دارى . .

عبد الصمد : جاسوس ؟!

بركات : بصاص خباص ، وبقرشين يبيع ولاد بلده .

عبد الصمد : عمر ضربه ؟

بركات : شرحه !

عبد الصمد : ولا خافش ؟

بركات : هى الأسود بتخاف يا بوفرماوى ؟

عبد الصمد : وبعدين ؟

بركات : (يتنهد) — وبعدين سبتهم فى مصر بيرجوا الأرض ويفوروا وادم الحكومة وحكمدارها ، وحدفتنى الدنيا

هنا تانى ، وزامات ديب القرافة !

عبد الصمد : إنت نهايتك حاتكون إن شاء الله على المشنقة .. ابقى شوف !

بركات : (يشير إلى الشوال) مشنقة ليه هو أنا اللى موته ؟

عبد الصمد : يعنى لوكان حد شافك وانت جايبه أروح معاك فى داهية !

بركات : مين اللى يشوفنى ؟ الناس ملهية فى فتة المولد . . . ومن ساعة الدكتور ما يدفع ويشيل إحنا خاليين المسئولية والميت ده ما نعرفوش .

عبد الصمد : خد الميت بتاعك يا بركات يا بن مبروكة وغوروا انتوا الاتنين من وشى خلى الليلة تفوت على خير .

بركات : دول خمسة جنيه ياوله . . جنيه ينطح جنيه . . ينطحه من غير ما يعوره . . يسمى عليه قبل ما ينطحه . . جتك الغم وش فقر . .

عبد الصمد : دارى ماهش دكان أموات يا بركات .

بركات : دا نص مهر نوسة يامغفل !

عبد الصمد : نوسة لو عرفت تفقع بالصوت فى وشك .

بركات : وأشيلها من دارك وأوفر علياك لقمتها وأفرش منديلى على الرملة .

عبد الصمد : آدى اللى كان ناقص . . تلم مهرك من الجبانة . .

بركات : (ينهض بكبرياء) وماله ياوله ؟ وإذا كانوا رفقات الدكتور عمر فى المدرسة بتاعة الطب يلزمهم رخرين ميتين إحنا مستعدين نوردلهم طلباتهم . . إحنا حانغلب فى إيه ؟ . . أفحت وأطلع ، وادفع وشيل . . والأعور بسعر المفتح . . والجنيه برضه اسمه الجنيه . .

obeikandi.com

عبد الصمد : والله انت عيشتك تغم .
بركات : يعنى اشمعنى دى اللى تغم ماهى العيشة كلها غم فى غم
أروح بقى أجيب الزبون ؟
(يجمدان على صوت طرقات مفاجئة على الباب)
عبد الصمد : (يستبد به فزع مخبول) ضيعتنى يا ابن مبروكة ؟
بركات : انكتم لما نشوف إيه العبارة (يرفع صوته متماسكاً)
مين اللى بيخبط ؟
نوسة : (صوت من الخارج) هو أنت هنا يابركات ؟
بركات : (يطرقع بأصابعه راقصاً) دى نوسة ياوله ! دى نوسة
ياوله ! دى نوسة ياوله !
(بركات يوارب الباب فتدخل مع نوسة دفقة من صهللة
المولد ، ويرد الباب) .
نوسة : سالخير عليكم .
عبد الصمد : (يلمح نظرتها المبتسمة لبركات) إش رجعك مبدرة ؟
نوسة : ادلعدى منصور ابنك ياخويا . . الدنيا نسمت
ووهيبة حكمت رأيها إلا آجى آخد له الحرام بتاعك . .
عبد الصمد : (يسارع بنزع الحرام من تحت الهدمة المعلقة على مسمار
الجدار ويمد يده) يلا مع السلامة لا الواد تستلمه
السعلة .
بركات : ديهدى . . ماتطول بالك أمال ياجدع على ماتاخد
نفسها .
عبد الصمد : (يشير بحركة مبهمة فى اتجاه الشوال) ما احنا عايزين
كل حى ياخد نفسه !
نوسة : ياخى قول بس أبل ريقى من مية الزير السقعة .
عبد الصمد : (يقفز ليقف أمام الشوال بينها وبين الزير) هات

يا بركات القلة .

نوسة : اشمعنى القلة ياعبد الصمد ؟

بركات : (يحضر لها القلة) ماتدقيش يانوسة .

نوسة : ومية الزير مالها ياعبد الصمد ؟

عبد الصمد : بعد ماخرجتو جالها سخونة !

نوسة : (تضحك وهى تتناول من بركات القلة) ماتبقاش تتقل عليه كده يابركات .

بركات : (يأخذ منها القلة بعد ماتروى ظمأها) دانا باعالج له جنبه . . . هنيا .

نوسة : الله يهنيك وينولك اللى فى بالك يابركات .

عبد الصمد : (يشير لبركات . فى اتجاه الشوال فيهز بركات رأسه ، ويدفع عبد الصمد نوسة برفق نحو الباب) لفوا الواد كويس .

نوسة : ما تسيب عبد الصمد ينام شوية يابركات وتيجى تتفرج على أبو ريشة وعمايله . .

بركات : يعنى عامل السنة دى اللى ما بيعملوش فى كل مولد ؟

نوسة : إلا السنة دى يا بركات .

بركات : هيه ؟

نوسة : تقولش وسطه مخاوع فى الرقص .

بركات : والنبى إيه ؟

نوسة : عليه رقص السنة يا أولاد !

بركات : طيب ما تتعلمى لك منه حاجة تنفعك فى المستقبل !

عبد الصمد : (يعجز عن الاحتمال) ياجدعان . . يا أمة المسلمين دا وقته !

نوسة : ياللا معايا يا بركات . . الراجل هريدى أبو مسلم

شيخ الغفر قاطع سكتى ما أعرفش ليه وكل ما يشوفنى يحدف عليا كلام . .

بركات : (فى اهتمام) قاطع عليكى ؟ وعايز إيه منك هريدى أبو مسلم ؟

نوسة : أنا ياخويا عارفه . . دور يجيب لى سيرة البيه . . ودور يقول لى سراية البيه هى اللى حاكمة العب كله مش دوار العمدة . . أقول له أمال العمدة يبقى إيه يقول لى رئيس وزارة . . قلت له أمال إنت صفتك إيه بقى قال أنا اللوا هريدى أبو مسلم . . لوا يعنى إيه يابركات ؟

بركات : كبير الأمن . . زى واحد فى مصر اسمه اللوا سليم زكى . بس اللى أعرفه إن شغلة اللوا ماهش كده أبدا . . هو بيلبس الرجالة طرح مش يفك طرح النسوان !

نوسة : دى كانت شغلة عباس الصرماتى !

عبد الصمد : أيوه والنبى ياختى تفكريه بعباس الصرماتى !

بركات : أنا جاى معاكى .

عبد الصمد : رايح فين ؟

بركات : رايح أربى هريدى أبو مسلم وأوقفه عند حده . .

عبد الصمد : والورقة أم خمسة جنيه نازلين نطح فى بعض من غير ما الواحد منهم يعور أخوه ! تسيبها لمين ؟

نوسة : إيه دا اللى بتقوله يا عبد الصمد ؟

بركات : دا كلام رجالة مالكيش حشرة فيه .

نوسة : يعنى ما انتش جاى معايا ؟

بركات : روحى انتى وأنا أحصلك .

(بحركة آسفة يوارب بركات الباب ، لكن نوسة فى

طريقها إلى الخروج تلمح الشوال) .

نوسة : الله إيه الشوال ده ياعبد الصمد ؟

عبد الصمد : (ينظر نحو الشوال) الشوال ؟

(نوسة تعود خطوات فى اتجاه الشوال : فيقفل بركات الباب ، وتتلاشى أصداء المولد) .

نوسة : فيه إيه الشوال ده يابركات ؟

بركات : دول شوية درة يابت . . من عزبة البيه . .

نوسة : مش حلفت لى انك حاتبطل النط فى الزرايب والغيطان؟

بركات : ما هى دى آخر نوبة يا نوسة !

نوسة : يابركات أنا حلفت لامك الليلة فى مقام سيدى شهاب الدين إنى أعقلك وأتوبك ونقسم لقمتنا الحلال على تلاتة . .

بركات : لقمة الحلال ضيقة يا أعز من عينى .

نوسة : ما أنا كمان حا اشتغل وأجيب فلوس إنشا الله ألف على الدور أملا مية وأجيب م السوق وأطحن وأعجن وأخبز وأغسل (تلتفت إلى عبد الصمد) وانت ياعبد الصمد بقى مشاركه إنشا الله النوبة ؟

عبد الصمد : ربنا هو اللى عالم . .

(يفتح لها الباب ويغلقه بسرعة بمجرد خروجها)

بركات : جت سليمة !

عبد الصمد : ليلتك سودا وماهش فايته على خير .

بركات : شد حيلك أمال ، دى أصلها ليلة مفترجة .

عبد الصمد : ياسيدى شهاب الدين اقصف لى عمر ابن مبروكة وريحى .

بركات : أنا حا أخطف رجلى بقى أجيب الدكتور عمر يشيله

ونخلص منه .

عبد الصمد : وأنا ما أقعدش مع الميت لوحدى .

بركات : هو حايقوم يمسك فى خناقك ؟

عبد الصمد : ياواد يا ابن مبروكة الأموات لها حرمة .

بركات : مش أحسن ما ياكلهم الدود — وإلا ينحت عليهم ديب القرافة ؟ . .
وهم يعنى حاسين بحاجة من دى ؟ دول فى ملك تانى ياجدع انت . . نايمين على ضهرهم وكل واحد حاطط رجل على رجل ولا سائل فى العيشة واللى عايشينها . .

عبد الصمد : (بعد سكتة ذاهلة) طيب يا بركات قوم هات الدكتور عمر ياخد الميت بتاعه قبل الفجر ما يفضحنا والبلد تزفنا احنا والأعور للنيابة على صاجات أبوريشة . .

بركات : (يخف للخروج منتعشاً) تحيا الجدعة .

عبد الصمد : جتنى الغم صحيح اللى عرفتك وصاحبتك .

بركات : (عند البواب الموارب) أوعى له !

عبد الصمد : (يقفل الباب بسرعة ، وينكمش على الحصيرة) ياسابل الستر على عبيدك جمد قلبى . . آمين يارب العالمين . . مدد يا أهل الله . . مدد ياسيدى شهاب الدين . . مدد يابو الكرامات . . يابو ريشة مدد . . ياندهة المنضام يابوريشة ، يا بوريشة ياسند المنضام . . والسعد فى ركابك خدام . .
(يستلقى على الحصيرة لحظة بين اليقظة والغيبوبة ، بين الحقيقة والحلم ، فيدهمه كابوس، نسمع فيه معه رنات عالية لصاجات رقص تدوى فى داره — من كل ناحية مرة — ويثب واقفاً وهو يرتعد من الخوف) .

obeikandl.com

(تضطرب حركاته وتلفتاته المخبولة مع رنات الصاجات التى تأتيه المرة بعد المرة من هنا ومن هناك) .

أبو ريشة يظهر ظهوراً فجائيا (شأن تهاويل الكوابيس) وقد علق فى كتفه بندقية من بنادق الخفراء ، وفى يده صاجات رقص . وهو مجذوب بلا لحية ، متوقد الشخصية ذكى العينين ، وفى حزامه مجموعة مجلات وصحف قديمة معلقة بفتلة ، وفى ركن عمامته طرف قلم بارز مديد الطول .

عبد الصمد : كراماتك يا أبو ريشة . . ياندهة المنضام ، يا بوقلم سيد الأقلام .

أبو ريشة : (ينتقل بخفة ويطوف بالدار على إيقاع الصاجات فى حركات ذكر راقصة) مدد مدد عبد الصمد . . مدد مدد عبد الصمد . . مدد مدد عبد الصمد . .

عبد الصمد : (يعبر عن سعادته بالمعجزة بهتاف عصبى) خدامك ومحسوب كراماتك عبد الصمد أبو فرماوى .

أبو ريشة : أبو ريشة له أحباب ، يسعدها بالنغم ، أما اللى حظه خاب ، ياويله م الألم ، تتفتح الأبواب ، بالريشة والقلم ، والكل يبقوا أحباب ، الديب والغنم !

عبد الصمد : (يهتف) والله يادار عبد الصمد نلتيها من غير ما تطلبيها . .

أبو ريشة : جيتلك و بابك مقفول . . ومخك مسطول . . جيت لك ما بين يديك وعينيك . . وقلبى غضبان عليك . .

عبد الصمد : دنا غلبان . وعيان . ومطحون . وكل منهو بيفعص فيا شوية .

أبو ريشة : لكن نفسك كبيرة يامفعوص .

عبد الصمد : أنا واقع فى عرض الريشة والقلم .

أبو ريشة : إزاى تاخد من بركات الفص ، من غير ماتقسمه معايا بالنص ؟

عبد الصمد : والله ماحاشنى عنك غير أبو جنب . . سامحنى أبوس إيدك .

أبو ريشة : لوجتنى كنت شميتك وعفيتك : ورجعتك مبسوط لبيتك .

عبد الصمد : أدى احنا فيها .

أبو ريشة : (يعاود الحركة الراقصة ، فيقلده عبد الصمد) :
لف معايا لف . .
لف معايا لف . . .
لف معايا لف . .
(يتوقف أبو ريشة فجأة عن الرقص ، ويستمر عبد الصمد فترة قصيرة يتطوح وحده) .

أبو ريشة : أنا اللى ماسك عنك العمدة والغفير وحايش عنك بلاوى كتير .

عبد الصمد : مدد يامسكت الحكام . ياداهة المنضام . يامفسر الأحلام ياحامل الأقلام . يا بو الصاجات بترن ، بترن ، بترن . . .

أبو ريشة : (يتناول البندقية و يرفعها فى يديه) بص.. جودة الغفير
: إدانى بندقيته . . سلمنى سلاحه ونام .. والعمدة باس إيدى ... وشيخ الغفر اللى راعب البلد يشوفنى يضرب تعظيم سلام . . والبيه الكبير كل ما أقصده يفتح درجه الكبير ويبسطنى . . امسك البندقية .

عبد الصمد : عمرى ما مسكت سلاح .

أبو ريشة : امسك البندقية !

عبد الصمد : لما بالمس سلاح إيدى بترعش .

أبو ريشة : امسك البندقية (ويشرع فى الرقص ضاربا بالصاجات بمجرد انتقال البندقية إلى يدى عبد الصمد الخائف) : العمدة فى إيدى والكل عبيدى .

عبد الصمد : (يرفع البندقية عالية بين يديه و يدخل فى الرقص) : العمدة فى إيده ، والكل عبيده .

أبو ريشة : العمدة فى إيدى ، والكل عبيدى .

عبد الصمد : العمدة فى إيده ، والكل عبيده .

أبو ريشة : اللى تحت ساكتين . .
واللى فوق مبسوطين . .
دعواتى مطمناهم !
نغماتى منياهم !
صاجاتى مرقصاهم !

عبد الصمد : مدد يابو القلم مترين . .

أبو ريشة : (بعد كل جملة دقة واحدة بالصاجات) :
مطمنهم بدعواتى !
منيمهم بنغماتى !
مرقصهم بصاجاتى !

عبد الصمد : وأنا والله لولا وجع جنبى لأرقص معاك للصبح . . لو عندى صحة وفوقان لأرقص وأضحك وأحب الدنيا . . أنا ما أقدرش أضحك . . ما أقدرش أرقص . . لكن برضه ما أقدرش على زعلك ياسيدنا . .

أبو ريشة : (فى طرب وانسجام ، يعاود الحركة الراقصة) .
لف معايا لف . . .

لف معايا لف . .
لف معايا لف . .
يدوخ عبد الصمد فى الرقصة ويقع فى نهايتها على الحصيرة . ويختفى أبو ريشة كما ظهر .

عبد الصمد : (يفيق فلا يجد عنده بندقية ولا مجذوباً) بسم الله الرحمن الرحيم . . بسم الله الرحمن الرحيم . . السماح يا أهل السماح . . الرضا يا أهل الرضا . . جه منين ؟ راح متين ؟ . . حلم وإلا علم ؟ علم وإلا حلم ؟
يتكوم على الحصيرة ، ثم فجأة ينبعث واقفاً على طرقات جديدة على الباب .

جودة : (صوت من الخارج) افتح ياعبد الصمد يابو فرماوى .

عبد الصمد : ياترى مين ؟ ياترى حلم ؟ ياترى علم ؟ ياترى إيه ؟ ياترى ليه ؟ ياترى مين ؟

جودة : (صوت من الخارج) افتح ياعبد الصمد يابو فرماوى .

عبد الصمد : (يدور فى البيت فى لوثة) ليلتك سودة ياعبد الصمد يابو فرماوى . . . مد إيدك للكلبشات ياعبد الصمد يا بو فرماوى . . جت لك الحكومة ياعبد الصمد يا بو فرماوى . . حكمت المحكمة يا عبد الصمد يابو فرماوى . .

صوت جودة : أنا جودة الغفير .

عبد الصمد : (يلطم وجهه فى رعب) جودة جالك جودة . . جودة جالك جودة . . ووراه إنشا الله العمدة والنيابة ونفسك فى إيه يا عبد الصمد يا بوفرماوى . .

يستسلم ويفتح فتتعالى أصوات المولد ، وينفسح الطريق فى خوف ليدخل الغفير وبندقيته معلقة بكتفه ، ويرد الباب . .

جودة : مالك يا عبد الصمد ؟ بتترعش كده ليه .

عبد الصمد : هو كده أبوجنب ، لما يستلمنى يرعشنى ويرعش أبويا .

جودة : سلامتك يا بو فرماوى .

عبد الصمد : تسلم وتبرقى عن قريب بإذن واحد أحد شيخ غفر .

جودة : بيقولوا المشيخة ماطلعتش من عيلة أبو مسلم من أيام سيدنا نوح .

عبد الصمد : بس انت تزينها عن هريدى أبو مسلم .

جودة : عايز الحق ؟ . . لأ . . أنا أحب النوم وهو صاحى . . مفتح ومنجل . . حتى لو خطف له تعسيلة بينام زى الديب . . عين مغمضة وعين مفتحة . . ومسنود من فوق ياجدع . .

عبد الصمد : ربنا يكفينا شر الجميع .

جودة : (يتجه نحو الزير فيقفز عبد الصمد أمام الشوال) لحمة سيدى شهاب الدين بتعطش .

عبد الصمد : الكوز مش نضيف . . عندك القلة مينها عجب . . قربع وانبسط وارجع زى الصقر لزمام الناحية !

(ما إن يفرغ جودة القلة فى حلقه حتى يسرع عبد الصمد نحو الباب) . .

جودة : (بتلكأ) سمعت حكاية الواد صابر أبو خضرة ؟

عبد الصمد : (يمسك فجأة بالبندقية ويفحصها) بذمتك ياجودة ما غفلت الليلة ولا رمشك اللى فوق لمس رمشك اللى تحت ؟

جودة : ما حصلش .

عبد الصمد : حدش لعب فى بندقيتك ؟ تكونش سلمت سلاحك لحد ولا انتش فاكر ؟

جودة : لا شوف بقى ! . . تبقى لما تأخد فص من الواد بركات نقسمه سوا . . علشان ما تخرفش .

عبد الصمد : شفت حد دخل عندى الليلة ؟

جودة : لا . .

عبد الصمد : وما سبتش الدرك ولا دقيقة ؟

جودة : مسافة ماخطفت رجلى لحد دار الحاج نعمان خدت منابى من اللحمة ورجعت . بتسأل ليه ؟

عبد الصمد : (يوارب الباب) مع السلامة ياجودة .

جودة : بقى ماعرفتش حكاية الواد صابر أبو خضرة ؟

عبد الصمد : تصبح على خير ياجودة .

جودة : ليه وليه يقول لامراتى ما تروحش تخبز آل فطير فى سراية البيه . . العمدة بعت شيخ الغفر يجيب صابر . . مرات صابر فقعت فى وشه بالصوت . . ياناس ماهش عايز حريمه يخبز لحد غيره ! !

عبد الصمد : الدرك فاضى ياجودة !

يخرج جودة ويقفل عبد الصمد الباب ويتكوم على الحصيرة ، ويهمد لحظة . ثم يشهق فجأة من الرعب وهو يعتدل على ركبتيه .

(الكابوس الثانى)

عبد الصمد : الشوال . . الشوال . . الشوال بيلعب . . (الحركة تزداد فى الشوال ، فيلطم فخذيه بكفيه) حوستك ياعبد الصمد . . الشوال بيلعب . . (فوهة الشوال يسقط

عنها الرباط : وتبدأ رأس عباس الصرماتى فى الظهور)
الحقنى يا جودة . . مدد يابو ريشة . . أى واحد فيكم
يلحقنى . . الحقنى ياشيخ الغفر يابوعين مفتحة وعين
مغمضة . . ماهو اللى طالع لى راخر عين مغمضة
وعين مفتحة (يبدأ الصرماتى فى الخروج من الشوال)
أنا فى جاهك ياسيدى شهاب الدين . . أنا فى عرضك
ياسيدى عباس ياصرماتى .

عباس : (يتمشى فى البيت بعينه العوراء وفى يده مخرازه الطويل مترنماً بنفس نغمة « لف معايا لف » :
عد معايا عد . . .
عد معايا عد . . .
عد معايا عد . . .

عبد الصمد : أعد إيه . . ؟ إيه اللى هنا أعده ؟

عباس : الصرم القديمة .

عبد الصمد : نعم ؟ !

عباس : عد الصرم القديمة .

عبد الصمد : لا مؤاخذة . . أنا افتكرت اللى حاتقول لى عدهم نسوان !

عباس : (يقرب مخرازه من عين عبد الصمد) عد الصرم القديمة .

عبد الصمد : أنا خدام الصرم القديمة . .

عباس : قدامك أهيه . . آدى كوم . . وآدى كوم . . وآدى كوم . .

عبد الصمد : حاضر .

عباس : عد الكوم ده الأول .

عبد الصمد : حاضر .

عباس : واعمل لك همة .

عبد الصمد : حاضر حاضر . . حاجة حاجة يامؤمن . . داشىء كتير ماله عدد ! !

عباس : ودول سايبهم ليه ؟

عبد الصمد : أنا أصلى واخدهم بالدور كوم ورا كوم .

عباس : ودول فيهم فردة لوحدها ليه ؟

عبد الصمد : علىّ الحرام من وهيبة ما شفتها .

عباس : انت حرامى . . سرقت فردة !

عبد الصمد : أعمل بها إيه ؟ دانا طول عمرى حافى !

عباس : فين الفردة الناقصة ياحرامى ؟

عبد الصمد : طول بالك دلوقت تلاقيها . . المال الحلال ما يضعش .

عباس : دى الصرم اللى رقعتها فى خمسين سنة . .

عبد الصمد : ربنا يزيد ويبارك !

عباس : بتقول طول عمرك حافى ؟

عبد الصمد وكعابى مشققة .

عباس : يعنى عمرك ما نفعتنى ؟ يبقى كفاية عليك عين واحدة (عبد الصمد يصرخ عندما يقترب المخراز من عينه ، فتظهر صرخته الدكتور عمر وكأن الأرض انشقت عنه هو الآخر ، ووجهه مبتسم ، وهو فى معطف ناصع البياض . .)

عمر : مالك ياعبد الصمد ؟

عبد الصمد : عباس الصرماتى عايز يعورنى .

عمر : عباس ؟ هو فين ؟ دانا عايزه . . دانا بادور عليه . .

obeikandi.com

عبد الصمد : أهه . أده .
عمر : دانا محتاجه . . دانا مشتريه . . دانا بيني و بينه تار . .
عبد الصمد : استلمه . . أهه . . شيل الله يبارك لك .
عمر : تعال ياعباس .
عباس : لما أشوف الفردة الناقصة راحت فين .
عمر : تعال ياجاسوس . . تعال لى فوق الكوبرى . .
عباس : كوبرى ؟ كوبرى إيه . . أنا مش بتاع كوبرى . . أنا بتاع الصرم القديمة .
عمر : دانا مشتاق لك يابتاع الكوبرى !
(يخرج من جيب المعطف ساطوراً كبير الحجم)
أنا تارى بايت
عبد الصمد : يجعله مبروك عليك !
عمر : ناقصنى تمرين كتير .
عبد الصمد : شيل واتمرن وانبسط ، ربنا يحظاك !
عباس : عايز منى إيه ؟
عمر : أرد لك جميلك .
عباس : أنا ما أعرفكش .
عمر : إزاى ؟ دا حنا اتقابلنا كتير قبل كده . . وأنا عارفك وانت عارفنى . . أفكرك ؟ . . فاكر البيه والعمدة وشيخ الغفر بتوعك عملوا فينا إيه على الكوبرى ؟ بوم بوم بوم . . فاكر كوبرى عباس ؟
عباس : اللى عمرى ما شميت عليه نسمة .
عمر : أنا شميت نسمته . . بوم بوم بوم . . لا مفاوضة إلا بعد الجلاء . . الجلاء بالدماء . . مش هو اللوا هريدى أبو مسلم بتاعك اللى بوم بوم بوم . . تعال تعال . .

أنا لازم أتمرن للجايات اللى أكتر من الرايحات .

عبد الصمد : (بينما يختفى عمر وعباس يرتمى على الحصيرة) لف معاهم لف . . عد معاهم عد . . دوخ معاهم دوخ . .

عمر : (يعود إلى الظهور وحده بسرعة خارقة والساطور فى يده ملوث بالدم وعلى معطفه بقع دموية كبيرة) خلاص ياعبد الصمد . . خلاص . . ريحتك منه .

عبد الصمد : ربنا يريح قلبك .

عمر : وأنا كمان ارتحت .

عبد الصمد : اتمرنت ؟

عمر : شرحته . . وفتحت دماغه وقريت اللى فى مخه . . إصحى بقى وفوق وفرفش واضحك وارقص .

(يختفى ، ويهمد عبد الصمد فوق الحصيرة ، ويعلو فى الخارج نباح كلاب تخرسه صيحة عالية من صيحات الخفراء) .

عبد الصمد : (يتقلب ثم يفرك عينيه ويجلس ، ويجد الشوال على حالته التى تركه عليها بركات) وبعدين فى الليلة اللى مش فايته دى ؟ . . جم منين ؟ . . راحو فين ؟ يكونش الفص بتاع ابن مبروكة لحس عقلى ؟ . . أكونش اتجننت . . آدى الفرن . . وآدى القلة . . وآدى الزير وآدى غطاه . .

(فجأة تشتد على بابه طرقات تدفعه فى هذه المرة إلى حالة من اللامبالاة) والله ماقادر أقوم بقى من مطرحى . . اللى قادر يخش من الحيط زى اللى دخلوا يتفضل واللى مش قادر يرجع !

بركات : (صوت من الخارج) افتح ياعبد الصمد .

عبد الصمد : مين النوبة دى ؟ إنس وإلا جن ؟

صوت بركات : أنا بركات ياعبد الصمد .

عبد الصمد : احلف انك بركات .

صوت بركات : والله العظيم بركات .

عبد الصمد : طيب جدك اسمه إيه ؟

صوت بركات : عبد الغنى أبو كمبورة .

عبد الصمد : وأمك ؟

صوت بركات : مبروكة . . افتح بقى .

عبد الصمد : (يحبو من الحصيرة إلى الباب ويفتحه على حذر ، فينقض منه بركات ويغلقه بسرعة دون أن يصحب دخوله فى هذه المرة أى صدى للمولد) ماكان لسه بدرى

بركات : (زائغ العينين مضطرب الحركة) اسكت ياعبد الصمد بحق الليلة مهبب مش عارف ليه . .

عبد الصمد : وأنا اللى جرى لى الليلة بسببك ماينحكيش . . فين الدكتور عمر ؟

بركات : (يقرفص عند الشوال) الدكتور عمر راح طنطا .

عبد الصمد : طنطا ؟ يعنى ماهش جاى يشيل الشوال ؟

بركات : لا ماهش جاى . . الحاج نعمان جت له نوبة القلب على غفلة والمولد برد . . والناس نازل عليها سهم الله . . بحق الحلو . . !

عبد الصمد : ياليلة مش فايتة . .

بركات : الحاج نعمان فى حالة الخطر .

عبد الصمد : واحنا اللى مش فى حالة خطر ؟

obeikandi.com

بركات : الدكتور عمر قام على طنطا بالعربية علشان يجيب الدكتور رفتح الله بتاع القلب . . حايفضى لنا بقى والا يشوف أبوه . . دبرنى ياعبد الصمد .

عبد الصمد : شوف أما أقولك بقى . . شيل وارحل . . تبيعه تحرقه خلصنى منه والسلام . . انت سامع ؟

بركات : حا أشيل ياعبد الصمد يا خويا . . حا أرجعه . .

عبد الصمد : ترجعه ؟

بركات : أنا قدامى غير كده ؟

عبد الصمد : ترجعه فين ؟

بركات : مطرح ما طلع . . هو مش له طربة ؟

عبد الصمد : وحياة منصور ابنى ديب القرافة عنده دم عنك .

بركات : مافيش نصيب . ناولنى شوية مية أبل ريقى .

عبد الصمد : رجعت الميه من زورك .

بركات : حا أشيله . . طمن قلبك . . حانشيله يا أعز الحبايب سوا بإذن واحد أحد .

عبد الصمد : سوا ؟ أنا ياوله ؟

بركات : أمال يطلع عليه النهار عندك نروح احنا الاتنين فى داهية ؟

عبد الصمد : أنا مالى وماله ياجدع ؟ أنا بابيع ميتين والا لى بهم أى اتصال ياوله ؟

بركات : احنا دلوقت رقبتنا فى حبل واحد .

عبد الصمد : أيوه . . لف ياخويا الحبل على رقبتى انت راخر لف . . لف . .

بركات : ايد تشيل وايد تفحت لحد مانرجعه مطرح ماطلع ويادار مادخلك شر . . أمال حانعمل به إيه ؟

opeikano.com

حانخلله ؟

عبد الصمد : بقى دى عيشة اللى أنا عايشها ؟
لا أنا صاحى ولا أنا نايم . . .
لا أنا حى ولا أنا ميت .
لا ورايا ولا قدامى . .
والف . . وأعد . . وبابع . .
وآهو جالى بتاع شيل معايا شيل ، افحت معايا افحت ، اتشنق معايا اتشنق . .

بركات : توبة ياشيخ على إيدك إن عدت أبيع أموات تانى ، انشا لله يكون الميت بميت جنيه .

عبد الصمد : وان حد مسكنا فى السكة ؟

بركات : أقول انك لا تعرف أنا رايح فين ولا شفتك من أول الليل .

عبد الصمد : والشيالة عليك ، أنا وسطى مفكوك .

بركات : ماشى كلام الجدعان .

عبد الصمد : ومن صباحة ربنا لا أعرفك ولا تعرفنى ، ولا لسانك يخاطب لسانى ليوم القيامة .

بركات : ماشى كلام الجدعان .

عبد الصمد : قوم الفع بلوتك .

بركات : (ينحنى ويساعده عبد الصمد فى رفع الشوال) زقة لاجل سيدى شهاب الدين هات لى ابن الفرطوس على كتفى .

عبد الصمد : (يوارب الباب ويتأكد من خلو الطريق) جودة نايم بيشخر . . قدامى يا ابن مبروكة ، ياما جاب الغراب لامه .

بركات : (وهو ينوء بحمله) ياما حمول وشلناها يانوسة . .
وحياتك بعد كام شهر ما أنا إلا بايعه له برضه . .
بس المرة دى عضم ! ! !

(ستار)

obeikandl.com

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

obeikandl.com

obeikandl.com

فى عصر كل يوم كنت أقوم بهذه الرحلة البغيضة ، فأقبع فى ركن العربة والعصابة على عينى والخادم ذو العين الواحدة يصف لى بعض ما نمر به فى الذهاب والعودة بين العباسية حيث كنا نسكن وشارع (فؤاد الأول) حيث كانت عيادة الطبيب ، فكأن « سمعان » هذا كان عينى فى محنتى .

وكنت أدعه يصور لى بأسلوبه الفذ ما تقع عليه عينه الواحدة وأعكف على فصول حياتى الساذجة الصغيرة أتمثل فى ظلام الأربطة صورها ، ولم تكن أول مرة قدر لى فيها أن أخضع لمبضع جراح العيون ، ولن تكون فيما أحسب وأحس الأخيرة . لقد سبق لى أن عانيت هذه المحنة فى فناء مدرسة شبرا الابتدائية ، هناك فى ذلك الركن القصى حيث نصبت تحت شجرة الجميز تلك الخيمة البيضاء التى جعلتنا ننظر فيها ولا نقربها ، ونسمع عنها أكثر مما ترى أعيننا منها .

وكنت ، منذ جاءتنا الخيمة بمعداتها ، وطنت نفسى على يوم رهيب فى الأيام ، ذلك بأن عينى كانتا مريضتين منذ الحداثة وهما أبداً مثقلتا الجفن . وكان حتما أن يجىء دورى ، فسرنا ذات صباح إلى الخيمة صفاً من سبعة أطفال أبرياء مطرقة رءوسهم واجفة قلوبهم كأنهم يساقون ظلماً إلى المشنقة . واستقبلنا الطبيب فى ردائه الأبيض وهو يقلب فى وعاء من الزنك عدداً من الأسلحة المعدنية البراقة ، وثمة تلك الرائحة الكريهة القوية الخاصة التى أبغضها إلى اليوم وأبغض معها عيادات الأطباء ومخازن الأدوية ، الرائحة التى تضم معانى الصحة والمرض فى جوها الحاد الثقيل .

obeikandl.com

وفى ظلام العصابة البيضاء ، أذكر تلك اللحظات القاسية التى عشناها فى تلك الخيمة .. وقد وقفت أرقب رفاقى إذ يحملون الواحد تلو الآخر إلى «المشرحة» فيرفع «شارب الدماء» ذو الرداء الأبيض سلاحه بيمناه فى غير اكتراث : ويمد يسراه فيفتح بأصبعين منها عين «الضحية» ويدفع جفنيه إلى الوراء فى غلظة مهنية تعودها وألفها . . ونغلق نحن عيوننا حتى لا نشهد المبضع وهو يهوى «فى» عين الصديق ، وإن هى إلا دقائق معدودات حتى نرى صاحبنا العزيز يخرج محمولا على الأعناق بدون ضجة أو اهتمام . . .

وتعود إلى ذهنى صورة عودتى إلى البيت فى ذلك اليوم البعيد فى عربة كهذه العربة : ومعى هذا الخادم الأمين نفسه الذى ألفت أن يقوم لى مقام بصرى كلما حجبت اللفائف نور الدنيا عن عينى ، وكيف حاول «سمعان» فى الطريق أن يضحكنى ويسلينى ، فلما بدا لى أن أسأله كيف فقد عينه وعما فعل يوم أن فقدها . أضحكه هذا السؤال وقال إنه ظل يبكى بالأخرى حتى بدا له أنه قد يفقدها أيضاً إذا أمعن فى البكاء فكف عنه وقنع بقسمته . .

فى ذلك اليوم تعلمت أن الأمور فى هذه الدنيا نسبية قبل كل شىء . .

ورأيتنى بعين الذكرى أدخل البيت فأنال من أهلى عطفاً جميلا ، ويعدنى أبى هدية طيبة أختارها يوم يرفع الحجاب عن بصرى ، وكان عجباً أن يقع اختيارى على «نظارة سوداء» . . ثم تقبل خالة لى فى مثل سنى كانت فى ذلك العهد تقيم معنا فتقول لى : إن «فوزية» تسأل عنى وقد رأتنى أدخل البيت فى رعاية الخادم والأربطة حول رأسى فخشيت أن يكون قد أصابنى شر فى الطريق . . وأنهض فى حراسة هذه الخالة الصغيرة فأقف فى النافذة . وأسمع على الفور من ناحية بيت فوزية صوتها المشفق يسألنى فى حنان ولهفة عما أصابنى . . ثم لا أكاد

أجيبها حتى تكون يد قاسية قد ردت النافذة فى عنف ، وإذا هو أبى قد دخل علينا لينهانى فى غضب عن مخاطبة تلك « المرأة » . . .

وتنساب بى العربة وأنا أتمثل فى الظلام محيا «فوزية » التى كانت أسرتى تمنعنى عنها وتغلق فى وجهها النوافذ كلما سمعتها تناديني من بيتها القريب وما كانت تدعونى لتلحق بى أذى : بل كنت أجد عندها ما لا أجد فى بيتنا من الروح والأنس والمحبة . .كانت فوزية « صديقتى » . . نعم صديقتى الوحيدة فى الشارع . . وكانت فى العشرين ،وكنت دون العاشرة . . وكانت حسناء . . نعم ، الحسناء الوحيدة فى الشارع . . وكانت تلبس كغيرها من النساء ، لكن فى زينتها قليلا من التكلف والإسراف لم يكن يخفى علىّ ، ولم يكن يسوءنى وإن ساء غيرى . . كان لها عطر يدير الرءوس ، ويعطر الأنفاس ، ويذيع من حولها فيمس القلوب كعصا الساحر ، ويقول عنه أبى إنه « فضيحة »تضج منها السموات .

نعم ، كانت غانية . . .

ولم تكن هى تحدثنى عن حياتها ، ولكنى فهمت مما يتطاير حولى من الهمس أن صديقة طفولتى تكسب عيشها من هذه التجارة المريبة التى كانت أول مهنة احترفتها المرأة . . وكان أهل الشارع يكرهونها ويسبونها ويغلقون فى وجهها أبوابهم ، وترتسم على وجوههم أمارات المقت والاحتقار لذكر اسمها . . وكانت هى تعرف ذلك وترضخ له وفى عينيها هذا الظل الشقى التعس الذى كنت أحبه فيها وأحبه ماعشت فى عيون النساء .

وأحسبنى كنت الشىء الوحيد الطيب الكريم البرىء فى حياتها .

فى أول مرة رأيتها كنت مع رفاقى نلعب الكرة فى الشارع الضيق الطويل ، وبعض النسوة من ساكنات الشارع قعيدات النوافذ والشرفات والمشربيات يتفرجن على لهونا وصخبنا ، فهن المشتركة معنا فى اللعب بنصائحها تسديها من مقامها العالى ، والعابثة بما نحن فيه من لعب كأنه

الجد ، وانتى تود لو نزلت إلينا تمرح مرحنا وتضحك الحياة وتغضبها معنا . . وكأن على أن أدير ظهرى وأضرب إلى الوراء الكرة المصنوعة من الجوارب القديمة ، فما كدت أتهيأ لقذفها حتى حدثت ورائى معجزة صغيرة : ذلك أن حدة النقاش التقليدى بين رفاقى تلاشت دفعة واحدة حتى كأنهم اختفوا من المكان فى غمضة عين ، وصدرت فى الوقت نفسه حركات غريبة من النوافذ والشرفات . فالتفت محجماً عن إرسال الكرة لأتبين الأمر ، فرأيت زملائى قد تجمعوا صفاً إلى الجدار وأبصارهم رانية إلى مدخل الشارع . وتتبعت ببصرى أبصارهم المتحفزة المتطلعة ، فما وجدت شيئاً يستحق أن يكف له الأطفال عن الحركة والجدل ، وتختفى رءوس النسوة من هذه الفتحات اللائى يعرفن الحياة ويطللن عليها من وراء خشبها . . وإنما كانت هناك فتاة مقبلة تتهادى فى شيء من الرفق والعجب . . حتى إذا ما أصبحت منا على خطوات ، رأيت الرفاق الصغار يتنازعون بينهم أمراً فى همس خطير ، وما كادت القادمة ذات الجمال والدلال تمر بهم حتى انطلق الصف كله خلفها كأن هزة كهربائية واحدة قد حركته ووجهت إرادته تلك الوجهة الواحدة المنكرة :

— الملعونة . . الملعونة . .

واضطربت خطا العابرة ، وانسدلت أهدابها على وجنتيها ، واصطبغ بلون الدم محياها الحزين . وتقاصت أناملها فوق حقيبة يدها ، وعضت أسنانها شفتها ، وكأن الدموع توشك أن تطفر من عينيها لتستدر الشفقة والرحمة من أولئك الطغاة الفجرة الذين كان صوتهم الرهيب المنكر يتبعها كظلها ، وهم يدقون أكفهم الصغيرة دقاً منغوماً على وقع الكلمة الظالمة . .

وعندما ثبت إلى نفسى صرفت رفاقى بلسانى ويدى عن هذا اللهو العنيف الظالم ، ولم تلبث العابرة أن اختفت فى أحد أبواب الشارع غير بعيد من بابنا . بعد أن التفتت نحوى فى إيماءة شكر وعرفان . .

وما كادت تفعل حتى عادت الرءوس النسوية الفارغة تبرز فى فتحاتها . وتصايح نسوة الشارع الضيق الطويل . وكان عجباً أن أسمع هؤلاء النسوة اللاتى احتجبن عند مرور المنبوذة : قد انطلقن يصفن معطفها وثوبها ويتحادثن حديث العارفات عن نوع قماشهما وثمن المتر منهما . ولم تنس إحداهن أن تحث أولادها على قطع الطريق عليها كلما خطرت فى الشارع . بعد أن نالتنى بالسخرية وتوعدتنى برفع أمرى الفاضح إلى أبى المدرس الذى « لا يعرف كيف يربى أولاده قبل أن يتصدى لتربية أولاد الناس . . »

وتنساب بى العربة دائماً بين العيادة والبيت ، وفى مخيلتى هذه الصور القديمة العزيزة . و (سمعان) ماض فى « إذاعته » لا يكف عنها إلا ليسعل أو يبادل العربجى الحشاش نكتة لطيفة أو دعابة عابرة . . وإنى لأجسم الأمانى فى ظلامى : فأتخيل أن فوزية ستلقانى بعد هذه الأعوام السبعة ، وستلقانى من جديد وفوق عينى هذه العصابة البيضاء . فأتنسم فى الظلام عطرها الذى لا ينسى ، وتحنو على كما كانت تحنو على عهدنا الماضى . فتأخذنى فى ذراعيها إلى صدرها ، وتذوب على يدى عطفاً ودموعاً وقبلا ، وتغمر كتفى وخدى ورأسى المعصوب بقبلاتها الممتزجة بالدمع والعطر . .

ولست أكتم عن « سمعان » هذا الذى أحلم به يقظاً ، وإنه ليسخر منى فأنصرف عنه غاضباً إلى ذات نفسى أنطوى عليها وراء ظلماتى ولا أعود أعبأ به إذ يذيع بطريقته الفريدة وصف ما نمر به من المناظر والحوادث ، وهو يفعل ذلك فى صوت جهير يلفت أنظار المارة ؛ وكان هو لا يعجبه هذا الالتفات فيشتبك أحياناً فى معارك كلامية مع أولاد البلد ، وقد يحلو له أن يلتحم مع بعضهم فى « قافية » يطرب لها صاحبه العربجى الحشاش وإن كانت تملؤنى ذعراً . ففى ذات يوم ، وكنا نجتاز فى عودتنا ميدان العتبة الخضراء الذى كان بحاله القديمة مدينة

obeikandi.com

كاملة غريبة . توقف « سمعان » فجأة عن إذاعة آخر الأنباء . وسمعته يطلب إلى الخوذى أن يأخذ بلجم الخيل لتكف عن السير . ثم أحسست به يقفز من العربة إلى الشارع وهو يهتف بى فى دهشة وفرح صادق « إن فيك يابنى شيئاً لله . . »

ومالت العربة على جانبها الأيمن وقد هدأت الخيل وأوشكت أن تكف عن الحركة المنتظمة السريعة . . ثم ذاع من حولى العطر القديم الذى طالما عطر أنفاسى وأيامى ، واحتوانى جسد دافئ وطوقتنى ذراعان وأطبقت على فمى شفتان حارتان وتهادت العربة فى رفق وقد أصبح الخادم الظريف إلى جوار السائق يحكى له قصة لا أسمعها . .

وهمست حين خلى بينى وبين الكلام : فوزية ! !

فلم تجبنى من فورها ، فقد كانت — بين البكاء والضحك — مضطربة لا يقر لها قرار ، وأفعم روحى عطرها المألوف ، واضطراب جسدها الملتصق بى ، ودق قلبى فى صدرى كالطبل ، وانقلبت أرض الله الواسعة عربة يجرها زوج من الخيل العجفاء فى شارع صخاب من شوارع القاهرة ، ثم أشربت روحى ذلك الصوت الحبيب يهتف بى : حدثنى ما بال عينيك ؟ ألا ترحمانك أبداً يامسكين ؟ وهل كتب على ألا أراك إلا وعلى نور عينيك حجاب ؟ . . أتذكر عهدنا ؟ . . أتذكر كيف كنت تسعى إلى ملتمساً طريقك براحتيك ، فأدخلك بيتى ، وأسكنك صدرى ، تنام فى أمنى ، وتصحو على حبى ، أبكى لنفسى فتبكى لى ، وأضحك لك فتضحك للدنيا ، فما كانت الحياة عندنا يومئذ إلا دموعاً وضحكات . .

قلت : ما أحسب عيناى أكتفتا يا صديقتى ، وأكبر ظنى أنهما لن تدعانى طويلا قبل أن تطلبا إلى فدية جديدة عن نورهما من دمى وأعصابى ، ولكنى أعدك وأشهد السماء أننى لن أسلم فى المرة القادمة

obeikandi.com

تسليماً فليست المسألة لعبة بعد كل هذا الذى عانيت وإنما هى مسألة فيها نظر !

قالت : مسكين ياحبيبي . إننى أهب أعواماً من عمرى ثمناً ليد سحرية تهبط الآن فترفع عن بصرك الحجاب لأرى روح الرجل الذى حل فى عينيك مكان روح الطفل ، ولتمتحن من فورك أثر السنين السبع فى صديقتك التى فرقت بينك وبينها الليالى . .

قلت : إنى لضنين على الزمن بهذه الساعة الرائعة ، ولا يعجلنى أن أحث البصر ، فإن حرمانى المؤقت منه يجعلك تسبغين على هذا العطف اللذيذ الذى قد أحرم بعضه متى ارتد . . . ثم إن لى فى هذا التصور فى الظلام لذة الخلق الفنى . . انى أتصورك الآن ، وأراك رأى العين ورأى القلب ، وأتحسس محياك بأناملى ، وأتخيل رسمه البعيد الراسخ فى مخيلتى ، ويرسم خيالى خطاً متموجاً يلمع فى هذا الظلام كجدول من الفضة الذائبة يحدد لى شخصك الحبيب . فهذه ذروة شعرك حيث يبدأ الجدول الفضى رحلته وسط السواد ، وهذا هو يميل فى رقة فيعبر عن جبينك وعينيك وأنفك وشفتيك وذقنك ، ويدخل بعد هذا دخولا لطيفاً إلى حيث عنقك ويهبط بعده . . . .

. . . .

. . . .

. . . . . ثم يصل بى وقد تهدج صدرى ولهثت بأنفاسى إلى قدميك .

وعندما قالت لى ، فى إيحاء الأنوثة البليغ ، إنها سعيدة إذ ترانى قد بلغت مبلغ الرجال ، أحسست فى تلك العربة ، وفى تلك الساعة ، أنى أسعد رجل صغير فى العالم . . ولست والله أذكر ما أجبتها به ، ولعل سمعان فى مقعده العالى سمع طرفاً من حديثى ، فإن له أذنين كبيرتين

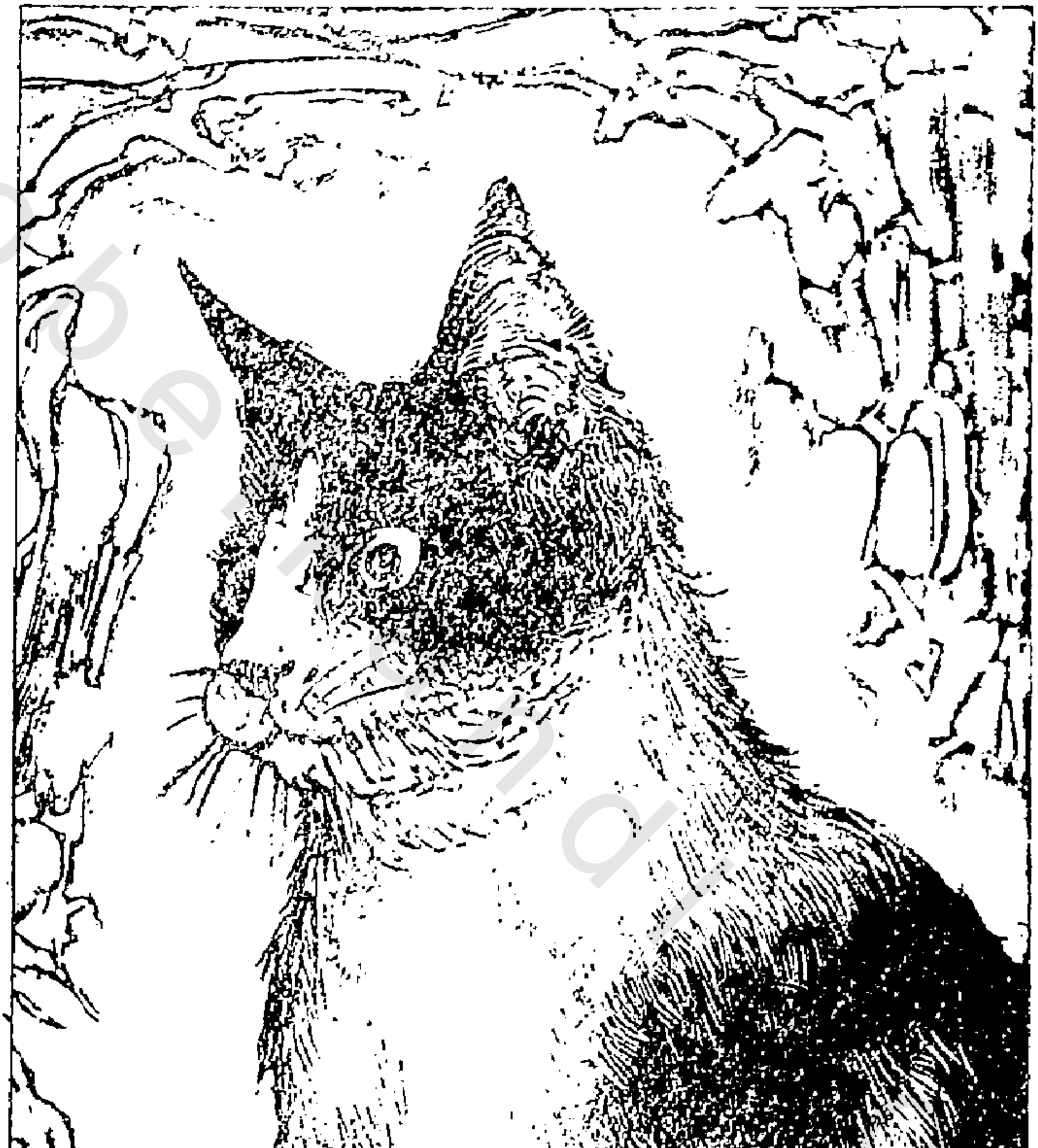

وإن لم تكن له غير عين واحدة . فقد سمعته يغالب الضحك وهو يهمس في أذن صاحبه الحوذي همساً خبيثاً ، ثم سمعت الحوذي يسعل وهو يهوى بسوطه على ظهر الخيل قائلا :

ـــ مسألة لم يعد فيها نظر !

openkandl.com

obeikandl.com

أسمع صوت أجنحة السكون الطائر فى هذا الليل الذى ضرب قبته فوق كوخى الريفى الصغير ، وحول حديقتى الخضراء المشرفة على النهر . والنهر يجرى تحت قدمى إلى غايته . وقد زارنى فى هذا الصباح طبيبى الخاص ، وقضيت الليل بعد انصرافه فى مقعدى الطويل بالحديقة حتى أقبل الليل وبين يدى كتاب ، وفى حجرى قطتى شهرزاد تمر راحتى على ظهرها فتقرأ لى ما تيسر من أورادها الغامضة .

والربيع من حولى كأنه القصة الضاحكة ، وقد جئت الريف مستشفياً من داء بشع أنقذنى منه ذلك الطبيب العظيم ، وما أرى من وجوه الأحياء إلا وجهه بين الحين والحين ، ثم صاحبتى بصدق حبها وكريم مودتها .

ولشهرزادى وقار وغموض إذ هى تتحرك فى خطى جدها الفهد ، أو تنام ممطوطة فى أحلامها ، أو تتخذ أحد هذه الأوضاع المترفة التى تجعل منها تمثالا يخلب اللب حيناً ويرجف القلب حيناً . . رفيقة وحدتى وفخر كوخى وسيدته ، توحى فيه بالحكمة ، وتملأ صمته بقوتها الناعمة وضعفها الساكن .

شهرزاد فى حجرى ، تمر أناملى فوق شعرها الدافئ فتحس تحته ذلك البدن الغض الحار وهذه الروح الصغيرة البريئة المعقدة تضطرب اضطراب الحياة والشباب . وأصابعى الفضولية تتخلل كساءها البديع حتى تبلغ نعومة وسادة قدمها ، فصدتها على الفور أطراف مخالب حادة هى تحت تلك الوسادة خديعة كبيرة . . وضايقها ذلك الإصرار الفضولى منى على الاطلاع على دخيلة قدمها ، فدارت بعنقها الراسخ

كأنها تهم بعض يدى عقاباً لى ؛ ولكنها على غير ماتوقعت لحست ظهر يدى بلسان كأنه المبرد، وبادلتنى النظر من عينها الصافية .

وأعجبنى وسرنى أنها — على غير عادة النساء — تتكلف هذا الإغضاء الكريم عن جرأتى . فقبلتها فى رأسها ، وبين عينيها المرتابتين المتكبرتين كعيون بعض النساء . . وقلت لها ، فى أذنها : إننا فى مايو ، شهر الحب . وإنى سوف أجلب لها صاحباً لينجبا لى سرباً ظريفاً من الأطفال العميان الأعزاء .

وكنت أحسب أنى أسرها وأرضيها ، ولكنها نظرت إلى غاضبة عاتية ، فأحسست بغتة تلك الرعدة اللذيذة الممتعة الغامضة التى ترمينى بها أحياناً هذه البكماء الصغيرة . وكنت مفلساً ، ولكنى كنت أحس هناء جديداً ساذجاً لا عهد لى به ، وكان طبيبى قد أذن لى فى تناول بضع كئوس من الخمر كل يوم . وقد طلع على فجر الليلة وأنا فى مقعدى هذا قد شربت من خمرى أطيبها ، وكنت أحدث نفسى : من الحمار الذى زعم مرة أن الإملاق متعة لذيذة ؟ . . كنت أحدث نفسى كأنها مخلوق آخر مستقل يعيش فى الكوخ معى ، وقد وضعت « لها » كأساً أمامى وجعلت أقول لها : « إننا زوج من الحمقى ، مشكلة بسيطة كهذه لا نجد لها حلا » . . فتقترح نفسى على : « لندع علاج هذه المشكلة مؤقتاً ونشرب كأساً جديدة أحدنا فى صحة الآخر » . . فرفعت كأسى فى يدى وقرعت بها الكأس الأخرى المليئة التى كنت وضعتها « أمامها » عند طرف المنضدة الآخر ، وقلت (لها) كأنها هناك حقاً تسامرنى : « فى صحتك » . . وخيل إلى أنى أسمع على الفور صوتها وكأنه صدى صوتى : « فى صحتك » . .

وسكتنا ، وطال سكوتنا . . وصمت الليل من حولنا لا يعكره سوى صوت أجنحة السكون الطائر فى الآفاق .

وقالت شهرزاد على حين بغتة : إنك ترتعد . أتراك تحس البرد

فى هذه الليلة الدافئة المشرقة من ليالى الربيع ؟ . . أم لعلك ذكرت ليلة أخرى قديمة كانت أيضاً من ليالى الربيع ، وكانت مشرقة صافية عرفت فيها سلطان ذلك الشيطان الرجيم الذى أوشك أن يحطم شبابك ؟ إنك ترتعد ، كأنك ماتزال تسير خلف تلك المرأة التى تتقدمك إلى القاعة ذات النور المريض الخافت والسقف المنخفض العريض ، وقد نثرت على أرضها حشايا ووسائد تمدد فوقها رجال ونساء ينتشر فوقهم سحاب من الدخان الأسمر . . لقد ارتعدت أمام ذلك المشهد الذى كان صدمة عنيفة لأعصابك ، وسألت قائدتك وأنت تود لو أخلى بينك وبين الخروج : أهذه وجوه قوم « نسوا » ووجدوا السعادة فى النسيان ؟ ما أظن هذا النسيان من الروعة المترفة بالقدر الذى صورت لى ، وما أظن الخيالات الطيبة ترقصهم وتفعم قلوبهم — كما قلت لى — بالفرح ، وما أود أن أبقى ، وإنما أبغى أن يقودنى هذا الغلام الذى فتح لنا الباب ، إلى الأحياء فى المدينة التى تمرح الآن فوقنا .

قلت لسميرتى : ولكنى لا أحب هذا الحديث ياشهرزاد !

قالت كأنها ماسمعت قولى : ولكنك بقيت ، ولم يقدك الغلام إلى الباب ، وإنما قادك وصاحبتك إلى حشية من تلك الحشايا المنثورة ، ورفع إلى كل منكما عوداً طويلا يمور فى بوتقته ذلك السر من أسرار الغيبوبة . . ومددت ، أيها المسكين ، إلى العود الذى يرفعه إليك الغلام الراكع أمامك ، يداً مترددة مشفقة ، ورفعته إلى شفتيك وداعبت بهما مبسمه ، ثم حزمت أمرك فجذبت منه نفساً قصيراً سريعاً . يالها من نكهة . . شىء طريف حقاً . . ثم أقبلت عليه ، وعلى أعواد بعده ، فلذت لك النكهة وتذوقت نشوتها ، وأدهشتك قفزات ذهنك العجيبة ، وجعلت المرئيات ترقص من حولك وتتناثر كالشظايا ، وخيل إليك أنك تسرع نحو سكينة النفس التى تنشدها ، وأن الصفاء الروحى الذى تفتقده يسعى إليك . . أتذكر ؟ أتذكر تلك الليلة البعيدة من ليالى

الزبيع ؟ . . أتذكر كيف ألقى الزمن السلاح وولى عنك هارباً : فلم يعد الماضى والحاضر والمستقبل فى وهمك إلا أنا واحداً ، وزين لك أن كل أولئك الرجال والنساء رفاقك فى السلاح ، وأنك تحبهم ، وأنك أخ لهم . . ألم يكونوا مثلك يبحثون عن دواء للسأم ومضيعة خطرة للوقت تجمع بين الأنفس الكسيرة على المحبة والرضا والصبر ؟ . . أتذكر ؟ . . أتذكر قلبك يامسكين وهو يرقص نشوان فى غفوته ؟ . . ولعلك فى ليلتك تلك النائية خلت أنك تشارف الحكمة وتقبض بيدك على صوبلجان المعرفة وتتربع على عرش الصفاء . . وعندما خرجت مع الفجر وأقبلت تودع صاحبتك . ضحكت وقالت : « إنك ستعود ، ستعود » . . فمضيت وكلمتها ترن فى وعيك كأنها كلمة القدر .

وسكتت شهرزاد فعادت أجنحة السكون تخفق فى الليل تريد أن تدفعنى من جديد إلى الجنون بعد أن دفعت عنى أطياف الجنون وتهاويله . . فقلت لصاحبتى وأنا أمسح على ظهرها : لا أحب أن تحدثينى بما أفر من ذكره وأرتعد من سطوته ، فكفى حديثاً عن الماضى الذى لن يعود وإن بقيت آثاره وإليك فانظرى هذا العصفور الجميل الذى أضله الليل وحيره ، فهو يتخبط فوق رأسينا فى ورق الشجر ؟

قالت : لا ياصاحبى ! ! إنك تحاول أن تصرفنى عن حديث أعلم أنك لا تحبه ، ولكنى أعلم أن شفاءك لن يستوفى حظه من الكمال حتى تسمعه فلا يفزعك ولا يشقيك ، وإنما يكون قصة من ماض بعيد تسمعها وترويها وأنت الصحيح المعافى الذى لا يخشى نكسة ولا يرهب مافات ولن يعود . . إنك رجل ضعيف لا عزمة لك ولا إرادة ، قد صاحت بك تلك المرأة وهى تودعك صيحة الإغراء ، أو لعلها كانت صيحة النذير ، وإذا بك تعود حقاً ، ثم تعود . . وإذا أنت مدمن مسكين أول دعواك وآخرها أن اللهم أحينى مجنوناً وأمتنى مجنوناً واكتبنى عندك فى كتاب المجانين . . نسيت كل شىء إلا ساعة النشوة . . وكان يزين لك

أن حياتك قد غدت حلماً رائعاً ، وأن هذا الساحر الذى قادتك إلى بابه امرأة من نساء الليل ، هو حقًّا ذلك « الوطن الواحد » الذى يبحث عنه الفلاسفة والمفكرون والمجانين جميعاً ، فيه رباط القلوب وقرابة الرجال ، وزوال فروق الجنس والدين واللغة والجاه ، وعن طريقه وحده تأتى إلى الدنيا كائنات جديدة متحابة متآخية تجردت من غلظة الكائن البشرى وصارت أذكى وأطهر وأسمى ، تتفاهم دون حاجة إلى لغة ، لأنها تتخاطب بعقولها الجديدة التى صاغها الساحر وترتبط تحت رايته بوثاق الأخوة والمحبة ودين السلام . . حدثنى عما وجدت فى الأفيون من حكمة . . حدثنى عنها يوم أصبح هذا السيد المطاع الذى أسلمت له نفسك وأبدلت به دمك فى عروقك يسيطر على حياتك . . وحدثنى عنها يوم تحس الموت قريباً منك دانيا إليك ، يقيم معك فى غرفتك إذا أقبل الليل ويتمثل لك فى كل لقمة تطعمها ، وفى كل سيجارة تشعلها ، وعلى حافة كل كأس ترفعها إلى شفتيك . . ألم يكن شبح الموت رفيقك وموكبك ؟ ألم يكن يطوف حولك يغريك بنفسك ويغرى نفسك به ؟ ألم يكن يحصد بدنك وروحك حصداً لا رحمة فيه ولا مهل ؟ . . أنسيت الليالى التى اعتكر فيها صفاء روحك ، وضلت حكمتك ونبضت شرايينك نبضها الأليم ، واحتبس صوتك وجلت مصيبتك ؟ . . ينزح ظمؤك لعابك ، ويترجرج مخك الملتاث فى جمجمتك الخاوية ، وثمة أيد باردة تجس بدنك وتتحسس محياك.. وتمضى الليالى ، وكلما زدت هذا البدن التالف وهذا الروح الهالك من السم الذى تسقيهما ، زادك شوقاً إليه وإلحاحاً فى طلبه . . . صرت تعيش عليه ، تحس الحاجة إليه قبل تناوله ، وبعد تناوله ، وأثناء تناوله ، دائماً ، دائماً . . ثم لا ينقذك إلا ذلك الطبيب العظيم الذى يحيى العظام وهى رميم . .

— كفى ! كفى بربك ياشهرزاد . . إنك تعذبينى . . وعذاب الآخرين لا يعنيك مادمت سعيدة ، ومادمت لك لذتك الموفورة . . إن

أنانيتك لا حد لها . .

فما راعني إلا هذه الطعنة تأتيني منها على غير انتظار :

– إن الأفيون إذن قد أتلف عقلك وأضاع إنصافك !

ولم أملك في غضبي الجائح إلا أن أرفعها وأقذف بها بعيداً ، وأدهشني أن أجد لهذه القسوة ، بعد إساءتها إلى ، لذة ومسرة في نفسي . .

وهممت أن أعتذر إليها ، وإذا صوتها من ورائي يقول لي : كذلك كنت أحسبك ، وأكبر ظني أنك وقد فعلتها سيلذ لك منذ اليوم أن تسيء إلى ، وأنك ستطردني يوم تفرغ من لهوك بي ، هذا الذي يتنقل بين الرقة والعنف ، وبين الرضا والغضب ؛ أو يوم تعرض لك قطة جديدة أنضر مني شباباً وأعز مكراً . . وما كنت أتوقع منك غلظة القلب وكان العفو أيسر ما أنتظر منك ، وقد وقفت عليك حياتي وشبابي ، وجعلت همي أن أدخل السرور على نفسك التي صرعتها في فجر الشباب بحماقتك ، أتمرغ على ظهري في حجرك ، وأبيحك جسدي الرخص العصبي تداعبه وتجسه وتنعم به ، وأقبل كفك وأعضها لك ، وأرفع رأسي إلى راحتك مادة عنقي ومسبلة أجفاني كعاشقة ، لأني أعلم أن هذه الحركة تثيرك وتعجبك ، بل ترضيك ، بل تأسرك . .

قلت : بل أكرهها . . وما أنت إلا أنثى ناعمة خطرة تحت هذا الكساء الأبيض الفاخر . . . إنك تخيفينني بضعفك . . إن مجرد لمسة منك تكفي أحياناً لبعث الرعدة في كياني العصبي كله . . والود الذي بيننا دائماً معلق بخيط . . وما أستطيع أن أركن إلى مودتك ، فهي في أصلها وحقيقتها أنانية مقنعة غادرة . . كلكن هكذا . . ناعمات ظريفات . . وعيونكن خادعة كاذبة . ولكن مخالب غادرة تحت الحرير ، وعشقكن عداوة ، وقبلاتكن السم المقسوم . . .

قالت في صوت ما سمعته منها قبل ذاك : يحسن بنا إذن أن يذهب كل منا في سبيله ، وقد بعتني فما يعنيك أن يشتريني هذا أو ذاك ؟

إنك لم تعد تصلح لعشرة جنسنا . . إن كل ما يستطيع أن يفعله الآن رجل مثلك هو أن يتأمل السماء حتى يموت . . أن يصلى : ويصلى ، ثم لا يكون له بعد طول الصلاة فى نعيم الأرواح الطيبة رجاء كبير . .

فجمعت نفسى الطعينة فى كلمة واحدة :

ــ اذهبى !

وغابت شهرزاد فى سكون الظلمات .

obeikandl.com

موسيقار خيصلك

كان عبد الرحمن يحب السهر ويطيب له أحياناً أن يطوف بصالات الرقص الصغيرة بعد انتصاف الليل وانتهاء العمل فى الجريدة ؛ ليشرب كئوساً من الكونياك المريب الحاسم ويتحدث ضاحكاً إلى السقاة والقوادين والراقصات وكل إنسان يلقاه .

وكانت صاحبة أحد تلك الملاهى صديقة له تحترم صفته الصحفية وترحب به وتشكو له هموم مهنتها ، وعندها فن هزيل ومرح مصنوع متوتر ونساء مطليات متوترات الأنفس بالرغبة فى الكسب والكحول والمخدرات وبالموسيقا الجعجاعة .

وإلى هذا المكان أخذنى صديقى الشاعر ذات مساء . . دفعنى إلى التاكسى الواقف أمام باب الجريدة قائلا إنه يعرف كيف تساورنى أحياناً الرغبة فى أن أخرج من جلدى .

ودخلنا من دهليز طويل ، بين صفين من الصور المعلقة ، وجلسنا حول مائدة قصية وطلبنا كأسين ، على حين كانت مغنية قصيرة ممتلئة تتأوه فى ميكرفون أمامها بصوتها المفجع ، والدنيا زائطة .

وفى الحال أخذ عبد الرحمن يتلقى التحيات من الجرسونات وبعض الزبائن السكارى وبنات المحل المبذولات وينتشر بلذة مريعة خارج ذاته .

ومن شفطتين من الكأس الأولى راح يدندن مع النغم الشاحب الفقير وهو يدعونى إلى الخروج من جلدى . .

وجلست إلى مائدتنا فجأة راقصتان . . وكانت إحداهما واسمها « شوشو » تعرف عبد الرحمن ، وهى بيضاء الجلد وممتلئة أكثر مما

يلزم لامرأة واحدة ، ويناديها العالم الذى تعيش فيه باسم « شوشو لظلظ »
أما زميلتها فكانت سمراء مهزولة تحفظ قاموساً من النكت المكشوفة
وكان اسمها « نعيمة » . . نعيمة زغزغ . . وكان دمها ثقيلا . . وبعد
ساعة كانت المائدة أمامنا قد امتلأت بكئوس الكونياك والويسكى
وأطباق الجزر المقشر والفول السودانى وأعقاب السجائر . . وكان
عبد الرحمن يفرد ذراعيه كالمجدافين وينهض بعجزه الهزيل عن الكرسى
ويتطوح كالمجذوب راقصاً ومطرقعاً مع النغم بأصابعه . . وإذا بامرأة
على المائدة التى وراءنا تطيل النظر إلى صديقى وتبتسم لمرحه وهى
تجرع فى ثبات كأساً من الكونياك . . وكانت وحدها .

جن جنون عبد الرحمن بمسحة من نضارة فى ذلك الوجه الحسن الثمل
الذى ابتسم له ، فنهض بقوامه الدقيق الطويل الذى لا يخفى الكثير من
بنيانه العظمى ، وقصدها وكلمها فقامت ومشت معه نحونا مترنحة
تكاد تنهار على الأرض فى كل خطوة . . وما إن اصطدمت بالكرسى
الوحيد الخالى عند مائدتنا حتى تشبثت به وشغلته دون أن تنظر إلينا ،
وقالت وهى تضحك :

— آدى حال الدنيا ! !

ونادى عبد الرحمن بصوته الخشن صديقه جمعة الجرسون وطلب
خمس كئوس جديدة : فقالت السكرانة وهى تشير بسبابتها إلى صدرها
العارى :

— الكاس بتاعى أنا . . دوبل . . .

ثم رفعت صوتها حتى جلجل فى ركننا كله :

— والدور ده على حسابى . .

بدأت أخص هذه التحفة باهتمامى ، تاركاً لصديقى الشاعر تنشق
عبير شعرها الثائر ومحاولة تقبيل عنقها ، بعد دقيقة واحدة من تعرفه
إليها . . .

كانت ثملة وكان هذا أبرز ما فيها ، لكنها ناضجة ، وقوية الشباب ، وثوبها أنيق ، وكأس الكونياك عندها جرعة تصبها فى حلقها ، ثم تقول للساقى الذى لم يكد يستدير لينصرف :

— واحد دوبل كمان !

وكانت تضحك . . تضحك باستمرار . . وفى ضحكتها رنة خبل . . سألها عبد الرحمن عن اسمها أكثر من عشر مرات ، فكانت تقول وهى تنفجر فى كل مرة بضحكتها الجوفاء التى ترن أحياناً رنيناً متقبضاً :

— اسم إيه انت كمان . .

— بتشتغلى هنا ؟

— أنا زبونة زيك . .

وقالت الراقصة نعيمة وفى صوتها نبرة ضيق واضحة :

— حضرتها أول مرة تشرف عندنا الليلة .

أما زميلتها الملطلطة فقد مالت على أذنى وهمست فيها وأنفاسها تضايقنى ببخار الكونياك الرخيص :

— دى شربت الليلة أكثر من خمستاشر كاس . . وبتدفع تمن كل كاس ساعة ما يجيبه لها الجرسون ، وتطلب غيره . . والكاس عندها شفطة . . جاية لنا منين الداهية دى مش عارفة . . .

فسألت شوشو وأنا أنحى وجهى عن لسع أنفاسها :

— رقاصة ؟

— إحنا عارفين . . دى الست فتحية نفسها فاتت مرة جنبها وحاولت تخش معاها فى كلام ما عرفتش . . والست فتحية قالت لنا فى الكواليس : نمرة مكشوفة . . البنت دى حاترجع بكرة وبعد بكرة ، زى غيرها ، وبعدين تتذل وتركع وتطلب تنزل الشغل . .

وسمع منى عبد الرحمن هذه المعلومات فى همسات سريعة متقطعة فزادته هوساً فى مغازلتها ، وظهر له أن اسمها توحة ، أما من تكون وكيف

جاءت وحدها فلا حديث ولا كلام .. وما من شك فى أن ما فتن الشاعر السكران منها هو غموضها ، حتى لقد راح يتحدث عن « أبى الهول المثل» وعن شعر مكنون فى عينيها ينتظر من يرتله . .

وكانت يداها العصبيتان تعصفان بأعقاب السجائر فى المنفضة وهى تنفجر بضحكة شهوانية ملتاثة كلما قبل عبد الرحمن كتفها أو عنقها . .

والموسيقا الرخيصة التى نحتقرها أنا وعبد الرحمن صارت تعجبنا حتى ندندن معها كالمهاويس . . سكرنا والمرأة تضحك بيننا ضحك الجنون وصارت الأنغام التافهة — وهى تمر فينا — تتحدث إلينا عن ثمول ، ولذة ، وهروب ، ولهيب . . وأن هذه الموسيقا المخبولة لتدفع إلى الشرب بغير حساب . . كلنا سكرنا ، ولكن توحة كانت بالوعة كونياك ، وكانت عيناها مع كل كأس تزدادان لمعاناً لا ندرى إن كان من نار داخلية ويأس ثقيل راسخ . .

ولحظت أن صديقى حصر هدفه فى إقناعها بالخروج من هذا المكان وأنها تسأله وهى تطلق ضحكاتها المثلوجة التى ضاقت بها آخر الأمر أعصابى :

— نروح فين ؟
— انتى تعبانه . . أوصلك بيتك ؟
— بيتى ؟
— أيوه . . النهار قرب يطلع ياتوحة .
— وبعدين ؟
— تعزمينى ، مثلا ، على فنجان قهوة .

لم يبد عليها أولا أنها فهمت غرضه الحقيقى ، ثم أدركت معنى ذهابه معها إلى بيتها فانفجرت فى هذه المرة بضحكة عاوية غريبة تمشت فى بدنى ذبذبتها كموج من صقيع .

وقالت له :

— طيب نشرب الأول كاس كمان . .

وأحسست فى تلك اللحظة يدا مترددة تستقر من خلفى فوق كتفى ، فالتفت واذا بزميلنا إسماعيل ، بكل تلك الطيبة التى تشع من وجهه الممتلئ وعينيه النهمتين . وكان سكران كعادته فى انقضاضه على هذا العالم ليتصيد أنثى . .

وصافحت إسماعيل وأنا أشعر أن عبد الرحمن وتوحة يقفان فى صعوبة وقال عبد الرحمن لنا وهو يسند رفيقته بذراعه :

— عال . مع بعض بقى لحد ما أرجع لكم . . كلها ساعة .

ومشى بها وصوت إسماعيل عابد النساء جميعاً يثقب أذنى :

— إيه دى ؟ . . منين دى . . وقع عليها إزاى دى ؟

ولكن المرأة لم تكد تمشى خطوات حتى تهاوت ، فأصدر إسماعيل من أنفه صوتاً اشتهر به ، وحمل عبد الرحمن صيده حملاً وخرج به وتركنى فى قبضة فضول إسماعيل .

والموسيقا تصرخ وتعول . . ونعيمة زغزغ الآن تتلوى على المسرح فى رقصتها الثانية والأخيرة بكل عريها الرخيص المنفر . . وصاحبى إسماعيل يعذبنى باستفساره الملح عن تلك المرأة . . هل سنراها بعد ذلك ؟ وهل أعرف المكان الذى أخذها إليه عبد الرحمن ؟ . . وكيف حال الجو الليلة ؟ وهل أنجزت أنا الاتفاق مع شوشو المرابطة معنا من أول الليل أم أن خيبتى ثقيلة ؟ . .

وربما كان قد مر ربع ساعة قبل أن يظهر عبد الرحمن مرة أخرى فى الباب — كالقذيفة المنقضة — ويناديني ، بصوته العريض ، من فوق الموائد المكتظة بالرجال والنساء . . .

وكانت عودته غريبة ، ولهجته خطيرة ، وفى مظهره جد عجيب طارئ ، فأسرعت إليه تاركاً لإسماعيل ، فتى الليالى ، متعة مسامرة الراقصة

ذات اللحم الأبيض . .

— إيه ياعبد الرحمن ؟ .

— ادفع بسرعة وتعال . . أنا فى التاكسى على الباب . .

لوحت لإسماعيل بيدى ليفهم أنى عائد بعد قليل ، ولكنه تظاهر بأنه لم يفهم . فخطر لى أن هذا هو إسماعيل الذى توقظ ريبته دائماً كل مسألة تتعلق بالنقود ، وأنه لا شك يخشى على عادته أن يكون فى الأمر مقلب مدبر له من ناحية دفع الحساب . . فأعطيته بقبضتى المشتبكتين عهداً اطمأن به قليلا وأسرعت إلى التاكسى الذى كان بابه مفتوحاً فى انتظارى . .

— مالك ؟ .

— اركب . .

— رايحين فين ؟

لم يجبنى عبد الرحمن ، بل صرخ فى السائق :

— لف بنا على كيفك شوية يا أسطى .

وهنا لمحت فوق الدواسة فى أرضية السيارة جسما جامداً منكمشاً على نفسه فى غموض . .

— الله . . دى . . دى توحة . .

— أيوه . . دى توحة . .

لم أدخل التاكسى ، وطارت الكؤوس التى شربتها من مخى ولم أعد أدرى ماذا أتصور . .

— مالها ؟ حصل إيه ؟

وتنهد عبد الرحمن ومسح على جبينه بيده المشعرة العصبية :

— حصل إيه . . فى التاكسى أول ماسبناك ابتدأت تضحك . . تضحك . . تضحك زى المجنونة . . وسابتنى أبوسها زى ما أنا عاوز . . وتضحك . . عقلى بقى حايطير . . وبعد شوية وقفت التاكسى قدام

عمارة ومسكتنى من إيدى وعينيها زايغة وجرتنى و راها لباب الشقة فى الدور الثانى . . وحطت فى الباب مفتاحها اللى طلعته بصعوبة من شنطتها وفتحت وقالت لى وعينيها بتطق شرر : « خش يا بنى آدم » . . ومدت يدها ولعت نور الصالة . . ترابيزة أكل وحواليها كراسى . . وفوق الترابيزة . . فوق الترابيزة . .

ونفضت جسمه كله رعدة قاسية . . .

وامتدت يدى بغير وعى إلى خصلة من شعر المرأة الملقاة فى الدواسة كالمتاع ، فأبعدتها عن فمها الذى يسيل منه اللعاب ، وسألته :

– شفت إيه ؟

– شفت كفن . . وعلى الكفن شفت بنت صغيرة عمرها يجى أربع سنين ، ميتة ! !

– ميتة ؟

– ميتة يا أخى . . ميتة . . وأمها . . الجنون ضحك لى فى عينها وهجمت على وصوابعها كانت حاتخرق عينى وهى بتقول : هى كل من شربت كاسين علشان تنسى بلوتها تبقى صيدة . .وجت تضحك تانى رحت طابق بكفى على بقها وجريتها على السلم بعد ما رزعت الباب قفلته على اللى متمددة فوق كفنها مستنية الصبح والحانوتى . . أغمى عليها فى السلم . . شلتها فوق كتفى ورميتها فى التاكسى ده . . أهيه . . أهيه . . بص . . اسمها توحة . . .

وهنا كان صاحبنا إسماعيل قد ظهر على باب الملهى ورآنا فانقض على نافذة التاكسى وثقب أذنى صوته الثمل وهو يقول لنا :

– مين حايدفع الحساب ياجماعة . . . ! !

obeikandl.com

هى : كل هذا الصمت . . .

هو : هل خيبت أملك ؟

هى : إنى أعجب لصمتك . . أما تقول شيئاً ؟

هو : أتراك كنت تنتظرين فى شخصى ثرثاراً عظيماً ؟

هى : لا : بل محدثاً بارعاً . . وما أحب الثرثرة ، ولكنى لما قيل لى إنى ألقى اليوم ذلك الكاتب الذى عشت طويلا فى قصصه ، أعددت نفسى فى طريقى إلى هذه السهرة العائلية للاستماع إلى ما لا أذن سمعت ولا نفس وعت .

هو : نعم . . هذه يا سيدتى العزيزة هى المشكلة الدائمة ، وإن الأمر لينتهى دائماً بصدمة . . وأكبر ظنى أن الكاتب لو اصطنع لكل من يلقاه من الناس أول مرة شيئاً من الأستاذية الحكيمة والببغائية المتعالية لفاز برضاه وإعجابه ، وربما بهره أيضاً ، فما أشد ولع الناس بأن يبهروا . . ولكنى لا أعرف إلا الصدق فى ظاهرى وباطنى ، ولا أعرف أن أتخذ لمن ألقاه مظهراً لا صدق فيه ، وأنا بطبعى رجل صامت ينطوى على نفسه فى تأمل أو يرقب الناس فى فضول . . والصمت البليغ عندى حديث كامل ولغة ، ولكنه حديث الأقلية ، وليس من سبيل إلى فرضه على الناس كافة .

هى : إنما خلق الناس ليتكلموا . .

هو : لو أحصيت السنين التى يضيعها الناس فى لغو الثرثرة لوليت من مجالسهم فراراً إلى عمق الصمت .

هى : ولكنك تسكت فتطيل السكوت ، وتسمع وكأنك لا تسمع . .

ألا تهز نفسك نكتة رائعة ؟ . . ألا تعرف كيف تطرح عنك ذات ساعة همومك ومتاعبك وأفكارك وتخلص نفسك للمرح وحده . . مرح الصبية اللذيذ الغامر . . أو مرح الخالين من الهم ، الناعمين بالعيش؟ . . إنى مارأيتك منذ ساعات تضحك من القلب . .

هو : إنّ لبعض النفوس ياسيدتى هموماً عميقة سحيقة الأغوار ، ومن الظلم للناس أن يحدثهم صاحبها بها . .

هى : أما فى هذه فأنت على حق . . . وهل يعرف الهم إلا من يكابده . .

هو : قد ينتفض الهم على سن القلم ، ولكن للقلم نفسه حياءه ، فما بالك باللسان . . ومن للناس بسر من يطوى النفس على ألمه السحيق ، و يقتات فى ليل الجراح وصمت الوحدة بالعميق الحارق من الأشجان والأحزان . . وبعض الناس أدرى من بعضهم ياسيدتى بالألم . .

هى : ملأت نفسى حزناً على هذا الصنف من الناس . . الذى لم ألق منه أحداً . . ألا حدثنى عن هذا !

هو : يحكى ياسيدتى أن رجلا كان له مخ من ذهب . .

هى : أهى أسطورة تلهينى بها ؟

هو : بل قصة حقيقية ، على ما قد يبدو لك من غرابتها . . وإنى أقصها عليك وأناشدك أن تسمعى بقلبك ، فهى باب أفتحه لك لتنظرى منه إلى آلاف من المساكين قد تختلف قصة كل واحد منهم فى بعض تفصيلاتها عن هذه القصة ، ولكن قصصهم جميعاً لا تخرج عنها فى صميمها . . هو إذن رجل كان مخه كله من ذهب . . وقد فحصه الأطباء الجهلاء صبيًا ، فما فطنوا إلى حقيقة أمره . . وقد زعموا لأهله يوم ولد أنه لن يعيش فما يعيش فى دنيا الناس مخلوق له هذا الرأس الضخم الثقيل الذى لم ير له الناس مثيلا . . ولكن الرجل ذا العقل الذهبى عاش . . عاش يجذبه رأسه الكبير ، ويقوده بين البشر ، وكأنه يجره جرًا ويدفعه دفعاً ، فيمضى متعثر الخطو يكاد يظن به الناس

الظنون . . وذات يوم سقط من أعلى السلم فى بيت أهله ، فصدمت الدرجات الرخامية جبينه الذهبى صدمة انبعث منها رنين المعدن الصافى . . فهب أبوه . . وهبت أمه . . وأقاماه من سقطته وقد شجت رأسه ، فإذا به قد سالت من جرحه اليسير نقطتان أو نقط ثلاث من . . . الذهب . . وقال أهله وقد علموا أن له مخاً من ذهب : ليكونن قرة أعيننا أسعد أهل زمانه ، بل أسعد من عاش على الأرض من البشر . . ولعلك ياسيدتى تخمنين ما كان عند ذاك من أمر أمه وأبيه . فقد كتما عن الناس أمره ، وادخراه سراً وكنزاً . .

هى : والصبى السعيد ؟

هو : أما الصبى المسكين فإنه لم يعلم يومذاك عن حقيقة قدره شيئاً فإذا بدا له أن يسأل أمه عن سر منعها له من اللعب مع رفاقه ، أجابته الكانزة بقولها : لئلا يسرقك اللصوص يا كنزنا الغالى !

هى : وهل تلقى الكنوز فى عرض الطريق ؟

هو : وعرف المسكين معنى الوحدة صغيراً . . الوحدة فى أهله ، والغربة فى الدنيا . . وعلمته الوحدة تحت ثقل رأسه أن يطرق فيطيل الإطراق ، وأن يتأمل فيحسن التأمل . . فلما بلغ من عمره الشباب حدثه أبوه ذات يوم وأمه تسمع بالسر العظيم . . وقرأ العقل الذهبى فى عينى أمه لمعة الجشع المروعة فروعه كنزه ، وبكى بين جنبيه قلبه ، فما كان يحسب أن تكون أمه أول الطامعين ، وما كان يدرى أنه أحد الموعودين بأن يعصروا للناس قلوبهم ، فامتدت يمناه المتشنجة ، ومن رأسه اقتلعت أناملها الحزينة المعولة قطعة من الذهب الحر الوهاج وألقتها فى حجر أمه . .

هى : لو كنت أمه . . ! !

هو : وبهرته قوته الوهاجة الجبارة ، ودار برأسه ثراؤه العريض ، وثملت روحه حيناً من الدهر بخمر الغنى والسلطان ، واستبدت به فى

زهرة العمر نوازع الشهوات ، فمشى على الشوك واحتضن الخطايا . . وهجر بيته وأهله . . ونثر فى دروب الحياة من ذهبه : كريما فى سفه ظمآن فى جنون . . خيل إليه أن كنزه لن ينضب . . نثر الذهب ذات اليمين ، ونثر الذهب ذات الشمال ، ونثره فى كل أرض بدون حساب . . وهل من نبع ياسيدتى لا يغيض ؟ ولكنه الشباب ياسيدتى . . وآه لو عرف الشباب . . فلما قام المسكين من نومه ذات صباح ، بعد ليلة أشبعها مجوناً وعبثاً ورواها متعة ونعيماً ، خفت على يده رأسه ، ونطق فى عينيه ذبوله ، وارتعش فى ضميره ضعفه . . ونظر حوله فإذا هو وحيد بين أطلال السهرة وأطياف الشهوة وبقايا الشراب . . وحيد كأنما ضربت من حوله صحراء من جليد . . من شر الفناء استغاث برب كان فى سوق الخطايا قد نسيه . . وإذا الذى نسى ربه يتضرع إليه ويناجيه لئن أبقيت لى سؤر كنزى لأكبحن شرة نفسى المحسورة ، ولأقبضن عن السرف السفيه يدى . .

هى : لو كنت أمه لما تركته للنساء يفترسنه . .

هو : لقد علمته الحياة ما لم تعلمه أمه ، فعافت نفسه اللذات واعتزل الناس ، وغلت يده إلى عنقه ، وسرى الشح فى دمه . . إذا دقت الفتنة بابه نام عنها ، وقصرت يده عن رأسه ؛ وتعلمت أنامله الصبر على بعد الذهب ، ولكن قلبه الملهوف الظامئ لم يلبث أن عشق أنثى أولعت بالطرائف الثمينة والأشياء الغالية والترف الداعر وزينة الحياة الدنيا . . كان محبًّا مخلصاً ، وكانت غاوية ضلت سبيلها . . أذابت بين أناملها أكثر ما بقى له من ذهبه . . وظلت تحاوره وتستدرجه حتى باح لها بسره . . لتلك التى كانت ، إذ يحبها ، تأكل رأسه . . وإن هى إلا أيام حتى هب المسكين من نومه ذات ليلة على ألم شديد فى رأسه ، كى يشهد فى ضوء القمر حبيبته وهى تعدو هاربة وفى قبضتها قطعة أخرى اقتلعت بالدم من مخه الذهبى . .

هى : حرام . .

هو : ولم يبق إذن من المخ العجيب غير بقايا . . حبات وذرات فى حنايا الرأس وحول العظام . . وكان ينتظره بعد ذلك الهول الأكبر . . حبه الصادق الشريف الكبير . . فقد عرف عاطفة بكراً لم يهتف بها من قبل قلبه على طول ما عرف النساء . . وخرج كالمجنون إلى شوارع المدينة ، يفكر فيمن أحب فى حزن كسير ، ويجرع غصص الندم على كنز أضاعه فى كل سبيل . . وكان الليل . . ورأى فى واجهة حانوت مضيئة بالنور زينة النساء ، ثياباً ومتاعاً وحلياً ، و بينها حذاء لطيف من الحرير الأزرق . . و بدا للشريد المسكين الضائع أن هذا الحذاء الرشيق إنما صنع لينعم بدفء قدم الحبيبة . . فتحسس رأسه فى وجل . . ولكن تردده لم يطل ، فحزم أمره ودخل الحانوت على حين كانت صاحبته فى ركن منه قصى . . ولكنها مالبثت أن سمعت صرخة صارخة مروعة ، فأقبلت فى ذعر . . ثم أدبرت فى رعب . . فقد وجدت أمامها رجلا يوشك أن ينهار ، وفى عينيه المحملقتين إليها نظرة تفيض بعميق اليأس وساحق الألم . . فلما نظرت إلى يسراه أبصرت الحذاء الأزرق الجميل على حين كانت على يمناه المبسوطة نحوها بضع حبات من الذهب المخضب بالدم . .

هى : حقاً إنه مسكين . .

هو : فاعلمى إذن أنهم كثيرون ، وأن كل واحد منهم يستحق منك هذه الهمة الراحمة . . كثيرون أولئك الذين ينظرون فى صمت ويتأملون ، ويتألمون . . أولئك الذين يمشون على الأرض هونا ، ويخلفون فيها عطراً ؛ والذين كتب عليهم أن يعيشوا من عصير قلوبهم . . . ولعلك تعلمين الآن ياسيدتى ، وقد استمعت إلى تلك القصة القديمة الحية ماذا يفعل المسكين من أولئك المساكين عندما تطحنه الرحى فيسحقه الألم ويسأم الحياة . .

بلا سيف

obeikandl.com

أستطيع أحياناً أن أتصور ما كان للموسيقى حتماً من جمال خارق في الزمان القديم الساذج ، عند فجر البشرية ، وهو الزمان الذى كنت أحب أن أعيش فيه . .

أتصور أن أول جماعة من البشر التقوا بواحد منهم يضرب الوتر فينفث أنغامه الفطرية قد ضجوا بين يديه بالبكاء فى فرح قدسى وخروا له ساجدين .

منذ ليال ، وعلى دقات الطبل يقرعه المارد الزنجى القابع على الأرض أمام نار الحطب ، فى ذلك الملهى القاهرى المعروف ، برزت الراقصة الزنجية « زامبا » بقوامها الفارع المهتز كضبابه أبنوسية مرحة ، وعلى أساريرها وفى أعطافها فرحة فطرية بالانطلاق والحرية ، فكأنها البركان يتوثب ليطلق الحمم ، وكأن عينيها العاصفتين المتكبرتين تبثان من حولها حياة جائشة دافئة ، وكأن خصرها ينثر فى كل انتفاضة مرسومة فكرة مجسمة ، وكان أعضاء بدنها الملهمة على وقع النغم الفطرى تصور فى صمت معجز أدق خلجات النفس وأصدق نبضات الروح . .

ورأيت الزنجى قارع الطبل ، فى إحدى لفتاته ، وقد افترت شفتاه المكتنزتان عن أسنانه البيضاء المنسقة ، يلوح بيمناه لصديقى الذى يشاركنى مائدتى بدون أن تنقطع الصلة السحرية العجيبة بين يده الأخرى والطبلة . .

قال : إن « زامبو » صديقى . . صديقى منذ عهد بعيد .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة وهو يقول لى : عرفته فى باريس قبل الحرب . . وهو فيلسوف ، وفنان ، وإنسان . .

وأتمت « زامبا » رقصتها الفطرية الجميلة وانحنت لجمهورها ثم اختفت وراء الستار ومعها زميلها قارع الطبل ، فلما عدت بعد قليل من حلبة الرقص وجدت صديقى الذى تركته وحده يجلس بين قوسين من « زامبا » و« زامبو» وقد صار كلاهما فى ثياب العصر . .

وكان واضحاً أن هذه لم تكن المرة الأولى التى يروى فيها « زامبو » قصته لغريب ، خضوعاً منه لرغبة صديق . . ولم ألبث أن تبينت أن العازف الزنجى الذى يوشك أن يبلغ الأربعين رجل يحب أن يستخلص من الوقائع عللها ، ومن الأحداث عبرتها . .

لقد أنفق طفولته وشبابه فى أرض لا سلطان لأحد عليها ، عند أحد أطراف إقليم من أقاليم القارة الأفريقية السحيقة التى يوطد الرجال البيض أقدامهم فى ربوعها . . وكانت الأرض بكراً ، ولا تدفع ضريبة ، ولا تفتح لأى أجنبى دخيل قلبها البتول ، ولا تقر لغير أهلها السود الأحرار سلطاناً . .

وكان « زامبو » سيد مقدراتها ، وزعيم شبابها . .

ما من رجل أبيض واتته الجرأة على اقتحام حدود الأرض الأبية إلا وجد نفسه تحت رحمة رماح « زامبو » وأعوانه الأشداء . . وهكذا عاشت القبيلة ذات الشوكة والبأس . . عاشت على الحرية والأمن ، وعلى المنعة والرخاء . . خيرات موفورة ، ورجال من المحاربين الأشداء أولى العزم والكبرياء ، وأطفال سعداء يمرحون أمام الأكواخ ، ونساء جميلات نهودهن المكورة على صدورهن كأنها أحقاق العنبر . .

ولكن البيض لم يلبثوا أن ضاقت عزتهم بتلك الأرض المتمردة العاصية ، فى قارة تنتشر عليها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ظلال سلطانهم . . كيف لا يبسط سلطانهم سطوته المرهوبة على تلك الرقعة الصغيرة من الأرض المدللة قلوب ساكنيها بحب الحرية ؟ . .

وتناهى إلى « زامبو » ورجاله نبأ ما يبيتون ، فأعدوا لهم ما استطاعوا من قوة

obeikandi.com

فلما أقبلوا عادوا بجرحاهم ، وخلفوا للأبطال السود قتلاهم ، والأسرى ، وأمجاد الذكريات . . ومرت الأعوام . .

ثم سمع الزعيم أن تلك المملكة من ممالك البيض قد بعثت إلى الرقعة الواسعة التي تحكمها من القارة السوداء قائداً جديداً يقوم فنه الجديد على مكر الثعلب ، وخفة النسناس .

وتبسم « زامبو » عن أسنانه المنسقة البيضاء ومد يده إلى كأسه الثالثة وهو يغمض عينيه الجميلتين اليقظتين كأنما يسترجع فى ظلام الجفون المطبقة تلك الأحداث البعيدة..

— وجاء من قومنا من يحدثنا بمدينة مسحورة أقامها البيض فى كبرى المدن التي يحتلونها من وطننا ، بناء ضخم فيه ألف شيء وشيء مما ابتكرت الحضارة وصنعت المدنية ، ومما يباع ويشترى ، وكل ما فيه رائع وجميل من البندقية إلى المرآة ، ومن القرط إلى المحراث ، وفيه فوق ذلك كله جياد خشبية تدور وتدور ، وأراجيح تعلو وتهبط ، ومغنيات ليس أجمل من أصواتهن ، وراقصات بيض حور حسان ليس أشهى من وصالهن .

وكان من الطبيعى أن ينتشر هذا النبأ فى قومنا كما ينتشر الجراد فى الأرض المنكوبة ، من الشمال إلى الجنوب ، ومن الغرب إلى الشرق . . فلما خفت تمرد رجالى بعثت إلى القائد الأبيض برسول يسأله : أيستطيع « زامبو » وحاشيته أن يحصلوا على كلمة شرف تخول لهم زيارة المدينة المسحورة والعودة منها بدون أن يتعرضوا لخطر أو غدر ؟ . . وعاد الرسول يحمل إلى إجلال القائد واغتباطه بهذه الزيارة الميمونة ، ووثيقة شرف يتعهد فيها بحمايتنا من كل سوء حتى نبلغ بعد زيارة المدينة مأمننا من وطننا . .

وهكذا ، فى صباح من الربيع ، دخلت فى طليعة رجالى تلك المدينة التي يسود البيض فيها السود . . وتلقتنا بالتحية بعثة ترحيب بيضاء . وقضينا أياماً جميلة فى الاستمتاع بروائع الحضارة المجلوبة من أقصى

الشمال ، ثم استبد بنا الحنين إلى الأوطان ، فعاد موكبنا يخترق شوارع المدينة ، وإذا بالقائد الأبيض نفسه ينتظرنا فى الميدان الكبير لكى يؤدى لنا بنفسه تحية الوداع . . ولم يكن معه حرس وإنما وقف إلى جانبه رجل أبيض آخر فى ثياب مدنية كان يشرف على قطيع من العمال الوطنيين يعملون دائبين تحت الشمس فى مبنى جديد يرسون قواعده . ولقينا القائد الأبيض بتحية عسكرية ، ثم قدم إلى زميله قائلا إنه « المهندس » القدير الذى يقيم هذا المبنى الجديد ، وإن صاحب المبنى من أبناء جلدتى الأغنياء ، وسوف يكون بيته هذا من ثلاث طبقات ، كأنه ثلاثة بيوت ركب بعضها بعضاً بسحر ساحر . . .

فسألته فى دهشة لا مزيد عليها :

– ثلاث بيوت لأسرة واحدة ؟

قال فى هدوء وإقبال :

– بل لثلاث أسر ، تدفع كل واحدة منها عن سكناها أجراً كاملا . .

– يدفعون لمن ؟

– للمالك طبعاً . .

– ومن هو « المالك » هذا ؟

– أى مالك . . كل مالك . . أنت مثلا . . تتفق مع هذا المهندس البارع وتدفع له نفقات البناء وأجره البسيط ، بعد أن تكون قد دفعت « للحكومة » ثمن الأرض . . ولكنك لا تلبث أن تحصل على كل مادفعت له وللحكومة ، من الأقساط الشهرية التى يدفعها لك السكان . .

– فهمت . . وهل يسع « المالك » الواحد أن يبنى أكثر من بيت واحد؟ . .

– بكل تأكيد . . أى عدد من البيوت تتسع لتشييده موارده .

– فهمت . .

openkandil.com

أجل . . كنت قد فهمت حقًّا . . وبلغ من فهمى أننى لم أعدقط إلى أرض آبائى وأجدادى . . تركتها نهباً لمن يطمع فيها . .

ورفع « زامبو» كأسه الرابعة إلى شفتيه ، ثم رنا إلى زميلته « زامبا » وقد ضحكت فى عينيه الجميلتين ابتسامة حزينة وديعة :

ـــ لن أنسى ذلك الثعلب الأبيض الداهية الخبير بطبائع النفوس . . . إنه لم يشهر فى وجهى سيفاً ، ولا أقبل على أرضى يسحب مدافعه ، ولكنه بكلمة واحدة بارعة قد استطاع أن يجعل من الثائر الوطنى مالكاً يشار إليه بالبنان ، ومن الإقليم المتمرد أرضاً خاضعة يسودها الهدوء !

وتولتنى الحمى فى المدينة ، فكم من أراض اشتريت وكم من عمائر بنيت . . لا ثلاث طبقات فحسب ، بل خمساً ؛ وستا وكم من قوم أسكنت فى بيوتى ، وكم من أجور دخلت خزائنى . . .

ولاذ بالصمت مرة أخرى ، وكأنما يسألنى أن أتصور وحدى باقى القصة وعاد يسترجع فى ظلام أجفانه المغمضة ذكريات ماضيه . . .

وكان يمكن أن تنتهى الحكاية عند هذا الحد ، لولا أن لمحت صاحبته فى عينى سؤالا حائراً فتولت هى الإجابة عنه . .

ـــ ولماذا إذن يطوف اليوم بمدائن العالم ، مع طبلته وراقصته ؟ . . تلك هى قصة المدينة التى تسترد بالشمال ما منحته باليمين . . لقد علمته بعدئذ كل شرورها وأذابت أمواله فى مباذلها وظلماتها . . وليس يأسى « زامبو » العزيز على شىء مما كان له . . إن كل همه الآن هو أن ينسى وأن ينيم ضميره فى حباب الكئوس المترعة . . ثم يعمد إلى طبلته فيدق عليها أمام نار الحطب بأنامله الملهمة ، وأنهض أنا « زامبا » زوجته فأهز أمام السادة المترفين والسيدات الرفيعات نهودى العنبرية وأردافى الأبنوسية ، ونكسب بذلك عيشنا . .

إننا اليوم ياسيدى ، قوم متمدنون . . . ! !

كان لقاء على غير ميعاد . .

ولو كنت أقل إيماناً بسلطان المصادفة ، لهزتني عندما لقيت في الليلة الماضية ذلك الفنان البوهيمي الصديق دهشة بالغة . .

ليلة البدر ، ولكن في السماء سحباً ثقالا ، مسفية دانية .

ومن المصباح القائم على واجهة ذلك البيت المظلم الساكن في الضاحية الوادعة من ضواحي القاهرة ، كان النور المطمئن الحالم ينبعث في صفاء هادئ ، وينير لي ساعة الوحدة التي هربت إليها من ذلك الملهى الأنيق الذي تعتز به تلك الضاحية والذي أنفقت فيه الساعات الأولى من الليل ، مستمعاً إلى الموسيقى والغناء ، ومتأملا ألوان الرقص وصنوف الناس — من أجانب ومصريين — ممن جاءوا إلى المرح العصري الصاخب يقتلون الليل . .

— معذرة . .

وكان الصوت الذي هتكت نبرته المهذبة ستر الوحدة من حولي لشاب وسيم تتدلى فوق جبينه الأسمر خصلة من شعره اللامع الأسود ، وتبرز من تحت قميصه الحريري الأزرق المفتوح عن صدره في الليل البارد عضلاته القوية الصلبة .. وكان قد بزغ فجأة من حيث لا أدري ، يريد أن يشعل من سيجارتي سيجارته . . وكان في هيئته ما يوحي للوهلة الأولى بأنه أجنبي ، فلما كرر رجاءه تبينت في لكنته الخاصة إذ ينطق الفرنسية ما ينم عن أصل أسباني . .

وسقط نور المصباح على وجه الشاب وهو يشعل السيجارة من عود الثقاب الذي قدمته له مشتعلا بين راحتي المضمومتين ، فخيل إلى من

فورى أنى أعرف هذا الوجه وأحسست أنى رأيته من قبل ، فى مكان ما من الأرض ، ومن الماضى ، منذ أعوام لا أدرى عددها . .

ورفع بصره إلى وجهى ليشكرنى ، فأومضت فى عينيه السوداوين بارقة دهشة ، وحدق فى وجهى قبل أن يقول لى وفى ملامحه أمارات محاولة شبيهة بمحاولتى للعودة بالذاكرة إلى الماضى :

— أيها السيد . . . ألم نلتق من قبل ، فى زمان بعيد ؟

قلت : سبقتنى بالسؤال . . . ولكنى لا أدرى . . أن لى ذاكرة متعبة . . ولكنى مثلك واثق أننا ، قبل الليلة ، التقينا .

قال : دعنى أقدم لك نفسى . . ربما كان فى ذلك ما ينعش ذاكرتينا ، ويبعث الماضى حيا . . بدرو . . بدور الراقص وعازف البانجو . . مدريد حتى ١٩٣٥ ، فرنسا من ١٩٣٦ إلى قيام الحرب . . كباريه « الجبسى » بالحى اللاتينى . . مونمارتر فى ليالى المعرض الدولى : بدرو وأنغامه الغجرية وزميلته التى كانت تراقصه أو ترقص وحدها على أنغام البانجو التى يعزفها . . دعنى أذكر اسمها ، فإنكم معشر الشرقيين تذكرون النساء دائماً دون الرجال . . « إيزابيلا » . . إيزابيلا السمراء كورقة التبغ ، الرقيقة كنسمة الفجر . . « إيزابيلا » ذات الصاجات والدف والعينين البديعتين بلون الشهد . .

وصدق البوهيمى الفنان ، فإنه لم يكد يرسم لى تلك الصورة السريعة بصوته الدافئ الأسمر وإشارات يديه اللاتينية المعبرة حتى انبعث من أحد أغوار ذاكرتى ذلك الماضى كله دفعة واحدة ، بكل دقائقه الهاجعة تحت أثقال السنين ، وشجى العيش . . كأنما مر ذيل ثوب « إيزابيلا » الأسود الموشى برقائق الدنتلا الحمراء على صفحة ذاكرتى فنقش فوقها سطور الماضى حية تتكلم . . وصحت وأنا أقبض على كتفى « بدرو » فى حماسة منفعلة :

— بدرو . . نعم الآن عرفتك . . يا صديقى العجوز . . أربعة عشر

عاماً ، عمرآخر يا « بدرو » . . إنى الآن أذكر كل شىء . . نعم ، كل شىء . .

— أجل . . لما لوحت لك أنا بصاجات « إيزابيلا » ، أيها الذئب المصرى العجوز . .

— قل لى يا « بدرو » . . ماذا جئت تفعل فى بلادنا ؟

— وهل لى صناعة تعرفها غير الرقص ، والغناء ، والعزف على البانجو ؟

— أين ؟

— فى هذا الكاباريه القريب . . وأنت . . ماذا كنت تصنع هنا وحدك فى الليل ؟ . . تطارد ظبية شرقية ناعمة من ساكنات هذا البيت . . وتحت المصباح تغنى لها ، وقد انتصف الليل ونام الناس . .

فرفعت له يدى اليمنى وحركت أناملى أمام عينيه فى نور المصباح . .

— لا يا « بدرو » . . انظر . . ألا ترى أن حتى فى القنص قد سقط برغبتى ورضاى ؟

وهاج « بدرو » فى الشارع الساكن وماج :

— رباه . القيد القيد . . لماذا صنعت هذا بنفسك يا . . ألا تقولى . . لى اسمك ، فقد نسيته كما كنت نسيت اسمى . . آه ، نعم . . هو هذا وكنت تحب أن تسمع « إيزابيلا » وهى تناديك ، لأنها دائماً كانت تنطق اسمك ملحوناً ، وكان اللحن يعجبك . . حدثنى الآن ، عن تلك التى استطاعت أن تضع فى أصبعك هذا القيد الرهيب . . . كيف حدث هذا . . لقد كنت حراً كالهواء ياصديقى . . ولكن . . أتسكن هنا ؟ . . لا ؟ . . فما الذى جاء بك إذن إلى هذه الضاحية فى منتصف الليل ؟

— كنت هناك فى الملهى . . ولكنى خرجت منذ ساعة أنشد راحة

أعصابى فى الوحدة والهدوء . . إن تلك الموسيقى الصاخبة البربرية يابدرو تقتل سكينة النفس! »

— لو انتظرت ربع ساعة لرأيتنى وسمعت أغنيتى الجديدة التى فتنت بها القاهرة . إنى يا صاحبى منذ شهر أبعث التنهدات بصوتى فى صدور هوانمكم الجميلات . . كيف لم يبلغك صيتى . . وأنت أيها العجوز ماذا فعلت بك الحياة . . ؟ . . وهل حبيبتك جميلة ؟ أهى سمراء ؟ ومتى عدت من فرنسا ؟ وماذا تصنع فى وطنك ؟

— أكتب . . .

— آه . نعم . . أذكر الآن أحاديثك لى ولإيزابيلا عن القصة والفن والأسلوب العربى . . وهل بلغت فى دنياكم هذه العجيبة شيئاً من النجاح ؟

— لا يا « بدرو » . . لا تحاول أن تغرينى الليلة بالحديث عن حاضرى ونفسى . . تعال نعيش فى الماضى . . فى ذلك الشىء الجميل العريق الذى بعثه لقاؤنا هذا الجميل العجيب . . « إيزابيلا » . . أهى معك هنا ، حبيبتك السمراء الفاتنة التى كانت تحبك حباً من السماء ؟ . . لكم أشتهى أن تقول لى : « نعم هيا بنا إليها . فأعود معك من فورى إلى الملهى لأقطف من ثغرها ، فى دهشتها قبلة » .

وأطرق « بدرو » وهو يشعل سيجارة جديدة ، فلما جلسنا على الرصيف جنباً إلى جنب تحت المصباح ، قال لى بدون أن ينظر نحوى :

— « إيزابيلا » قتلها جندى ألمانى ثمل فى منبارناس قبيل تحرير باريس . .

ووقع بيننا صمت عميق أليم ، وكان كلانا مطرقاً يتأمل أرض الشارع وهو يجذب من سيجارته أنفاساً قوية نهمة ينفثها فى الليل . .

وفجأة ، بدأ يهمهم بنغم مبهم خافت بدون أن يرفع بصره عن الأرض . .

وخيل إلى أن روحى تلتقط من وراء السنين ذلك النغم القديم الذى يسترجع أخى « بدرو » فى نفسه كلماته الرقيقة الراقصة . . ثم ارتفع صوته الرخيم العريض قليلا ، واستقام له اللحن فانطلق به قلبه ولسانه وليس ثمة سواى من يصغى إليه إلا السحب القريبة وذلك المصباح فوق رأسينا :

الليل يا « إيزابيلا » !
الرقص يا « إيزابيلا » .
أيتها السمراء كورقة التبغ !
العذبة كنسمة الفجر .
يا من تذكرنى عيناك بالشهد .
ويلفنى شعرك كما يطوى الليل السر !
هذه ساعة الرقص فقومى وارقصى !
الليل يا « إيزابيلا » . !
الرقص يا « إيزابيلا » !
هزى الدف فى يمينك .
وارفعى بيسراك ذيل الثوب .
وميلى أمام أبصارنا المفتونة واخطرى .
إنك حلم ليالينا ، وقصة هوانا كلنا . .
وهذه ساعة الرقص ، فقومى وارقصى !

وسكت « بدرو » وعاد ذلك الصمت يعيش عميقاً حياً تحت المصباح . .

كانت الأغنية القديمة قد حملتنى إلى صفحة بعيدة من صفحات الماضى النائية . . إلى ليلة عشتها منذ أربعة عشر عاماً فى قرية صغيرة

على ساحل فرنسا الجنوبى . . ليلة عيد انقلب الليل فيها نهاراً ، وضجت عذارى القرية طوالها بالغناء ، وأرسلت أجراس كنيستها الصغيرة العتيقة إلى السماء ضراعاتها المعدنية من خلال البرج القديم ، على حين كان تمثال ربة الغجر ، فى محراب الكنيسة المزدان بالأزهار والشموع ينتظر القرابين . .

الليلة السحيقة ، كأنها كانت منذ قرون . .

كنت يومذاك سائحاً فى الأرض جواب آفاق ، أحيا دائماً — كما يحيا أولئك الغجر أنفسهم — حياة القافلة . . وكنت فى ربيع عام ١٩٣٦ ، الرجل الوحيد الذى دخل الكنيسة الصغيرة بدون أن يحمل قرباناً . .

قلت لصاحبى « بدرو » تحت المصباح :

— أتذكر يا « بدرو » ؟ . . أنت وأنا راكعين أمام التمثال فى محراب الكنيسة الصغير ، وبيننا « إيزابيلا » ترتجف شفتاها بدعواتها الخافتة المتصلة ، ومن حولنا جموع الضارعين والضارعات ، وقد وضع كل غجرى وكل غجرية ما حمل من القرابين أمام تمثال تلك العذراء شموعاً موقدة .. وأحذية أطفال .. وقطعاً رقيقة من الوشى . . وصوراً فوتوغرافية للأحبة . . أين كانت نائمة فى أعماق نفسى هذه الصورة الحية البديعة ؟ . . فى السهول الخضراء المعشبة ، وعلى الطريق البيضاء المتألقة فى ضوء القمر ، تلك المواكب الغريبة من نساء عقدن خصورهن بالمناديل الحريرية ذات الألوان الفاقعة ، وتدلت من آذانهن الأقراط الضخمة ترقص حلقاتها على أكتافهن ، ورجال من عشاق الحرية الوثنية ، من كل شريد فى أطراف الأرض يقضى عمره على قدميه ، أو فوق صهوة جواد لا يعرف له هو الآخر وطناً . أو فى مركبة من تلك المركبات الضخمة التى تجرها جياد هزيلة عجفاء ، وتمضى كالأفكار الهائمة فى السهول والوهاد على أنغام قيثارة غجرية تنوح وتشكو فى الليل . .

open-arabic.com

قال « بدرو » وبصره عند شريط الأفق الراقص تحت نور البدر ، هناك بعيداً فى ثغرة بين بيتين بعيدين من بيوت الضاحية المصرية النائمة :

— كانت « إيزابيلا » تحب هذا الهيام تحت قبة الليل . . وكانت تغنى ، وكانت ترقص . . تغنى الحياة وترقصها . . وكانت تقول إنه ليس من حق أحد أن يسألها من أين هى قادمة ولا إلى أين هى ذاهبة فليس لأحد أن يسأل الشهاب المنطلق فى كبد السماء : لماذا يجول فى الليالى الزرقاء . .

مع ذكراها الطيبة عشت مع مواكب الغجر وقد أقبلوا من كل صوب يحملون النذور والقرابين إلى ربتهم العذراء التى يحجون إليها من قديم الزمان ، كما يحج المسلمون إلى مكة والمسيحيون إلى بيت المقدس. . . إنها عقيدتهم ووجدانهم ورمز غرامهم العميق الكبير بالحرية ، أخت الفن . . إن الجنون بالحرية هو دينهم . .

وعشت تحت السماء الزرقاء وفى ضوء القمر مع صبايا الغجر المترنمات بأغان تضطرم بالغزل الجرىء الملتهب ، أو تفيض بالحزن الذليل المنكسر . . وعشت مرة أخرى مع ذلك الغلام البوهيمى الصغير الذى رأيته يحمل « مندولينه » ويمضى إلى مركبة حبيبته التى لم تتم عامها الثالث عشر ، فيقف تحت نافذتها ويرفع صوته الصبيانى بأغنية حب ، ربما كان هو نفسه واضع كلماتها وموسيقاها : « افتحى نافذتك ياحبيبتى . . وافتحى قلبك ، ليدخل عطر هواى . . وإذا كان أبوك قد نام ، فليكن باب المركبة ما تفتحين » !

كان بينهما هواه والقبيلة كلها تسمع . . ولم يكن عليه من بأس ، فبعد بضع سنين يتزوجها ، وينجبان بنين وبنات ، وسيحب البنون ، وتحب البنات .

قال بدرو وهو يشعل سيجارة أخرى :

ــ كانت لنا حياتنا . . حياة جميلة . لكنها حرة . . كانت تموج فى الأغانى والألوان والعطور والأنغام . . كنا نملأ الليل . . وكانت لى فوق ذلك كله « إيزابيلا » . . « إيزابيلا » سيدة البنات السمراوات ذوات الشعر الطويل المحلول حول النار . . إنها تغنى . إنها ترقص . . إنها الحب . . شعلة من حياة ، تسبح فى الجوبنشوتها ، وتسجل فى رقصاتها أوضاعاً فنية جديرة بالخلود . .

قلت : حقًا . . لقد كنت أحس فى بعض الأحيان وأنا أشهد رقص إيزابيلا وتلك الأوضاع البديعة التى تهديها إليها فطرتها إن الدنيا تفقد جمالا جميلا جديراً بريشة الرسام وإزميل النحات ليخلد على الزمان . . ولست أنسى يا « بدرو » شعرها الأسود الطويل الثائر وراء ظهرها ، وكأنه إطار من الأبنوس يضم حسنها المذهل الفريد . .

قال ويمناه المرفوعة بالسيجارة إلى شفتيه ترتعد :

ــ وأتاها جلف ألمانى فظ فقضى برصاصة واحدة على كل ذلك الجمال وكل ذلك الحب . . أراد منها ؛ هى التى لا وطن لها ؛ أن تخون فى جسدها فرنسا التى تأوينا ؛ فأبت « إيزابيلا » ، وماتت شهيدة . . رأيت صدرها الذى طالما توسده رأسي المتعب الشاكى وقد مزقه الموت ، ورأيت دمها يسيل على يدى ، حارًا صارخاً . . الدم الذى كنت أعلم علم القلب أنه يجرى بحبى ، وينطق باسمى . . الدم الذى صاغت أحلامه أنغامى وهمساتى . . الدم الذى أراقته على أرض منبارناس رصاصة ألمانية قذرة ظالمة ، كانت موعودة يوم صبت فى مصنعها بتحطيم قلبى . . وحياتى . . . ودفنتها . . وعشت بعدها مجنوناً بحزنى . . . مقتاتاً بلوعتى ، مترنحاً بفجيعتى . .

ورفع « بدرو » عينيه المخضلتين بالدمع إلى المصباح الذى يعلو رأسينا ، وتأمله مليًا من خلال الدموع ، وخيل إلى أنى أسمع ضربات قلبه تحت قميصه الأزرق الخفيف وهو يهمس فى سكون الليل :

– حدثني بعض مواطنيك عن فلسفة « المكتوب » عندكم . . حسن ياصديقي .. كان مكتوباً أن يرى دموعي هذا المصباح المصري الحالم . . قبل أن أعود لأغني وأرقص عند البرابرة الذين اجتمعوا هناك ، ليقتلوا الليل . .

obeikandl.com

obeikandl.com

كنا قطيعاً من الغرباء ينتزعون رزقهم فى الأقاليم بلا رشاقة ولا عزة . وكانت أقدامنا المتعبة تظل فى الأحذية العتيقة أكثر من خمس عشرة ساعة فى اليوم . فهى لا تكف عن التثاؤب الأليم كأنها هى الأخرى أفواه ذابلة . وكانت عيوننا إذا داعبها الهواء الحر الطلق تتشكى وتطرف ، مجروحة من جمال النور.

وكان « محمد المصرى » أحد الرجال الأربعة فى الفرقة . . وفى الرواية المضحكة ذات الفصل الواحد ، التى تبدأ بها برامجنا منذ سنتين كان يقوم بدور الخواجة « خريستو خرلمبو سكلاريدس » تاجر القطن الأريب الذى يلفظ الحاءات كطلقات الرصاص ، وعليها نقط تثير فى جماهير الفلاحين الطيبة عواصف ساذجة من الضحك . . جاءنا من حيث لا ندرى فصار واحداً من هذه الجماعة العجيبة التى تضم مع رئيسها وأعوانه ثلاث نساء ، والتى تتجول باسم الفن فى بعض أنحاء الوجه البحرى حاملة اسم « فرقة التمثيل الراقى الوطنية » . . وكان له وجه هضيم ، ووجنتان ناتئتا العظام وشدقان غائران ، وحذاء يشد بعضه من خشية الفناء بعضاً فما كاد يظهر على المسرح فى سترته المهلهلة وقبعة الخوص المزرية ووجهه الملطخ بأصباغ فاقعة حتى يضج القطيع الطيب بالضحك والدعابة الخشنة ، وإذا مشى تأرجح فى الهواء عن غير عمد كورقة الشجر الجافة وهو ينظر إلى الأشياء من ارتفاع مترين . .

هذا الزميل الذى لقيته على طريق الحياة كان إنساناً لطيفاً وكلنا أحببناه ، الرجال والنساء . . وقد لفتنى إليه أول الأمر بؤسه الصارخ ،

ولقب غريب يطلقه عليه زملاؤه الرجال فى الفرقة . إذ ينادونه « محمد البخيل » فى بساطة يتلقاها بابتسامة شاحبة منكمشة . . ومنذ التقطت غريزته اهتمامى به صار يلقانى بمودة صريحة يؤثرنى بها : ويحنو فى أوقات فراغه على طفلى ممدوح الذى يجوب معى أرض البشر فى مهد من القش المجدول . .

طالما حاولت أن أجذبه إلى الحديث عن نفسه ، ولكم وددت أن أسأله كيف لا أراه مرة واحدة جالساً مثلنا إلى طعام . . وكان يطيب لنا ، أنا وزميلتى لواحظ . كى نحطم الجدار الذى أقامه حول نفسه وندنيه منا ، أن نداعب خجله ونحرج انطواءه .

— تاخد سيجارة يا محمد يا مصرى ؟

— ما أقدرش يامديحة يا اختى . . الحكيم محرج على . . أعصابى يا اختى ، بعيد عنك . .

— لا انت يظهر بقى زى ما بيقولوا عليك صحيح . . بخيل !

وتنكشه لواحظ فى فترات الاستراحة فى عبث حنون :

— حا اعمل قهوة يا محمد ياا مصرى . . تاخد معايا فنجان ؟

— ممنوعة يا اختى على . .

— من إيدى أنا ؟ . .

— تسلم إيدك الحلوة . . علشان بس ماتزعليش آخد فنجان . .

ونتأمله وهو يتذوق كل رشفة من االفنجان الفخارى الكبير .

— كويسة يا محمد ؟ . .

— تسلمى ياروحى . . أصل الحكيم بقى ما نعنى من المنبهات خالص . . قال لى أعصابك يامحمد ، لا تروح فى شربة قهوة . . صحة ما فيش يا اختى . . ربنا يسلمك ويحرس لك شبابك .

وتروح أيام وتجىء أيام ، ونزلنا بلداً وعرضنا برنامجنا ليلة بعد ليلة . . وحدث أن فتن ابن العمدة بلواحظ فبعث إليها مع « أنيسة هشتك »

بهدية من الفطير المشلتت ، وهمست لواحظ فى أذنى همسة فتظاهرنا بدعوة الجميع إلى الوليمة الفاخرة ونحن نعنى قبل كل إنسان فتانا المسكين . .

– يالا يا اولاد . . على حساب أولاد العمد . . اهجم يا محمد يامصرى على خير المنوفية قبل ما يبرد ولا يلهمه الأستاذ بركات ويتاويه . .

قال الأستاذ بركات مدير الغرفة وهو يتشمم الفوطة التى تحتوى الوجبة الدسمة ويمهد لانقضاض الجميع عليها :

– يا جماعة يمكن الفطير مش كويس على أعصاب الجدع . . !

لكن لواحظ الصغيرة نافحت عن فطيرة كاملة كانت من نصيب صاحب النصيب ، سلمت أعصابه . .

ترى أين أنت يالواحظ اليوم ... كنت يوم الفطيرة ترقين من الرحمة إلى المحبة ، طفلة لايزال ظل من النضرة الطاهرة يجول حائراً فى عينيها .. لأول مرة فى حياتك كنت تنتزعين قوتك . فتتعرين وترقصين فى الليل . حكاياتك كلها حكيتها لى . . لمديحة أختك الكبيرة التى عصرتها التجربة قبلك . . أمك التى أصابها العمى وهى مكبة على آلة الحياطة فى حارة بير جوان . . والمخلب البشرى الذى مزق وجودك قبل أن تتمى عامك الخامس عشر . . والقروش التى تدخرينها القرش على القرش لتحققى بها ، يوماً ما ، حلمك القهار : أن تعيدى إلى أمك البصر . .

أكل محمد المصرى الفطيرة ، ومرت الأيام والخلية دائبة وراء الستار الممزق والنور الصناعى المختنق ، على عمل تؤديه فى شىء من الولاء الغامض للفن بدون تفكير ، وبدون أن نحمل معنا ندماً ولا أسفاً ، ولا ذكرى . . بدون أن نحس إقبال الغد ولا إقبال الشقاء ولا الشيخوخة البائسة الباردة . . لكن لنا على الأقل هذا الحق : أن يجد كل منا كتفاً تؤاخى كتفه على الطريق المجهولة ويستمد من دفئها صبراً على الكفاح . .

جاء محمد المصرى مرة فجلس إلى جوار مهد طفلى وغنى له ، ثم قال لى :

– أنا باحب البنت لواحظ . .

– وهى والله تعزك يا محمد . .

فانحنى يهمس بترنيمة فى أذن الطفل ، ويخفى عنى نظرته .

– ماتتجوزها يا محمد ؟

– خايف عليها ، أحمل ذنبها ، وأنا مسكين . .

– اطلع يابخيل ، انت محوش . .

– ملاليم . .

– طيب لواحظ بتحوش علشان تعمل عملية لأمها . . فهمنا وآمنا . . إنما أنت تبخل على نفسك ليه . . حتى السيجارة ؟

– شوفى يا ام ممدوح يا اختى . أنا يلزمنى قبل ما نخلص الرحلة دى يكون معايا تحويشه كويسة . . عشرة جنيه . . أقله عشرة . . ولحد دلوقت ، بينى وبينك ، بقيت ململم قولى سبعة قولى تمانيه . .

مكنت صغيرى من ثديى وعدت أناقش زميلى . .

– ليه ؟ . . لازم حاتشبك الحبوبة ؟ . .

– أبداً . . لواحظ أنا عارف أنه حرام أتجوزها وأشيلها همى فوق هم أمها . . إنما أحكى لك وانتى تفهمينى . . بقى أنا عندى اتفاق أشتغل فى رحلة الصعيد الجاية مع فرقة الكوميدى الكبير بتاعة المسيرى من أول نوفمبر . . واحنا هنا قولى حانشطب ونلم عزالنا فى أواخر يونية . . يعنى بإذن واحد أحد ها أقعد عواطلى زى العادة يوليو وأغسطس وسبتمبر ويمكن شوية من يونية وشوية من أكتوبر كمان ، فوق البيعة ، وأنا يامديحة يا اختى جربت الجوع قبل كده وبينى وبينه معرفة . . أعرفه كويس ، وما بقتش بقى أستحمل المرمطة أعصابى . . ومعدتى . . وأسنانى . . كلى ولا صيت ولا فلوس ولا مستقبل . . العشرة جنيه اللى أحوشهم المرة دى

من تحت الضرس يوكلونى ويسطونى طول الصيف ، وبعدها يحلها ربنا والأستاذ المسيرى . . أما لواحظ . . خلينى بعيد عن لواحظ أحسن . . يعنى لازم تيجى مربطة البنية فى الدنيا على إديا أنا . . ؟

لكنها ما إن تظهر حتى أكاد أسمع بين ضلوعه المهزولة وجيب قلبه الخافق فى هيكله المتهافت . .

– يا صباح النور ياسى محمد . .

– يا صباح الجمال يا أخت النجوم . .

وتبرق عيناه ويكتسى الجلد فوق عظام وجنتيه الناتئة بشبهة من ماء يترقرق وأحس أن فى الدنيا حولنا نغماً يعلو على مصيرنا الذى يصرخ دائماً فى وجوهنا بأننا لم نخلق للسلام والراحة والهناء . .

* * *

صار بينهما شىء يعلمه الله وأحس معهما جماله يزدهر فى قلبى . . رأيته يخطف قبلة من يد لم تنسحب منه . . وشعشعت لهما روحى وهما يلوذان بنجواهما الرقيقة وراء ذلك الستار الممزق الذى يفصل وجودنا عن وجود الناس . . وراقبت فى حنان الأم كل ذلك التقدم البطىء المهذب لغرام حلو يشد الوثاق على رجل وامرأة يكافحان معاً فى الدنيا ويحصلان من مخالبها على القوت ، وشىء من هناء الروح . . يارب امنحهما قوة الحب يستعينان بها على هذا البلاء الذى اسمه الحياة . . ما ألطفهما وهى تقبل عليه فى رقة عذرية عجيبة على مثلنا فى النساء ، وتمد له يدها وفيها رسالة جاءها بها الخفير من فندق المركز حيث تركنا بعض متاعنا ونخط سيرنا . .

– اقرأ لى الجواب ده ياسى محمد . .

وتناول محمد المظروف من يد لواحظ وفضه وتأمل السطور الأولى من الرسالة قليلاً ثم قفزت نظرته إلى ذيل الورقة وقال لها :

– من الشيخ عبد العليم برضه . . !

ــ اقرأ لى يا أخويا . .

تنحنح محمد المصرى ثم تلا عليها :

حضرة بنتنا العزيزة الآنسة لواحظ المصونة ، طرف المحترم الأستاذ بركات أفندى مدير جوقة التمثيل الراقى الوطنية بجهة منوف .

« من بعد إهداء مزيد السلام والسؤال عن صحتك الغالية وصحة الست مديحة صاحبتكم ربنا لم يحرمكم من محبة بعض وكذا الست أنيسة تخبرك الست أمينة والدتك أنها حزينة جداً وحصل لها مرض من انقطاع مكاتيبكم من قبل ليلة نص شعبان الفضيلة بست أيام وعدم ورود أى نقدية من التاريخ المذكور . . خصوصاً وأن الدكتور عبد السلام بك الحكيمباشا عاوز يعمل ذا العملية يوم ١٩ الجارى وعاوز المقاولة مقدماً وحضرتكم لم ترسلى للآن أكثر من سبعة جنيه وستين قرش وفاضل الاتناشر والأربعين قرش غير سفلقة التمرجية ولزوم التغذية وخلافه وتحلفك الست أمينة والدتك بتربة والدك المرحوم أنك ياست لواحظ لم تتأخرى أكثر من كده فى ورود باقى النقدية لزوم العملية وإذا أمكن حضورك يوم ١٨ الجارى لحضور العملية تانى يوم يكون لكم الشكر . . ومن جهتنا قايمين بالواجب أنا وحرمى والبنت نفيسة كريمتى وجميع من بطرفنا يهدوكم السلام ختام » .

حسانين عبد العليم
صاحب البقالة الزينبية الوحيدة
حارة بيرجوان بالسيدة زينب مصر

* * *

أسدل الستار فى الساعة الواحدة من الصباح وأطفئت الكلوبات وخلت الساحة من الجموع المتثاقلة ، وبعد قليل توجه الأستاذ بركات وسلامة وعبد العزيز البربرى مع ابن العمدة إلى الدوار حيث كانت تنتظرهم « قعدة مزاج » ومعهم أنيسة هشتك لخبرتها فى تسليك الجوزة

ورصها وتوليعها ومنادمة روادها ، وخلت لنا الأرض الفضاء والسكون تحت سماء تلذ فى غيبة القمر رؤية نجومها .

جلست لواحظ على الأرض أمام المنصة الخشبية التى كنا طوال الليل نرقص فوقها ونغنى ، وتمددت إلى جوارها على مزقة من ستار قديم ووضعت رأسى فى حجرها وجعلنا نتأمل السماء فى صمت عميق . كان طفلى نائماً ، فى الداخل ، لكن أذنى المرهفة كانت تتوقع فى كل لحظة أن تسمع بكاءه . . وكان يأتينا من الحقول البعيدة رجع رتيب مريح من نقيق الضفادع ومن ورائه صدى ناء لأنين السواقى الدائرة على النهر البعيد . . وكان محمد المصرى راقداً على ظهره غير بعيد منا وعيناه تسألان النجوم وهو يمضغ بين أسنانه عوداً يابساً انتزعه من عشب الأرض وتأمله طويلا قبل أن يلوكه . وهمست لواحظ فى أذنى مائلة علىّ بوجهها وشعرها الطويل يغمرنى بأريجه الطبيعى اللطيف :

— محمد راخر ما اتعشاش !

تصورت فى الحال العشاء الدسم الذى هرع إليه فى الدوار رفاقنا الثلاثة وزميلتنا المرحة وقلت لصديقتى فى همس ضاحك وأناملى تتخلل شعرها :

— انتى فاكراه بيمضغ العود علشان جعان ؟ !

— لا . . بس شكله فكرنى أننا ماكلناش حاجة . . أقوم أجيب العيش والجبنة والبطيخة من جوه ؟ . . زمان المزغودة أنيسة بتنهش فى ورك الوزة . .

قالتها وعينها على زميلنا ، ثم نادته :

— محمد . ناكل لقمة ؟

اعتدل محمد ، وتأخر رده قليلا :

— نشق قبله البطيخة نشوفها قرعة ولا ايه حكايتها !

ونهض معتمداً على الأرض براحته وتأرجح قوامه الأثيرى نحو الستار

فرفعه وغاب وراءه قليلا ثم عاد وهو يضم إلى صدره بطيخة ، وفى يمناه سكين .

قال وهو يضع البطيخة على ورقة من جريدة قديمة ويشهر فوق قلبها سكينه .

— ممدوح لقيته عريان غطيته ، ونايم يا أختى فى أمان الله .

وطعن البطيخة فما إن سمعنا صوت انشقاقها حتى صاحت لواحظ وهى تضحك :

— قرعة مافيش كلام . .

وتهاوى شطرا البطيخة تحت أعيننا متفتحين عن قمرين فى بياض الحليب .

قال محمد وهو يتنهد ويقفز عامداً إلى ما كانت تدور حوله من أول الليل خواطره :

— يادى البخت ياربى . . بقى ياستى هم كام جنيه اللى ناقصين قلتى لى ؟

ظلت نظرة لواحظ عالقة بالوجه الضامر الذى باغتها صاحبه بهذا السؤال ، وارتجفت يدها المستندة إلى ركبتى وهى تقول له فى صوت خافت يرتعش فيه الفهم العميق :

— احنا فى البطيخة يا محمد ولاّ فى الفلوس ؟

— كام جنيه ياشيخ عبد العليم قلت لى ؟ . . أيوه . . اتناشر وستين قرش كمان . . سى محمد المصرى معاه تمانية ونصف نخلى النص يتفنجر به يبقوا كام ؟ يبقوا تمانية . . ولواحظ ياترى معاها كام ؟ . . هه ؟ . . قولى ياست لواحظ . .

— إيه الكلام ده ياسى محمد . . . بكره تتعدل . .

— وما تتعدلش الليلة ليه ؟ . . معاكى كام بس قولى لى يابنت الحلال ماتوجعيش قلبى . .

ظلت زميلتى فى ترددها الحائر وبدنها الممتلئ المكتنز بالشباب يرتعد كله . فأهبت بها وقد مستنى بدورى من أمرها وأمر صاحبها هزة من الطرب :

ــ يا اختى انطقى بقى . .

ــ معايا . . معايا جنيه صحيح . . و . . شوية فكة ، مش عارفه كام . . ييجى نص جنيه برضه . . أنا عارفه . .

وفى حركة تمثيلية مقصودة ، ركع الأخ محمد أمامى ورفع إلى مقامى كفين ضارعتين :

ــ يامديحة يابنت الكرام ، قولى لنا معاكى كام !

ــ معايا اللى يكملهم خمستاشر بإذن الله . .

لمعت النجوم فوق رءوسنا ، ولمعت انعكاسات من إشراقها فى حبات الدموع التى انبثقت فى عينى لواحظ وتناثرت على وجنتيها . .

وتلامست عن غير قصد أناملنا وتعانقت خفقات قلوبنا وشاع فى الوجود كله من حولنا دفء بديع .

obeikandl.com

في صحبة شبلي

obeikandl.com

– هل شرب الدم البشرى يفيد الصحة ؟

كان السائل رجلا مهزولا يضطرب جفناه باستمرار فوق عينين شاذتين وفى ابتسامته غيبوبة وخبل ، وجدته جالساً أمامى ذات ليلة منذ بض سنين فى عربة قطار فى الريف .

فى أول اشتباكنا فى الكلام حيانى وسألنى عن صحتى ، ثم قال إنه يعمل سائقاً لسيارة نقل فى شبين الكوم ، ثم شكا لى من حا الصحية وشتم الأطباء بألفاظ الحشاشين ، ثم فاجأنى – بعد محطتي أو ثلاث – بذلك السؤال العجيب حقًا : هل شرب الدم البشر يفيد الصحة ؟

ولم ينتظر ردى بل أخذ فجأة يضحك من نظرتى المفزوعة إ جفنيه الخافقين . .

– بذمتك ، ألم تشربه ؟

– أشرب ماذا يارجل ! !

– ولو مرة ؟ . .

وكان القطار البليد يتسكع ويطيل الوقوف عند كل شبه محطة وقد نسيت أن أقول إن عربة القطار لم يكن فيها غير راكبين آخري أو ثلاثة ، نائمين فوق مقاعد بعيدة عنا ، وإن الوقت كان ليلا ، وإ لا أحاول هنا أن أروى القصة السخيفة المألوفة عن حالة رعب أما مجنون خيالى ، بل أن أكون أميناً على تصوير لقائى مع هذا برجا لا أستطيع أن أنساه ولا أعرف مصيره .

قلت له وقد بدأ يخيفنى البريق الشاذ فى عينيه :

ـ أهذا مزاح معقول يا أسطى ؟

ـ الأسطى شلبى . . محسوبك .

ـ تشرفنا .

ـ يفيد الصحة أم لا يفيدها ، بذمتك ؟

قلت له وأنا أحاول أن أضحك وأتبسط :

ـ الأسطى فى حالة فرفشة .

فانتقل إلى مقعدى وألصق بى كتفه وقال فى حماسة وانفعال ، ونظرته تتوه فى خفق جفنيه :

ـ الحكاية أساسها صحتى . . صحتى فى هذه الأيام ليست على مزاجى . . دكتور المركز يسخر منى . . والإخوان فى قهوة السواقين يسخرون منى . . وشىء فى دماغى يقول لى إن شرب الدم البشرى يجدد الشباب ويرجع الصحة . .

ـ شىء فى دماغك ؟

ـ شىء فى دماغى .

ـ صوت خفى تسمعه ؟

ـ لا ، أنا لا أسمع أصواتاً . . هناك شىء فى دماغى والسلام . . ويقول لى أيضاً ، هذا الذى فى دماغى ، إن كثيراً جداً من الناس يشربون الدم البشرى وأنه هو سبب الصحة التى ينعمون بها .

ـ أين ؟

ـ فى الدنيا . . وعندما رأيت حضرتك قال لى شىء فى دماغى إنك من الشاربين . .

ـ أنا ؟

ـ أليس عندك ، فى هذه الشنطة التى على الرف ، زجاجة من عصير الدم ؟ الليل طويل ، فتعال نشرب معاً . .

— ليس فى حقيبتى غير سجائر . . علب كثيرة . . هل تدخن ؟

فاضطربت جفونه الثقيلة العصبية ، وسألنى :

— ما اسمك يا أخى ؟

قلت له اسمى وقد سحر نظرى اختلاج جفنيه المرعبين ، وأسنانه الخربة وراء شفتيه الرقيقتين الشاحبتين :

— عبد الغفار حسونة .

— موظف ؟

— تاجر فى بركة الفيل .

— ماذا تبيع ؟

— سجاير .

— فقط ؟

— وحلويات ، وكراسات وأقلام ، ولعب وهدايا فى مواسم الأعياد . . لكن المفروض أنى قبل كل شىء بائع سجاير . .

وفى شبه توسل أجابنى مستعطفاً :

— لماذا لا تبيع الدم البشرى أيضاً فى دكانك ، فى زجاجات ثمن الواحدة شلن ، وتكسب الثواب فى جميع ضعاف الصحة فى البلد ؟ أتكره المكسب ؟ ألا تحب الخير للناس ؟ ما هذا الطبع السيء يا عبد الغفار يا أخى ؟

ورمى شنطتى بنظرة ركنية مريبة . .

قلت له فى محاولة بسيطة لتغيير الحديث :

— هل الأسطى شابى يملك سيارة النقل التى يقودها ؟

— لى نصفها ، لكن مسألة إخفاء الزجاجة فى شنطتك فيها جرح لإحساسى . .

لم يكن فى الشنطة غير هدايا للأهل فى البلد ، مجموعة من علب السجاير وقليل من ملابسى . . وقد راقبنى الأسطى شابى وأنا أنبض

فى إذعان لإنزالها من فوق الرف . . وكان « شىء فى دماغى » يقول لى فى تلك اللحظة إن شارب الدماء هذا خطر . . وإنه عندما يجد أن متاعى القليل خال من الزجاجة التى يطالب بها سوف يخرج هو من سلته هذه زجاجة فارغة — لعل امرأته كانت تستعملها للخل — ويملؤها من دمى . .

وفتحت الشنطة فأطل برأسه معى على محتوياتها ، فلما عرضت عليه أن يختار مما معى العلبة التى تعجب مزاجه ، وضع يده الناحلة المرتعدة على كتفى وضحك وهو يقول لى فى هدوئه الكريه :

— طلع الزجاجة يالئيم . أنا مالى وللسجاير يا سى عبد الغفار ؟ عاشت الأنفاس . . إنما أريد الزجاجة ، فصل على النبى ؟ . .

— يا أسطى شلبى . .

— صل على كامل الأنوار . .

— اللهم صلى عليه . . يا رجل هذا الهزار زاد عن حده . .

— هزار ؟ أتحسبنى أهزر معك ؟

وتوقد الخبل فى غيبوبة عينيه وصار صوته مشروخاً منفراً :

— لماذا لا تريد أن تكسب ثواباً فى أخ لك ؟ . . صحتى يا عبد الغفار صحتى . . ألا تهمك صحتى ؟ . . عندما رأيتك تجلس أمامى قال لى شىء فى دماغى إن علاجى عندك أنت ، لا عند دكتور المركز . . ليس عند دكتور المركز إلا كلمة واحدة « بس بطل انت الحشيش » . . أعطنى أنت ياعبد الغفار . . أعطنى . أعط أخاك شيئاً من الدم الذى عندك ، وكن ظريفاً . . لا بد لى أن أشرب من الدم البشرى . . ولماذا ترفض وأنا حتى الآن أطلبه من شنطتك لا من عروقك ؟ . . هات الزجاجة لنشرب فى صحتك وصحتى . . هات وصل على النبى . . اخز الشيطان وتبحبح . .

— أنت مجنون !

قلتها وأنا أرتجف إلى جانبه من الرعب ، وتمنيت أن يصحو أحد

الركاب القلائل من النوم ، وتعاق جبنى الطبيعى وكل حى للحياة برجاء جميل ، أن أسمع فجأة الرنة المعدنية المألوفة من قراضة التذاكر على ظهر أحد المقاعد البعيدة فى العربة ثم يظهر الكمسارى كالنبى المنقذ ويرى لنا حلا فى الأسطى شلبى . .

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . . .

كل ما حدث هو أن هذا الرجل النحيل الذى لا يكف جفناه عن الاختلاج انهار دفعة واحدة وعلى غير انتظار بين أمام كلمة مجنون . . وجهه الضامر المتعب اختفى بين كفيه المرتعدتين ، كأنما يريد أن يختفى من الكلمة ذاتها . . وأخذ الأسطى شلبى ينتحب فى طفولة . . كل ماحدث هو أن هذا المسكين الذى أخافنى قد بكى فجأة خائفاً من الجنون ، وأن قلبى رق له واحتار فيه . . لم يحدث بعد أن توعدنى بشرب دمى من عروقى شىء من تلك الأحداث المخيفة أو المضحكة التى كانت تبشر بها بداية لقائنا . . مجنونى أنا الأسطى شلبى أرعبنى قليلا ثم أخذ عطفى كله ساعة طويلة قبل أن نفترق عند نزوله فى محطة شبين الكوم . . ولا يزال يعيش فى نفسى فزعه من هذه « النوبة » التى تراوده كل شهر مع ظهور الهلال الجديد — على حد قوله — والتى تزداد كل مرة إلحاحاً على دماغه بتلك الفكرة العجيبة المتسلطنة . . أن الدم البشرى وحده هو سبيله إلى استرداد صحته التى أضاعها فى الغرز والأسفار والمواخير . . إن إلحاح هذه الفكرة يضطهده ويأخذ بخناقه فى مطلع كل شهر قمرى ويكاد يدفعه إلى الضراوة والفتك . . وقد ذهب إلى طبيب الصحة وصارحه بحالته وتوسل إليه أن يشفيه فقال له « بس بطل انت الحشيش » وصرفه فى سخرية . . وهو خائف من نفسه . .

وقف شلبى على رصيف محطة شبين الكوم يكلمنى وجفناه يضطربان فوق عينيه المحتقنتين ، حتى تحرك القطار . . لم يكن يريد أن يفلت يدى من بين يديه . . وكان آخر ما سمعته من كلامه :

ـ المصيبة يا عبد الغفار يا أخى أنى أول أمس كنت أنقل بطيخاً إلى طنطا ، فكان يخطر لى فى بساطة كلما رأيت إنساناً فى السكة الزراعية أنى يسعنى أن أصدمه وأصرعه وأشرب من دمه ثم أعود إلى عجلة القيادة وأستمر فى طريقى . . وهذا بالضبط هو ما أشعر أنى سأفعله ذات يوم . . يوم قريب . . وربما كنت أنت آخر من ينجو من عطشى . . أنا عطشان يا عبد الغفار . . لعلى قاتل أول عابر سبيل يقع فى طريق سيارتى غداً أو بعد غد . . ولعلى شارب من دمه . . وأنت ستمر بشبين الكوم فى عودتك إلى مصر بعد يومين ، فأستحلفك بالله أن تمر علينا . . أنا دائماً بالليل فى قهوة السواقين فى البر الشرقى . . تعال خد معنا نفسين ودبرنى فى الموضوع . . مع السلامة . . أنا فى انتظارك لكن . . بشرفك ، ألا يفيد صحتى . . يفيدها أم لا يفيدها . . يجب أن أعرف . . يجب أن أعرف . . .

هل عرف ؟

إنى لم أره بعدها !

obeikandl.com

الجريدة

obeikandl.com

منذ الساعة العاشرة من كل صباح يرابط الشيخ على عند صندوق البوستة المدفون فى جدار دوار العمدة ، والذى لم يحدث أن ظهر عنده عبد الواحد أفندى البوسطجى قبل الساعة الحادية عشرة .

والشيخ على – وهو كهل نظيف ومؤدب – قلق فى انتظاره ومتكلم . . عبد الواحد أفندى هذا شاخ مثل حماره ويجب إحالتهما إلى المعاش . . إنه يتأخر فى طوافه لأنه يفتح الصحف والمجلات ويقرؤها ويبحلق فى صور النساء العاريات وهن كاشفات فى الصور عن كل شىء . . فإذا ظهر البوسطجى كان الشيخ على أول من يهلل لمقدمه ، لكن عبد الواحد أفندى – وهو كهل محطم ونصيبه من الأدب والذوق محدود – يفهم نفسية الشيخ على ويطيب له أن يكايده . وفى توزيع الخطابات يتلكأ ويتباطأ ويدقق تدقيقاً مفتعلا فى شخصية متسلم كل رسالة . . والجريدة مطوية فى يده تحت رزمة الخطابات التى يوزعها على الجمهور الملتف حول حماره فى بطء ومناوشة وزعيق ومداعبات . . والشيخ على يتوثب إلى جانب الحمار بدون أن تطاوعه كبرياؤه فى طلب الجريدة بشكل قد يكشف شوقه إلى لقائها .

له فى بلدنا أربعة أفدنة وجاه ودوار وحصان ركوب ومكانة لكنه يقول كلما كلم أحداً : أسفاه ! لو أدخلونى المدرسة لكنت أعرف القراءة والكتابة !

وأخيراً يتلقى الجريدة من يد عبد الواحد أفندى لا الذى يعدم دائماً كلمة مسمومة يتوج بها تلذذه بتنغيص غبطة الشيخ على بوصول جريدته . . وهنا يحدث دائماً – كل يوم ، منذ سنوات وسنوات –

مشهد لا يتغير ولا يزيد أو ينقص منه شىء . . يطبق الرجل الجريدة ويضعها فى حرص . من طوق جلبابه البلدى : فى جيب هائل يكاد يشغل أحد مصراعى الصديرى المقلم ذى الأربعين زراراً ، وينطلق الشيخ على . . . ينطلق بمعنى الانطلاق . . وهو يهرول حقاً لكنه مسدد فى اندفاعه كالسهم . . إلى دكان محمود الخياط .

إلى ركن بعينه من حصيرة مصطبة الدكان الداخلية يتوجه الشيخ ويخرج الجريدة المطبقة من صدره ويفردها فى عناية ثم يشوح بها ناحية الخياط المشتغل وراء مكنة الخياطة الصغيرة ، ويقول له :

— سيب يا واد يا محمود المكنة دى وتعال نشوف الحالة إيه النهاردة . . دا يظهر الجريدة مليانة تمام النهاردة . . عبد الواحد أفندى قال لى كده فعلا وهو بيسلمنى الجريدة . .

وكل يوم ، منذ سنوات وسنوات ، يحدث فى دكان الخياط مشهد لا يتغير فيه إلا بعض جزئياته الضئيلة ، نتيجة لاختلاف شخصيات ضيوف الخياط وعددهم فى كل مرة . . . يوقف محمود المكنة فى هدوء ويتناول الجريدة ويبدأ من أول السطر فى الصفحة الأولى لا يبالى سياسة من تجارة ولا إعلانات من حوادث . . ساعة وساعتين وأحياناً أكثر . . إلى أن يجوعوا . . إلى أن يبح صوت الخياط ويتعب الشيخ على من عملية الرضا والسخط والاندهاش والفرح والحزن والتأييد والمعارضة وهى عملية تشترك فيها — مع كل عضلات الوجه والتفاتات الرأس وإيماءات اليد — طرقعات اللسان وانتفاضات الحاجبين وبعض الحركات الصوتية التى منها ما يخرج من الحنجرة ومنها ما يكون طريقه الأنف . .

ومحمود لا يشتكى ولا يتململ بل يجد لذة ويتهلل كل يوم لطلعة الشيخ على وجريدته .

والشيخ على يقول له « ياواد » لكنه فارس خيال ومحمود يحب فرسان الخيل النادرين فى المنوفية ، ثم إنه يحب اللبس النظيف ، وهو من أحسن

obeikandi.com

زبائن الدكان وأكرمهم . والشغل قليل . والوقت طويل . وصوت المكنة المستمر والكلام الفارغ من الزبائن والضيوف شيء يثير النفس . .

وجاء وقت صار البوسطجي فيه يعابث الشيخ على بدعابة واحدة ثقيلة لا تتغير : ماذا لو مات محمود الخياط ؟ !

وكان الشيخ على يقول إن محموداً قوى كالثور ولم يبلغ الأربعين ، وإنه هو الشيخ على الذى فات الخمسين سيموت حتماً قبل الخياط . . ثم يعود فيقول إن البلد فيها من يسرهم أن يعرفوا حال الدنيا على حسابه !

لكن محموداً الخياط هو الذى مات — فجأة — فى معركة دارت بعصى الشوم فى زفة عروسة كانت تمر أمام دكانه . . مات وأغلق دكانه !

فى تلك المناسبة الحاسمة قال له البوسطجي وهو يسلمه الجريدة ، فى شماتة :

— البقية فى حياتك !

لم يتكلم الرجل بل طوى الجريدة وأدخلها فى جيب الصديرى ، ثم مشى وئيداً نحو دكان محمود الخياط . . .

رمى باب الدكان الموصد بنظرة قاسية وأخرج من جيبه منديلا كبيراً فرشه فوق تراب مصطبة الدكان الخارجية الصغيرة ، وجلس .

وأخرج الجريدة ونشرها بين يديه .

وأطال التمعن فى سطور الصفحة الأولى وشكلها وصورها . . وأقبل من الدرب الكبير حمار البوسطجي فى طريقه إلى القرية المجاورة ، ونظر عبد الواحد أفندى فى الرجل الجالس وعرفه . .

طالما أغاظه وتسلى به وعكر صفوه . . لكنه فى هذه اللحظة أوقف الحمار فجأة أمام المصطبة ونزل عنه وأقبل فجلس إلى جوار الشيخ وقد أحس فى نفسه عطفاً عليه . . وتلقاه الشيخ على متوجساً ومتحفزاً للاحتدام . .

– تعرف أنا سمعت الناس فى بوستة شبين الكوم العمومية النهاردة الصبح بيتكلموا عن القطن والوزارة . . أخبار مهمة جداً فى الجرايد . . مليانة تمام لازم الجريدة . . وربنى أما نشوف الحالة إيه النهاردة . .

وقبل أن يتكلم الشيخ على كان عبد الواحد أفندى قد تناول الجريدة من يده وانحنى فوق صفحتها الأولى بركن وجهه الذى تقع فيه عينه اليسرى . . السليمة . . وقرأ . .

* * *

صارا صديقين ، حتى إن الشيخ على قال للبوسطجى وهو يودعه إلى الغد :

– من بكرة إن شاء الله نبحث لنا عن مكان أنسب من مصطبة الولد محمود . . دى سكة عمومية وميت سلام عليكم . . حانقرأ وإلا نرد السلام! .. إيه رأيك فى حوش الدوار عندى. . نقرأ على رواقة ونشرب قرفة على كيفك بتيجينى مخصوص من طنطا . . علشان كرام الضيوف أمثال عبد الواحد أفندى !

الفهرس

	الصفحة
١ ــ الرقص على العشب الأخضر	٥
٢ ــ نهاية رائد	١٧
٣ ــ الرقصة الجديدة	٥٣
٤ ــ فى السيرك (١) صانع الموت	٦١
٥ ــ فى السيرك (٢) صلاة الوحوش المؤمنة	٧١
٦ ــ فى السيرك (٣) الأجراس الصغيرة	٧٩
٧ ــ فى المجتمع	٨٥
٨ ــ الأقنعة	٨٩
٩ ــ فى سوق الزلط	٩٥
١٠ ــ الصعاليك	١٠٩
١١ ــ ليلة الشموع	١١٥
١٢ ــ صافحت الموت	١٢١
١٣ ــ بنت الحلال	١٢٩
١٤ ــ الكابوس	١٣٩
١٥ ــ عطر فى الظلام	١٦٩
١٦ ــ استقالة شهر زاد	١٧٩
١٧ ــ موسيقا رخيصة	١٨٧
١٨ ــ عمق الصوت	١٩٥
١٩ ــ بلا سيف	٢٠١
٢٠ ــ لقاء تحت المصباح	٢٠٧
٢١ ــ الستار الممزق	٢١٧
٢٢ ــ فى صحة شلبى	٢٢٧
٢٣ ــ الجريدة	٢٣٥

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٤٠٩٩ / ١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣